

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالمراسم الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



عدد خاص بالذكرى العشرين لعيد العرش المجيد



السنة الثانية والستون - العدد 428 شوال 1440هـ / يوليوز 2019م

428

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالمراسم الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة الثانية والستون - العدد 428 شوال 1440هـ / يوليو 2019م



أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م



”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولانا دُعاة العكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة «دعوة الحق» سبل النجاة والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى «مجلة دعوة الحق» بمناسبة صدورها في شهر يوليو 1957

إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الدينية
الملك محمد الخامس في شهر يوليو 1957

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الرقم الدولي : 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمانة - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس

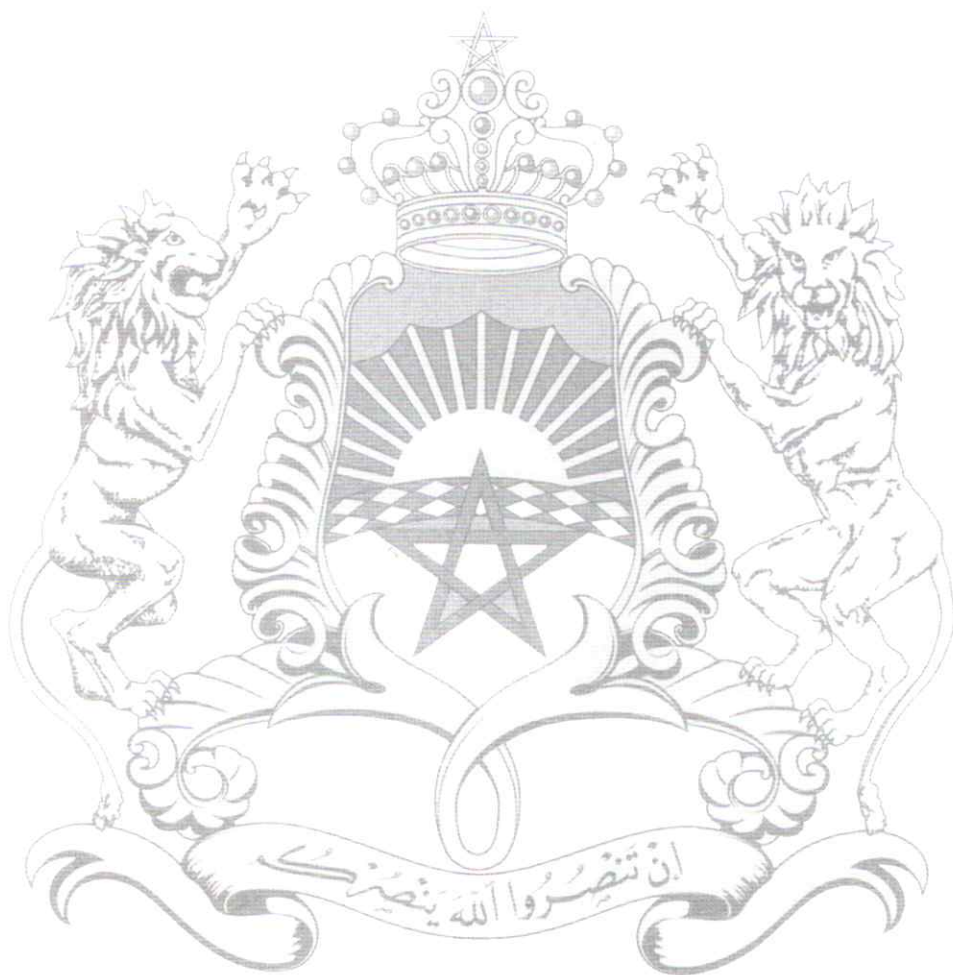


رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

"إن المغرب بماضيه وحاضره ومستقبله أمانة في أعناقنا جميعا. لقد حففنا معا العديدا من المنجزات في مختلف المجالات، ولن نتمكن من رفع التحديات وتحفيز التطلعات إلا في إطار الوحدة والتضامن والاستقرار والإيمان بوحدة المصير في السراء والضراء، والتخلي بروح الوطنية الصادقة والمواطنة المسؤولة " من خطاب مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله بمناسبة ذكرى عيد العرش المجيد لسنة 2019م.

هذه الكلمات الذهبية الراسخات جمعت كل ما تفتضيه الإمامة العظمى من حمل أمانة الدين ورعاية شؤون المواهبين في مختلف المجالات، وما حففته من منجزات عظام بدأ ونقاية من الأمن الروحي والاجتماعي مروراً بالاستقرار السياسي والاقتصادي وبالازدهار العمراني والعلمي والثقافي المنشود.

وتلك ذكرى عيد العرش المجيد لتبليغ رمزية خصوصية هذه الأمة المتجلية في إماراة المؤمنين ببيعتها الشرعية، وشروطها المرعية، وما نسجت عبر فروع مديحة من أواصر وروابط التلاحم بين مختلف شرائع الشعب المغربي، أثبتت للعالم أجمع مدى قوتها ومتانتها في المواقف الحاسمة والأزمات والضروب العصية.

وما زالت هذه الخصوصية قائمة تشهد بما حففته تاريخ العالم المعاصر في عصر الاستعمار وتحفيز الاستغلال والعبث على روح التعايش والحرية والديمقراطية حتى أصبحت المملكة المغربية مثالا يحتذى به في الاعتدال والتعايش والتسامح والاستقرار.

وإذا كان المرحوم الملك محمد الخامس مثلاً أعلى في التضحية والعطاء، والحسن الثالث في التشييد والبناء. فإن الذكرى العشرين لترجع أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله على عرش أسلافه المنعمين لتعمل رموزا خاصة لانشغالات جلالتة، كملأ إنسان أولا ببناء الإنسان المغربي بناء روحيا على الثوابت الشرعية، واجتماعيا على رفع تحديات الفقر والفحشاء، وثقافيا وفكريا وأخلاقيا ببناء العساء والعنب والتعصب، يقول جلالتة حفزه الله "بمنذ أن توليت العرش وأنا أائم الإصغاء لبض المجتمع، والانتصارات المشروعة للمواهبين، وأائم العمل والأمل من أجل تحسين ظروفهم".

وتخلينا لهذه الذكرى العاجلة بالمنجزات والمصالحات الخالدة، يسعد هيئة تحرير مجلة الدعوة الحق أن تخلص هذا العدد للذكرى العشرين لترجع أمير المؤمنين على عرش أسلافه الميامين، ونلما بمساهمات نخبة من العلماء والأساتذة والباحثين، لعل الفارئ الكريم يجد فيها المبتغى ويعفق المنى.

رئيس التحرير.

ملف العدد

الذكرى العشرينية تجديد للتلاحم بين الراعي والرعية

د. إبراهيم الوافي
جامعة ابن زهر - أكادير

إن الأمم والشعوب العريقة في المجد، من شأنها أن تظل وفية لعهودها ومواثيقها، ومتشبثة في نهجها بمبادئها، ومراعية لتوازنها الروحي والمادي المرتبط بجذورها، وتسعى دوماً إلى بناء حاضرها ومستقبلها على ما تتمتع به من رصيدها التاريخي والحضاري، وما تقوم عليه شخصيتها من المبادئ والثوابت والمقدسات.

ومن ثم فهي تعتز وتحتفي بذكرياتها، وتجعل منها مناسبة لتجديد حياتها، بتحريك ذاكرتها، فالمناسبات والأحداث المؤثرة في الكينونة والصيرورة، لها دور كبير في تفعيل روح الاقتداء والتأسي بما درجت عليه الأمة وما تعلمته من مقوماتها الدينية والحضارية، وآلت على نفسها أن تسير عليه، وجعلته استمداداً تمتح منه في الحاضر والمستقبل؛ وهو ما لا سبيل إلى تجاوزه للنظر فيما يحيله أو يبيده؛ لاندراجه في ذاكرة الأمة وعقيدتها وثوابتها الراسخة، واختياراتها التي فضلت أن تكون عليها، وصارت سنة من السنن التي لا تقبل التغيير ولا التبديل، وذلك لاستناده إلى السنن والآثار الثابتة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

لأن سنة إحياء الذكريات مما جاء به الإسلام وأدخله في شعاره، ويكفي من ذلك إحياء ذكرى نزول القرآن، المتمثلة في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، والمتكررة في كل سنة من كل رمضان يحييها الصائمون القائمون، والملائكة المقربون؛ وفي إحيائها تجديد للعهد والتزام به، وتشبث بمقتضياته.

ولا ينحصر أمر الاحتفال بالذكريات في المظهر، وإنما يرقى إلى المضمون والجوهر، الذي هو ترسيخ ما تحمله تلك الذكريات في أبعادها ومعانيها من رموز ودلالات، تجعلها حاضرة في الأذهان

في كل آن، وموقظا ماثلا للأجيال كشاهد العيان؛ إذ المقصد الهام منها هو التحسيس وإيقاظ الشعور، وترسيم خطى معالم الطريق، واستخلاص الأسباب والعبر، والنظر في النتائج والمآلات، وتعلم ما ينفع من تلك الذكريات؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾¹ وقوله ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾².

غير أن مراعاة الثوابت المقرون بالأخذ بأسباب الانفتاح والتطور العقلي والاجتماعي والاقتصادي، هو المنهج السائد في مسيرة النماء لدى شعوب العالم الناهضة؛ فبقدر ما نجدهم يعتنون ويعتزون بما لديهم من تراث وثوابت وذكريات، نجدهم يجيدون قراءة دروس ماضيهم القريب والبعيد، بالتحليل والتعليل، وكافة الوسائل المتاحة لخدمة مصالح بلادهم العليا، واستخلاص النتائج والحلول الناجعة لما ينزل بساحتهم من النوازل والقضايا المستجدة، غير متجاهلين أهمية ذلك الرصيد ودوره في تحقيق أسباب الرقي والتقدم على أكثر من صعيد، لا سيما ما يتعلق بمراعاة الأبعاد التي تضمن حفظ التوازن، وصيانة المكتسبات، وجمع الكلمة ووحدة الصف، وتحصين النفوس والكيان، وصيانة المصالح الخاصة والعامة، بما يضمن الاستمرارية في الحاضر والمستقبل.

على أن هذه الاعتبارات لم تعد قاصرة على ما لدى الأمم والشعوب من رصيد تاريخي وحضاري فحسب؛ وإنما صار الحرص يمتد إلى المزيد من الإغناء مما لدى الشعوب والأمم الأخرى، من خلال نسج العلاقات وتبادل اللقاءات والزيارات، التي تخدم مصالح البلدان من جهة، وتكون مناسبة للنش في ذكريات الشعوب الأخرى، للتعرف على خصوصياتهم الحضارية ذات النفع والمردودية في كافة المجالات، والاستفادة منها ومن إبداعات مفكرها وقادتها في توفير الرقي والأمن والازدهار.

وإذا كان أجدادنا المغاربة قد وفقوا في اختيار الثوابت، باستجابتهم التلقائية لدعوة الإسلام منذ عهد مبكر؛ فإن ذلك الاختيار قد دل على تمام وعيهم، ونبل مقصدهم، وبعد نظرهم؛ وبرهنت الأيام والسنون والأعوام على صحة ذلك وسلامته، مع العلم أنهم لم يكتفوا بالانضواء تحت رايته عقيدة وشريعة وسلوكا فحسب؛ وإنما جندوا أنفسهم ليكونوا حماة له، وقدوة صالحة في مجاله لغيرهم من الأمم والشعوب، بما دأبوا على غرسه من الفضائل، وبما بنوه وشيدوه من صروح العلم

1 - سورة الذاريات، الآية: 55.

2 - سورة الحشر، الآية: 2.

والعمران، وما نهجوه من ابتغاء السلم والسلام، اقتناعاً منهم بأن التمسك بثوابت هذا الدين والمحافظة على مقوماته هي السبيل الممهد لهم للحصول على النصر والتمكين، تحقيقاً لإرادة الكبير المتعال الذي قال: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض»³، وتحقيقاً لوعده حين قال: «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور»⁴.

ولا شك أن بلادنا قد حفتها العناية الربانية بما خصها الله به من العيش الرغيد، في ظل الدول التي تعاقبت عليها من عهد الأدارسة، إلى عهد الشرفاء العلويين، الذين ما فتئت مواكب سلاطينهم وملوكهم تتجدد، بظهور ملوك أعلام، وأئمة كرماء عظام، هدفهم الإصلاح والرفي بالبلاد، وتحسين ظروف عيش العباد، في ظل رباط البيعة المقدس، لإمارة المومنين المؤسسة على الشريعة والدين، بيعة عامة تامة لأهل الحل والعقد، مبنية على قوله تعالى: «وأمرهم شورى بينهم»⁵، وقوله جل وعلا: «فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر»⁶؛ ولإنصاف، فإن ما يدعو إليه الإسلام في هذا الصدد من التشاور في الأمر يعتبر موجهاً بالأصالة إلى محل العصمة من الخطأ وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وإلى أمته بالتبع؛ ليكون التشاور وأخذ الرأي سنة ومنهجاً يسير عليها المسلمون في كافة مجالات حياتهم الخاصة والعامة

ليتمكنوا من معالجة "شؤونهم في جو من الوفاق والوئام، لا اختلاف بعده ولا اصطدام، ولا فرقة من ورائه ولا انقسام"⁷.

علماً بأن الإسلام منطقي مع نفسه، بحيث تتناسق جزئياته مع كلياته، وتتوافق تطبيقاته مع نظرياته، مصداقاً لقوله تعالى: «وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا»⁸.

3 - سورة القصص، الآية: 4-5.

4 - سورة الحج، الآية: 38-39.

5 - سورة الشورى، الآية: 35.

6 - سورة آل عمران، الآية: 159.

7 - التيسير في أحاديث التفسير للشيخ محمد المكي الناصري، (1: 280).

8 - سورة الأنعام، الآية: 116.

وانطلاقاً من الآية المشيرة إلى جملة الخصال الرئيسية التي يكون عليها قائد الأمة ورئيسها الأعلى وهي قوله تعالى: ﴿والله يوتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾⁹، أنه لا يتأهل لرياسة الدولة إلا من آتاه الله حظاً وافراً من الخصائص والمواهب الروحية والجسمية، وكان له شغوف على الباقين، ومكانة مرموقة بين الناس أجمعين؛ لأنه يبايع من قبل المسلمين، وبيعته ملزمة؛ لأنها جزء من عقيدة المسلم؛ لما جاء في صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية»¹⁰.

وإذا كانت البيعة قد أخذت اسمها من معهود الناس في البيع والشراء بإسناد البائع المنفعة للمشتري قبولاً وإيجاباً؛ فإنها بذلك صارت تعاقداً وتعاهداً بين الراعي والرعية على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والتفويض في الأمر وعدم المنازعة فيه، وهذا هو مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع، وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة¹¹ وعند الشجرة¹²؛ وهذا من المؤكد "على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانته وإمامته، ولا تكون أفعاله عبثاً ومجاًناً، واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك، والله القوي العزيز"¹³.

ولا يخفى ما في الإمامة ومشروعيتها من المصلحة؛ فيكفي أن يكون المقصد من انعقادها النظر في مصالح الأمة الدينية والدنيوية؛ سواء في حياة الناظر أو بعد مماته؛ وذلك "بأن يقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولّاها، ويثقون بنظره لهم في ذلك، كما وثقوا به فيما قبل، وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده؛ إذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة، وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه وعنهم، وكذلك عهد عمر في الشورى إلى الستة بقيّة العشرة، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين، فقوّض بعضهم إلى بعض، حتى أفضى ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف، فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى عليّ،

9 - سورة البقرة، الآية: 245.

10 - صحيح مسلم: كتاب الإمارة؛ 13 - باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، ح. 58 - (1851).

11 - السيرة النبوية لعبد الملك ابن هشام الحميري المعافري (ت. 213 هـ)، ت. طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، (2: 67).

12 - الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (ت. 230 هـ)، ت. محمد عبد القادر عطا، ط. 1، دار الكتب العلمية - بيروت، 1410 هـ - 1990 م، (2: 75).

13 - مقدمة ابن خلدون، (1: 262).

فأثر عثمان بالبيعة على ذلك، لموافقته إياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعنّ دون اجتهاده، فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته، والملا من الصحابة حاضرون للأولى والثانية، ولم ينكره أحد منهم، فدلّ على أنهم متفقون على صحة هذا العهد، عارفون بمشروعيته؛ والإجماع حجة كما عرف، ولا يُتهم الإمام في هذا الأمر وإن عهدَ إلى أبيه أو ابنه؛ لأنّه مأمون على النظر لهم في حياته، فأولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته¹⁴.

وهذا النص المحرر من ابن خلدون في القرن التاسع الهجري وهو العالم المؤرخ والمنظر الناقد، صدر منه عن اقتناع بقطعية ما تؤصله الشريعة؛ لأنه "لو جاز تعلق الظن بأصل الشريعة؛ لجاز تعلق الشك بها، وهي لا شك فيها، ولجاز تغييرها وتبديلها، وذلك خلاف ما ضمن الله عز وجل من حفظها"¹⁵؛ وقد أثبتت الأيام سلامة وجدارة أمر نظام الحكم في الإسلام، وخضع لدراسات وأبحاث ومناظرات أكدت جدارته، وظلت تحيل على نبعه الصافي الفياض المتمثل في مرحلة التأسيس، المحتكم فيها إلى الأصول الشرعية من كتاب وسنة وإجماع لتقرير مصالح المكلفين.

ولهذه الاعتبار جعل الإسلام بيعة الإمام الأعظم لازمة، لكونها أمانة عظيمة محققة للمصلحة، وأعلاها توفير الضروريات الخمس المتمثلة في حفظ النفس والدين والمال والعرض والعقل، فضلا عن الحاجيات والتحسينيات ومكمل كل واحد منها.

وقد حقق العلماء في شأن البيعة الشرعية وانتهوا إلى أن المسلم إذا وجد في بلده بيعة تامة للإمام، فهي لازمة له ولكل أفراد المسلمين في ذلك البلد، ومن لم يلتزمها وقع تحت طائلة الوعيد الشديد.

وحينما نتأمل خطابات ملوك الدولة العلوية في علاقتهم بالرعية، ومنهم مولانا أمير المؤمنين محمد السادس، أعز الله أمره وخلد في الصالحات ذكره، فإننا نجد لها معبرة عن كل هذه المقاصد؛ ومن ذلك ما جاء في خطابه في الذكرى التاسعة عشر: (... وستجدي شعبي العزيز، كما عهدتني دائما، خديمك الأول، الحريص على الإنصاف لانشغالاتك، والتجاوب مع مطالبك، والمؤمن على حقوقك ومقدساتك...) ¹⁶.

14 - مقدمة ابن خلدون، (262/1).

15 - الموافقات للإمام الشاطبي، (20 : 1)

16 - من خطاب الذكرى 19 لتربع جلالته على عرش أسلافه المنعمين 29 يوليوز 2018م.

فهذه الكلمات على وجازتها، وجزالة ألفاظها، تصدع بأصدق التعبير عن تقدير المسؤولية، وعن الحرص على العمل بمقتضياتها، وعن الوشائج التي تجمع بين الراعي والرعية، وما تحمله من معاني الود والوثام، التي تربط بينهما على مر السنين.

ومنه يتضح ما قلناه من حضور عناية الله وإكرامه تعالى للمغاربة، وإرادته بهم خيرا وصلاحا وفلاحا، بهداية قلوبهم لدين الإسلام الذي وجدوا فيه ضالتهم من الوحدة والتوحيد، وانطبعت بتعاليمه اختياراتهم، واستمدوا منه أصول نظام البيعة الشرعية، الذي تحت ظله يتحقق التعايش السلمي والأمن الاجتماعي، وكل ما فيه مصلحة البلاد والعباد.

وللمغاربة في هذا الباب سنن درجوا عليها في حياتهم؛ ومنها حرصهم على ترك بصمات خالدة لأجيالهم، إن على مستوى التلاحم والتآزر وجمع الكلمة، لا سيما في الأوقات العصيبة، أو على مستوى التشبث بالثوابت والمقدسات، مما تشهد له دلائل الواقع وغيرها من الإثباتات، ومن جهة أخرى فإن الذاكرة المغربية ذاكرة قوية، عريقة الجذور، غنية عن التعريف، مشهود لها بالاعتبار، سقتها سنون من الخصب والأجناد، وتعطرت بذكريات السعد والإسعاد، وما بالعهد من قدم؛ فهي الذكرى العشرين لتولي مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس عرش أسلافه المنعمين، تحل بأريجها العطر، وتتصب فرصة سانحة لتعبير المغاربة عن إخلاصهم لثوابتهم، وعن تفانيهم في حب بلادهم وملكهم، وهو نهج رائد، صارت تترسم خطاه الشعوب، وتتعلق بنموذجه المتميز الفريد في البيعة وإمارة المؤمنين.

وحسبنا من الذكرى العشرينية أن تكون مناسبة لتجديد ذلك العهد والتعبير عن الاستمرار على الوفاء به، والسير على درب النماء وتحقيق المزيد من المكتسبات التي تقلدتها هذه الذكرى؛ والتي ما فتئ سيدنا المنصور بالله يجدد استحثائه للأمة بكل أطيافها ومؤسساتها على المضي قدما في تفعيل مشاريع التطور والتنمية، اقتداء بالأمم والشعوب الأخرى، وأخذاً بمبدأ الانفتاح على تجارب الآخرين والاستفادة منهم في العمل الدؤوب المتقن، ومناهج البحث العلمي الرصين، واكتساب المهارات المهنية، لا سيما وأنهم دول الجوار، وللجوار والمخالطة تأثير لا يخفى في إيقاظ روح وهمة الجار.

إن ما يدعو إليه ولي الأمر، والرائد الذي لا يكذب أهله، من ضرورة إسهام وإشراك الجميع في تسريع المشروع التنموي الجماعي، والتحلي بروح المبادرة الحرة الذكية المتميزة، بدون استكانة للإكراهات والمعوقات، هو التشخيص الحقيقي لمقتضيات التنمية بمختلف أنواعها، والإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، الهادف إلى عقلنة استثمار طاقات البلاد، فلا بد من التحلي بما يكفي من

الوعي لمواكبة ما يخطط له وما يدعو إليه، عسى أن تستوعب فعاليات المجتمع أفكاره البناءة ومنهجها الخلاق، الذي به يحصل التجاوب التلقائي والسعي في خدمة الصالح العام.

وإن المستحضر لما عرفته البلاد في الفترة المعاصرة من محنة الحماية وما نتج عنها من التحديات، وما أظهره الشعب المغربي من التمسك بثوابته والوفاء لملكه محمد الخامس محرر البلاد طيب الله ثراه، الذي قاد ملحمة التحرير، قد كان درسا تجديديا للأصرة التي تجمع بين الشعب المغربي والملوك الأشراف، كما أن ما عرفه المغرب من قفزة نوعية وتطور ملحوظ على عهد صاحب الذكرى أعزه الله، في مسيرته العشرينية، قد لفت الأنظار إلى أنه كان بحق الرجل المدخر، ليكون ربانا ماهرا يسوق السفينة إلى بر الأمان؛ في ظل زوابع أحداث العالم الهوجاء؛ ولولا ما خصه الله تعالى به من الحنكة والحصافة، وبعد النظر، مع إخلاص النية وصلاح الطوية، ما تحققت تلك المنجزات الضخمة والمشاريع الطموحة التي يسهر عليها ويتعهد بها من تأسيسها حتى تصير حقيقة ملموسة ماثلة للعيان، فهو حفظه الله ورعاه من أولي العزم والحزم والرأي، يسعى جهده في جمع الكلمة، ولم الشمل، وإسعاد شعبه وشعوب المنطقة من حوله، يمد يد التعاون والتسامح للقريب والبعيد، ويفتح صدره وقلبه للجميع، ويؤمن بالله ويقدر سنن الاختلاف، ويحكم مقتضيات التكامل والتآزر، بدلا من التقاطع والتدابير.

حفظ الله مولانا أمير المؤمنين بما حفظ به الذكر الحكيم، وجعله ذخرا للبلاد والعباد، وأقر عينه بسمو ولي عهده الأمير المولى الحسن وشد عضده بصنوه السعيد المولى الرشيد، ووفق الجميع إلى طريق الرشاد والتسديد آمين.

المرأة المغربية في عهد أمير المومنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله عشرينية تنموية وعطاء متجدد

د. ناجية أقجوج

جامعة سيدي محمد بن عبد الله
- فاس -

لقد عرف الفكر الإسلامي مفهوم التنمية منذ الأزل؛ حيث دعا القرآن الكريم إلى الإنماء والإعمار بالسكن والإقامة والتنمية على وجه الدوام، وجاءت السنة النبوية مبينة ودالة على تحقيق رسالة العمران بالحث على العمل والعطاء، وتنمية المال، والضرب في الأرض... كما قام الفقهاء المسلمون على بيان الأسس العامة التي تقوم عليها السياسة التنموية الحكيمة، وفق المنهج القرآني والبيان النبوي، وعملوا على تطوير مفاهيم التنمية طبق مقاصد الشريعة وخصائصها المتمثلة أساساً في الشمول والتكامل والتوازن والدوام...

ولا شك أن تحقيق رسالة العمران على الوجه الأمثل وضمان شروط الاستمرارية والاستدامة يظل رهيناً بمبادئ وأهداف إنسانية أساسية من قبيل: الحرية والعدالة والمساواة والكرامة، والحصول على آليات المعرفة والإبداع، وتوفير فرص الإنتاج، والموارد الأساسية الكفيلة باحترام الذات وضمان حقوق الإنسان.

كما أن تمكين الأفراد - رجالاً ونساء - من هذه الغايات السامية يعد بداية خارطة طريق بناء القدرات الذاتية في مجالات المعرفة بمختلف صنوفها وشتى أنواعها، وإمداد هذه القدرات الكامنة بالوسائل الضرورية والآليات الفعالة لتحقيق الأهداف التنموية المرجوة والضامنة للعيش الكريم والأمن والرفاهية والاستقرار. ذلكم لأن التنمية ينبغي أن تنطلق أساساً من التنمية الإنسانية التي تتحقق بالشخصية والفكر والثقافة، والعلاقة بين الإنسان ومحيطه، وكذلك بروح القيادة والمبادرة، واحترام القيم والمبادئ.

ولقد اعتمد المغرب في ظل إمارة المومنين، والإسلام السني المالكي، وخيار الانفتاح المنضبط على المبادئ والمرتكزات السالفة والكفيلة بانخراط المواطنين والمواطنات على حد سواء في مسلسل التنمية البشرية المستدامة.

كما ركز جلالة الملك محمد السادس نصره الله منذ توليه العرش اهتمامه على التنمية البشرية، وأولى عناية خاصة بقضايا المرأة وشؤون الأسرة ودعا إلى تأهيلها للانخراط في المجتمع بكل ثقة وجدية وذلك من خلال جملة من الأوراش والخطط والبرامج التنموية الهادفة والطموحة. إيماننا منه أن تنمية المجتمع لا يمكن أن تتحقق برجاله دون نساءه، وهذا ما أشار إليه حفظه الله تعالى في أول خطاب له بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب حيث قال أعزه الله: "...وكيف يتصور بلوغ رقي المجتمع وازدهاره والنساء اللاتي يشكلن زهاء نصفه تهدر مصالحهن في غير مراعاة لما منحنهن الدين الحنيف من حقوق هن بها شقائق الرجال تتناسب ورسالتهن السامية في إنصاف هن مما قد يتعرضن له من حيف أو عنف مع أنهن بلغن مستوى نافسن به الذكور سواء في ميدان العلم أو العمل"¹.

واعتبارا لمكانة المرأة في المجتمع ودورها الفاعل في جميع المجالات، دعا حفظه الله إلى "ضرورة إشراك المرأة في الأنشطة التنموية، وتمكينها من ممارسة جميع حقوقها كعنصر فاعل ومؤثر في المجتمع"².

إن هذا النطق المولوي السامي الذي جاء أياما فقط بعد تولي مولانا أمير المؤمنين حفظه الله عرش أسلافه الميامين شكل ثورة ونهضة حقيقية في حياة المرأة المغربية، وكان إشارة قوية لكل الفاعلين والمسؤولين إلا أن إشراك المرأة في جميع مناحي الحياة يعد عاملا أساسيا في التنمية البشرية بكل أبعادها المتاحة.

وفي هذا السياق، حظيت المرأة المغربية بالرعاية الكاملة في ظل إمارة المومنين على مستويات عدة؛ سواء من خلال هيكلة وتأهيل الحقل الديني؛ حيث تم إشراك المرأة العاملة ضمن أعضاء المجالس العلمية اعترافا بدورها وإقرارا بمكانتها العلمية، أو من خلال إيجاد مدونة للأسرة

1 - مقتطف من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب، الرباط 20 غشت 1999م
2 - من الرسالة الملكية الموجهة إلى الوزير الأول حول المخطط الخماسي، الرباط/الخميس 16 دجنبر 1999م.

وتفعيلها على الوجه الأمثل، أو من خلال الدعوة إلى ضرورة إدماج المرأة في مسلسل التنمية البشرية... والعمل على إقرار مبدأ المناصفة وجعل المرأة والرجل شقائق في الحقوق والواجبات اقتداء بسنة جده المصطفى عليه الصلاة والسلام، إنصافا للمرأة، وحماية لحقوقها ولكرامتها التي ضمنها لها الشرع الحكيم، وهذا كله في إطار مقارنة عقلانية كفيلة بتحقيق الإدماج المنشود، والإصلاح المطلوب، والتنمية المتبغاة؛ وهو ما جاء في النطق الكريم لمولانا أمير المؤمنين حيث قال أعزه الله: "... وكأمر للمومنين فإن لي اليقين بأن الشريعة الإسلامية السمحة والسنة النبوية لجدي المصطفى عليه السلام المكرمة للمرأة كفيلة في عصرنا الحاضر من خلال فتح باب الاجتهاد، وبذ كل انغلاق وتحجر أن تمكننا من إنصاف المرأة في نطاق الشريعة وبواسطة مقاصدها السمحة".³

أولا: المرأة المغربية شريكة في تنمية الوعي الديني

غير خاف أن العشرينية الأخيرة كانت محطة بارزة في تاريخ المرأة المغربية حيث فتح لها باب القيام بالمهام الرسالية أمرا ونهيا وإصلاحا وتنويرا كأخيها الرجل تماما وذلك عملا بمقتضى قول الله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويوتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾⁴، وأعطى لها حق الإسهام في تنمية الوعي الديني كعنصر فاعل في المجتمع أولا، ولأن التنمية لا تتحقق بمفهومها الشامل إلا بتنمية جميع شرائح المجتمع وإسهام كل أفرادها ثانيا، كما أنها، ثالثا، لا يمكن أن تكتمل بمعزل عن أعمال البعد الديني، وهذا ما أكد عليه أمير المؤمنين حفظه الله بقوله: "... فإننا ما زلنا نؤكد على ضرورة إدماج الخطاب الديني في صلب المشروع المجتمعي الذي نعمل جادين على إنجازه، لتحقيق التنمية البشرية المنشودة، ورفع تحدياتها، واستشراف المستقبل في ثقة وعزم واطمئنان"⁵. وهو الأمر نفسه الذي أشار إليه جلالته في الرسالة الموجهة إلى الملتقى الوطني للعالمات والواعظات والمرشدات المؤطرات للشأن الديني حيث قال: "... وكما لا يخفى عليكم، بأن أي تنمية للإنسان لا تأخذ بعين

3 - من حديث صحفي خص به جلالة الملك أربع مطبوعات إعلامية لبنانية عشية انعقاد القمة العربية-بيروت / 21 مارس 2002م.

4 - سورة التوبة، الآية 72.

5 - من نص الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى أعضاء المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية بمناسبة انعقاد الدورة العادية الأولى للمجلس العلمي الأعلى لسنة 2009م، الرباط: 03 جمادى الأولى هـ/ 29 أبريل 2009م.

الاعتبار بعديه الروحي والجسدي تظل ناقصة وبدون جدوى، وبالتالي لن يتحقق معها التوازن المبتغى والإصلاح المنشود⁶.

من هذا المنطلق واستحضارا للاعتبارات السابقة انخرطت المرأة في تنمية الوعي الديني إسوة بأخيها الرجل، وذلك من خلال تمكينها من مهام علمية رفيعة وتشريفها برتب سامية، وإنزالها منازل عظيمة سنحاول استحضار أهمها وفق البيان الآتي:

1- المرأة المغربية في رحاب الدروس الحسنية الرمضانية : تشریف مولوي

لا شك أن إشراك المرأة المغربية العاملة في إلقاء الدروس الحسنية هو اعتراف بجهودها وتقدير لمكانتها العلمية، وتأكيد لمبدأ المناصفة الذي أعلن عنه مولانا أمير المؤمنين حفظه الله، حيث أصبحت المرأة العاملة تجلس على كرسي الدروس الحسنية الرمضانية وتلقي الدرس بين يدي أمير المؤمنين كما يلقيه السادة العلماء تماما.

ففي رمضان من العام 1424هـ ألفت امرأة عالمة أول درس حسني في موضوع: "كونية نظام الأسرة في عالم متعدد الخصوصيات"، ومنذ ذلك الوقت توالى مشاركة النساء في هذه الدروس مساهمة في خدمة الإسلام الوسطي، ومتناولة بالدرس والتحليل مواضيع مهمة وقضايا متنوعة في العلوم الشرعية والثقافة الإسلامية...

2- المرأة المغربية في حظيرة المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية: أصالة متجذرة

لقد كان حرص مولانا أمير المؤمنين على "إشراك المرأة المتفكحة في هذه المجالس إنصافا لها ومساواة مع شقيقها الرجل"⁷ في العام 2004م قيمة مضافة وتجربة متميزة في مجال تدبير الحقل الديني إسوة بأخيها الرجل حيث أصبحت بدورها تسهم في نشر الوعي الديني الصحيح وتعمل على تصحيح المفاهيم الخاطئة وإزالة ما علق بالأذهان من سقيم الفكر وفاسد الاعتقاد في وقت كان فيه جانب كبير من الأمة غائبا عن خطاب المؤسسة العلمية، وهو ما كان له أثره الإيجابي في التنوير وفي الارتقاء بالشخصية المغربية والانخراط في حركية الإصلاح الشامل الذي يقوده مولانا أمير المؤمنين نصره الله.

6 - من الرسالة الملكية الموجهة إلى المشاركين في اللقاء الأول للعلماء والواعظات والمرشدات المؤطرات للشأن الديني، الرباط 24 رجب 1430هـ/17 يوليوز 2009م.

7 - من الخطاب الملكي السامي أمام المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية، الدار البيضاء 30 أبريل 2004م.

إن هذه المبادرة المولوية تعد سابقة في بابها وتدل حقا على مدى العناية بالمرأة وتكريمها، وتنم عن أصالة متجذرة في اقتداء أمير المؤمنين أعزه الله بجده المصطفى عليه الصلاة والسلام في إشراك المرأة في جميع ميادين الحياة الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما تدل على أن هذا العمل ما هو إلا استمرار لحمل رسالة الاستخلاف في التربية والتوجيه والتنوير والتثقيف، واستئناف لما كانت عليه أمهات المؤمنين والصحابيات من تبليغ ونشر لتعاليم الدين، وحرص على حلقات ومجالس العلم... حيث كانت المرأة كما هو معلوم عالمة محدثة متفقهة، ومستشارة خبيرة، وواعظة للرجال في أمور وللنساء في أمور، كما كانت واعظة للنساء... وزد على ذلك أن الرسول ﷺ خصص للمرأة مجلسا للوعظ والإرشاد؛ فعن أبي سعيد الخدري: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك، فوعدهن يوما لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال هن: «ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها، إلا كان لها حجابا من النار» فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: «واثنين»⁸.

وإن المرأة المغربية العالمة ومنذ تعيينها عضوا في المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية استجابت لمبادرة أمير المؤمنين وتفاعلت بكل ما تملك من قدرات فكرية وعلمية مع الخطة المولوية السامية في التنوير ونهج سياسة القرب، واستطاعت أن تدخل إلى عمق الأسرة المغربية في القرى والبوادي كما في الحواضر والمدن، وأن تسهم في نشر الوعي الديني الصحيح.

واعترافا بهذه الجهود المضنية والمبذولة في القطاع النسائي بالمجالس العلمية وتأكيدا للأمال الكبيرة التي يعقدها أمير المؤمنين على دور العالمة في الإسهام بقسط وافر في تحقيق النهضة الشاملة للأمة جاء قرار مولانا أمير المؤمنين أعزه الله في العام 2015م، بتعزيز التمثيل النسوي في تأطير الأمن الروحي للمواطنات والمواطنين وذلك برفع عدد العالِمات في حظيرة كل من المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية.⁹

ولا شك أن العناية بهذا المجال يعني العناية بالمرأة المغربية في جميع الميادين والمستويات فما المرأة العالمة إلا ممثلة النساء وراعية الأسرة، وفاعلة في تنمية الوعي الديني الذي يعد أساس كل تنمية منشودة.

8 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب: هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم؟ رقم 101.

9 - حسب بلاغ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية حول تعليمات أمير المؤمنين بتعزيز التمثيل النسوي في تأطير الأمن الروحي، الخميس 09 أبريل 2015م.

3 - المرأة المغربية في منظومة الإرشاد الديني: تعزيز وتميز

لقد كان من بين ما أنعم الله به على هذا البلد، بعد أن فتح عليه بإدماج المرأة في الحقل الديني، تعزيز جهاز العلامات بفئة المرشدات التي جاءت بوصفها إضافة نوعية للعمل النسوي داخل المجالس العلمية اعتبارا لطبيعة تكوينها العلمي المتكامل والمتنوع، والمتضمن لمختلف العلوم الشرعية الأساسية والعلوم الإنسانية والمهارات التواصلية، ونظرا للمهام الدينية النبيلة الموكولة إليها والمتمثلة في التأطير والإرشاد...

ومنذ تخرج الفوج الأول من تكوين الأئمة المرشدين والمرشدات تمكنت المرشدة الدينية من الانخراط الفعال في الخلايا النسوية التابعة للمجالس العلمية، والإسهام في مختلف الأنشطة العلمية والثقافية والاجتماعية، والانفتاح على المجتمع بمختلف شرائحه والانصهار في قلب الأسرة المغربية.

وجدير بالذكر أن المرشدة الدينية وبعد مرور أربع عشرة سنة من عملها قد أبانت عن نجاح باهر في تجديد خطابها الديني والارتقاء بأدائها المتميز مواكبة ما يشهده المجتمع من حركية وما يعرفه من تطور فكري وثقافي، وكذا ما يعيشه العالم من تحولات متسارعة ومن تحديات تواجه الأسرة المغربية، ومساهمة في ترسيخ الأسس العامة ونشر القيم المثلى وتحقيق الأمن الروحي للمواطنين والمواطنات في إطار الثوابت الدينية وفي ظل إمارة المؤمنين. واستجابة لدعوة أمير المؤمنين لإصلاح الحياة الأسرية وتنوير الفتيات: "... في غمرة الإصلاح الواسع للشأن الديني، نولي أهمية خاصة للدور الكبير للمرأة العاملة، ولما يمكن أن تغني به برامج من خدمات متنوعة وخاصة في باب إصلاح الحياة الأسرية ودنيا المرأة وتنوير عقول الفتيات وتنشئتهن على حب الوطن والاعتزاز بثوابته ومقدساته في تشبث مكن بقيم الإسلام السمحة ومبادئه الخالدة"¹⁰، وللإسهام في نبذ نزوعات الغلو والتطرف كما جاء في الرسالة الملكية السامية الموجهة للمشاركات في الملتقى الوطني الأول للعلامات والواعظات والمرشدات المؤطرات للشأن الديني، حيث قال حفظه الله: "ومن هذا المنطلق، فأنتن مدعوات إلى المساهمة الفاعلة في محاربة التخلف والإقصاء وتنوير العقول والقلوب، وتنقيتها من سقيم الفكر وفساد الاعتقاد ومن نزوعات التطرف والانغلاق"¹¹.

10 - مقتطف من الرسالة الملكية السامية الموجهة للمشاركات في اللقاء الأول للعلامات والواعظات والمرشدات المؤطرات للشأن الديني، الرباط 24 رجب 1430هـ/ الموافق لـ 17 يوليوز 2009م.

11 - مقتطف من الرسالة الملكية السامية الموجهة للمشاركات في اللقاء الأول للعلامات والواعظات والمرشدات المؤطرات للشأن الديني، الرباط 24 رجب 1430هـ/ الموافق لـ 17 يوليوز 2009م.

4- المرأة المغربية في فضاء الإعلام الديني: إبداع وإشعاع

لا شك أن الإعلام هو الوسيلة الكفيلة بنقل الأفكار والتوجهات والإرشادات إلى فئة عريضة من الناس وخاصة في العصر الراهن؛ حيث أصبحت أجهزة الإعلام ومؤسساته المختلفة وآلياته المتنوعة، وأساليبه المتشعبة وأهدافه المتعددة جزءا أساسيا في تركيبة المجتمع؛ وصارت الممارسات الدينية والدعوية والسياسية والاقتصادية والثقافية والتربوية كافة تقوم على أساس الاستفادة من هذه الأجهزة الإعلامية المختلفة لتوفير رسائل إعلامية لعدد من الناس غير محدد بمكان ولا زمان ولا جنس ولا فئة عمرية....

وإذا كان الإعلام الديني يعد أداة فاعلة في تنمية الوعي الديني فإنه جاء في سياق إصلاح الشأن الديني في بلدنا، وبذلك -وعلى غرار سائر الهياكل والوسائل- خطا خطوات مهمة في مجال تثبيت أركان الدين وتبليغ خطاب وسطي إلى أكبر شريحة من المواطنين والمواطنات، خاصة بعد إطلاق أمير المؤمنين محمد السادس حفظه الله إذاعة وقناة محمد السادس للقرآن الكريم؛ وهي المنابر التي دخلت إلى بيوت المغاربة في المدن والحوضر كما في القرى والبوادي.

وإن المتتبع لمختلف البرامج الإعلامية التربوية والثقافية والدينية التي تقدمها هاتان المنارتان يلاحظ أن المرأة المغربية الإعلامية قد انخرطت بشكل جدي وفعال في نشر القيم الإسلامية المستلهمة من هدي القرآن الكريم والسنة النبوية، وأبدعت من خلال برامج متنوعة إنتاجا وإعدادا وتنشيطا وتقديما، كما أسهمت من خلال مشاركتها وحضورها كضيفة في مختلف البرامج التوعوية الإرشادية والثقافية التنويرية سواء من خلال الإذاعة أو شاشة التلفزة في نشر الوعي الديني الصحيح وترسيخ الثوابت الدينية والوطنية.

5- المرأة المغربية العاملة في سياق البعد الإفريقي: سفيرة الثوابت وخيرة المشترك

لقد جاء تنصيب أعضاء المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة والذي شمل تعيين أربع نساء عالمات في حظيرة هذه المؤسسة ليبرز مرة أخرى عمق تحقيق مبدأ المناصفة أولا، ثم ليؤكد على أن المرأة المغربية شريكة لأخيها الرجل في تنمية الوعي الديني والإسهام في التعريف بقيم الإسلام السمحة ونشرها وتعزيزها، في الداخل والخارج.

ومنذ تنصيبها في 08 رمضان 1437هـ، 14 يونيو 2016م، أصبحت المرأة المغربية العاملة سفيرة للثوابت الدينية المتمثلة في إمارة المؤمنين والعقيدة والمذهب والمنهج السني في التصوف والسلوك،

حاملة أصول الدين إلى فروع إفريقيا في ظل الموروث الروحي والتراث الحضاري والثقافي المشترك، حريصة على "حماية العقيدة الإسلامية والوحدة الروحية للشعوب الإفريقية من كل النزاعات والتيارات والأفكار التضليلية التي تمس بقدسية الإسلام وتعاليمه ومقاصده"؛ فقد خبرت وحضرت وحاضرت في رحلة الأداء والتبليغ إلى جانب نخبة من العلماء وأسهمت بكل تفان في تحقيق الأهداف العامة التي تسعى المؤسسة إلى تحقيقها والتي من جملتها التعريف بقيم الإسلام السمحة ونشرها وترسيخها، وتنشيط الحركة الفكرية والعلمية والثقافية في المجال الإسلامي...

إنه يحق لنا اليوم -وبعد مرور سنوات على إشراك المرأة العاملة في تدبير الحقل الديني - القول بأننا على أبواب نهضة نسائية مغربية متفردة، وبأن الخطاب الديني النسوي قد أرسى دعائمه وثبت أركانه وبدت ثماره يانعة.... في ظل التوجيهات الملكية السامية والدعوة المتكررة للمرأة المغربية المتفكحة والتي كانت بلا شك نبراسا للنساء العاملات في المجال وعاملا مهما في تنمية الوعي الديني، وفي تحقيق التنمية بأبعادها المختلفة.

ثانيا: المرأة المغربية وتحدي الأمية الأبجدية: نجاح وانفتاح

كما لا يخفى على أحد أن طلب العلم فريضة شرعية وضرورة تنموية، وواجب ديني، وهو مصدر النور والهداية، وأن التنمية لا يمكنها أن تنطلق من الظلام وتسير في الظلام، وقد كان أول ما فعله الرسول ﷺ لحظة وصوله إلى مجتمع المدينة حيث أنوار الهداية بناء المسجد، وهي إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى وظيفة المسجد وأهميته في الدعوة إلى الله؛ وإضافة إلى أنه مكان للعبادة والتعبد فهو مكان لتحقيق رسالة سامية تهتم بإصلاح الحياة بكل جوانبها الفكرية والثقافية والاجتماعية والدعوية والإرشادية والإعلامية؛ وعلى هذا جرى العمل في الإسلام أن المسجد مركز للتعليم والتثقيف؛ وقد كان النبي ﷺ ينبه إلى دور المسجد فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: «من جاء مسجدي هذا لم يأت إلا بخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره»¹².

وإذا كانت رسالة المسجد قد اضطلعت عبر التاريخ الإسلامي بمهمة تعليم العلوم الشرعية التي هي أساس المسألة التعليمية، فإن التمكن من هذا العلم الشرعي وغيره من العلوم الإنسانية لا يتم إلا بالقضاء على الجهل والأمية، ووسيلة ذلك في السياسة الحكيمة لإمارة المؤمنين تعميم

12 - أخرجه ابن ماجه، في المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم.

التمدرس، والتربية غير النظامية، والتشجيع على طلب العلم وانتشال الأمة من الجهل والامية، أو كما جاء في النطق الكريم: "ولعنا في غير الحاجة إلى أن نؤكد أن الامية عار في جبين أي مجتمع وأنها عرقلة في سبيل التقدم وفي كل جهد يبذل لتحقيقه وأنها طريق لنشر الأوهام والشعوذة والخرافات والبدع الضالة. وأن وصمة هذا العار تزيد حين يتعلق الأمر بمجتمع مسلم يدعو دينه الحنيف إلى العلم والمعرفة بدءا من تعلم القراءة والكتابة معتبرا أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة أنه (لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)"¹³.

ومن هذا المنطلق قام المغرب ومنذ سنوات على إطلاق برنامج محو الامية بالمساجد معتمدا في ذلك بالدرجة الأولى على الأساس الديني المتمثل في الحث على طلب العلم والتوعية بأهميته، وفتح مراكز لمحو الامية الأبجدية والدينية والمعرفية، وفي أفق تحقيق جملة من الأهداف النبيلة من ضمنها تقليص نسبة الامية مرحليا ثم القضاء عليها نهائيا وضمان التربية والتمدرس لجميع الأطفال وخاصة الأطفال في وضعية صعبة والفتيات في العالم القروي، وذلك كسبيل لاكتساب مهارات التواصل من قراءة وكتابة وحساب، ثم تكريس الثقة بالنفس والرغبة في التعلم بغية الإسهام في التنمية الشاملة.

وبذلك أصبح بلدنا والله الحمد سائرا في طريق محو الامية في ظل الأهداف المذكورة وغيرها والجهود المبذولة والأهمية التي يوليها صاحب الجلالة نصره الله لهذا البرنامج الطموح، حيث إنه ما فتئ منذ توليه العرش يعمل على الحث على محو الامية باعتبارها ورشا مهما من أورش التنمية وتحقيق الديمقراطية وفتح باب المساجد للقيام بهذه المهمة النبيلة؛ حيث قال أعزه الله: "فبموازاة مع ما تنهض به الأجهزة الحكومية المعنية بهذا القطاع وما يقوم به المجتمع المدني وتأكيدها لما كنا أبرزنا في خطابنا من ضرورة إحياء دور المساجد وبعث رسالتها في تأطير المواطنين والمواطنات فقد أمرنا أن تفتح لدروس محو الامية الأبجدية والدينية والوطنية والصحية وذلكم وفق برنامج محكم مضبوط كلفنا وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتنفيذه بكل ما يقتضي من مدرسين ومدرسات من المجازين العاطلين عن العمل وما يتطلب من كتب وأدوات وما إليها من تجهيزات.

وقد ارتأينا أن يبدأ هذا التنفيذ مع انطلاق الموسم الدراسي الجديد في مجموعة من المساجد تم تحديدها على صعيد المغرب كله وأن تعطى فيها دروس تستجيب لحاجات المستهدفين وتواكب التطور والمستجدات.

13 - من الرسالة الملكية السامية الموجهة بمناسبة انطلاق مسيرة النور الخاصة بمحاربة الامية/ الرباط: الجمعة 13 أكتوبر 2003م.

وإننا لنأمل أن نتابع هذا الإنجاز الهام في السنوات الموالية بالزيادة في عدد المساجد وتوسيع مجالات المستفيدين والمستفيدات من هذه الحملة المباركة حتى لا تنقضي العشرية القادمة التي أردناها أن تكون للتربية والتكوين إلا وقد تغلبنا على هذه الآفة¹⁴.

وفي ظل هذا البرنامج الطموح والهادف استطاعت المرأة على وجه الخصوص أن تحقق نتائج إيجابية وأن تفتح على عوالم جديدة وتنخرط في ميادين عديدة، وتعمل على الارتقاء بالمهارات الذاتية والمعارف الشخصية.

ثالثا: المرأة المغربية في أسلاك الشرطة: جهود متواصلة

غير خاف أن مرسوم 2.0 1.2670 الصادر في 12 رمضان 1422هـ / 28 نونبر 2001م بتغيير وتتميم المرسوم رقم 2.75.879 بتاريخ 20 من ذي الحجة 1395هـ، 23 دجنبر 1975م، بمثابة النظام الأساسي الخاص بموظفي المديرية العامة للأمن الوطني¹⁵، والقاضي بإدراج المرأة المغربية في مختلف الأسلاك والدرجات، يعد ثورة حقيقية لإخراج المرأة من ظل سلك المسعفات وسلك المساعدات إلى أضواء الحياة العامة جنبا إلى جنب الرجل، فتعزز جهاز الأمن بعناصر نسائية تسهر على الأمن النفسي للمواطنين والمواطنات وحماية ممتلكاتهم؛ حيث نص الفصل الثاني منه خاصة على أن: " يدرج موظفو مصالح الأمن ذكورا وإناثا في الأسلاك والدرجات الآتية:

- سلك حراس الأمن؛
- سلك ضباط الأمن؛
- سلك مفتشي الشرطة؛
- سلك ضباط الشرط؛
- سلك قواد وحراس الأمن؛
- سلك عمداء الشرطة؛
- درجة مراقب عام؛
- درجة والي الأمن."

14 - من الخطاب الملكي السامي بمناسبة ثورة الملك والشعب وعيد الشباب، الرباط 20 غشت 2000م.

15 - منشور بالجريدة الرسمية بتاريخ 20 رمضان 1422هـ / 06 دجنبر 2001، عدد 4958، ص: 4057.

ولاشك أن هذا المرسوم الذي أنصف بحق المرأة العاملة في هذا الميدان والذي أعاد الأمور إلى نصابها جاء إثر العطاءات المتكررة التي حققتها المرأة الشرطية والتي تحقّقها يوما بعد يوم ونتيجة حتمية لعملها المتواصل، والتفاني في خدمة الصالح العام على الرغم مما يعرفه المجال من صعوبات وتحديات، وما تكابده من معاناة يومية في سبيل الارتقاء بعملها وتحقيق الأهداف الخاصة بمهمتها والتي في مقدمتها:

- الدفاع عن مقدسات الدولة؛
- إرساء الأمن بالبلد والحرص على تطبيق القانون؛
- حماية الممتلكات...

رابعا: المرأة المغربية ومدونة الأسرة: إنصاف وإقرار

ونحن بصدد تحرير المقال عن العشرينية الحالية وما تحقّق فيها من مكتسبات لصالح المرأة المغربية، لا يمكن أن نتجاوز الحديث عن مدونة الأسرة بوصفها خطوة رائدة من حيث كونها أولا مدونة تزاوج بين روح الشريعة الإسلامية ومقاصدها، وبين الظروف الاجتماعية المتغيرة والقضايا المستجدة وتطورات العصر؛ حيث أكد ذلك جلالته بقوله: "ولن يتأتى لنا ذلك إلا بمزاوجة خلاقة بين التثبيت بثوابتنا الدينية التي تشكل جوهر هويتنا وبين الانسجام التام مع روح العصر المتسمة بالطابع الكوني لحقوق الإنسان. وفي إطار الاجتهاد الذي أنتم مكلفون به وتحقيقا لمقاصد الشريعة السمحة في تحكيم المصلحة المشتركة بين أعضاء الأسرة في ظل التوازن المحكم بين الحقوق والواجبات..."¹⁶

ومن حيث كونها، ثانيا، مكسبا للمغاربة جميعا "بما تتضمنه من إنصاف للمرأة وحماية لحقوق الأطفال وصيانة لكرامة الرجل"¹⁷، وثالثا اعتبارا لما جاءت به مستجدات ترنو أساسا إلى تحقيق العدل والإنصاف والحفاظ على استقرار الأسرة وضمان تماسكها، وتثبيت مكتسبات المرأة كعنصر محوري فيها، وذلك من خلال تنظيم العلاقات المالية بين الزوجين وإقرار حق الزوجة في السعاية والكد والجري، وحماية حقوقها المالية في حال النزاعات الأسرية وانحلال الرابطة الزوجية...

16 - من الكلمة الملكية السامية التي ألقاها جلالة الملك خلال تنصيب اللجنة الاستشارية الخاصة بمدونة الأحوال الشخصية، فاس: الجمعة 27 أبريل 2001م.

17 - من الخطاب الملكي السامي بمناسبة استقبال جلالته لرئيسي مجلسي البرلمان وتسليمهما لجلالته قانون مدونة الأسرة بعد المصادقة عليه بالإجماع - الرباط: الثلاثاء 03 فبراير 2004م.

خامسا: المرأة المغربية في صلب المبادرة الوطنية للتنمية البشرية: تنمية وتطوير

إذا كان أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله قد أطلق مشروع المبادرة الوطنية للتنمية البشرية وأولاه الاهتمام والرعاية، مبادرة طموحة وخلاقة للرجال والنساء على حد سواء: "ومن هذا المنظور، فإن هدفنا الأسمى من وراء تحقيق هذا المشروع، هو توسيع دائرة الاستفادة من الإمكانيات المتوفرة، وإتاحة أكبر قدر من فرص الاختيار أمام كل المغاربة، رجالا ونساء. وهو الأمر الذي لن يتأتى إلا بالعمل على استئصال آفة الفقر والبؤس، التي تقف عقبة في وجه استثمار المواطن المغربي لمؤهلاته الذاتية، وتحول دون إسهامه واندماجه الكامل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية".¹⁸ فقد أعطى الأولوية لقضايا المرأة التنموية منذ توليه عرش أسلافه الميامين، وتناول قضايا المرأة في سياق التوجه الصحيح، والمعالجة الواضحة، والمنهج السليم، وفق ما يخدم المصلحة ويساير التطور والحداثة، وطبق ما يكفل تحقق التنمية المستدامة، وذلك من منطلق تجسيد التكامل بين المرجعية الإسلامية والمرجعية الكونية القائمة على الحرية والمساواة، والإنصاف والتضامن، مع الحفاظ في الآن نفسه على الهوية المغربية الإسلامية الثابتة، والاسترشاد بتعاليم الدين الإسلامي السمحة.

كما اعتبر مولانا نصره الله خدمة المرأة القروية ضمن أولويات مشروع التنمية البشرية؛ نظرا لما تعانيه هذه المرأة من فقر وتهميش وانعدام وسائل المعرفة بجميع أنواعها من جهة، ولأن هذه المرأة جزء من النسيج الاجتماعي للأمة لا يمكن إهماله أو إقصاؤه من جهة أخرى، وبذلك حظيت المرأة القروية بحيز مهم في الخطاب الملكية السامية، بل وفي الرسائل الملكية الموجهة إلى المشاركين في القمم العالمية؛ حيث يقول في الرسالة السامية الموجهة إلى المشاركات في القمة العالمية للنساء: "... واستشعارا لما تكتسيه تعبئة النساء، ومشاركتهن من ضرورة قصوى لبلوغ الأهداف التي رسمناها لأنفسنا بغية تحقيق النمو الاقتصادي والتنمية المستدامة لبلادنا، فإننا آلينا على أنفسنا أن نحسن وضع المرأة بتعزيز مكتسباتها والسهر على تمتيعها بحقوقها الإنسانية والاقتصادية والسياسية... وقد ركزنا الاهتمام أولا على المرأة القروية التي تشكل أكثر الفئات معاناة من الأمية والفقر، وذلك إيمانا منا بأن هذه القضايا هي من صميم حقوق الإنسان، وتشكل عراقيل بنيوية للديمقراطية".¹⁹

18 - من الخطاب الملكي السامي الموجه إلى الأمة، الرباط 18 ماي 2005م.

19 - من الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى المشاركات في القمة العالمية للنساء بمراكش، 28 يونيو 2003م.

وإن إمداد النساء بالمشاريع التنموية والأنشطة المدرة للدخل، وفتح مراكز للتربية والتكوين وتخصيص مشاريع المبادرة الوطنية للتنمية البشرية لتعليم وتعلم مختلف الحرف والصناعات والعمالات الشرعية والمهارات اليدوية،... لهي التفاتة مولوية وبادرة إنسانية تبرز مدى العناية بمبدأ التكافل الاجتماعي والرعاية الاجتماعية للأشخاص في وضعية صعبة...

واليوم وبعد مرور أربع عشرة سنة على إطلاق المبادرة الوطنية للتنمية البشرية يمكن القول إن المرأة المغربية -سواء كانت مستفيدة من المبادرة أو مبادرة في المشروع التنموي- قد انخرطت واستفادت من هذا المشروع التنموي الطموح واستجابت لمبادرة التنمية بكل ما تملك من مؤهلات ومن قدرات وخبرات، وأسهمت في البناء المجتمعي إسهاما حقيقيا.

سادسا: إنصاف المرأة السلالية رهان التنمية العقارية والاقتصادية

بعد عهود من الحجر والإقصاء والحرمان، وسيطرة الفكر الذكوري والتأويلات الباطلة والأعراف الفاسدة جاء القرار الحكيم بإنصاف المرأة السلالية وبإعادة الأمور إلى نصابها وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في المسألة؛ حيث أصبح للمرأة في الجماعات السلالية الحق في الانتفاع من العائدات المادية والعينية التي تحصل عليها الجماعة إثر العمليات العقارية التي تجري على الأراضي الجماعية بمعايير عادلة.

وكما هو معلوم أن هذا القرار الصادر من وزارة الداخلية جاء بعد طلب إبداء الرأي في الموضوع من المجلس العلمي الأعلى، حيث خلصت اللجنة الشرعية المكلفة بالإفتاء استنادا إلى جملة من الأدلة الشرعية والقواعد الفقهية العامة، وإلى الظواهر الشريفة المتعلقة بالموضوع وإلى الإفادات والبيانات المقدمة في هذا الشأن إلى أن "مسألة حرمان المرأة من الحقوق المادية والعينية في مثل هذه الحال موضوع السؤال، هي حال غير سليمة، كان عليها أهل الجاهلية قبل الإسلام، فجاء الدين الإسلامي الحنيف بتكريم المرأة وإنصافها، فأبطل تلك الأعراف والعوائد التي كانت تحرم المرأة من مثل تلك الحقوق، وحسم في الأمر وأنصفها وأعطاه حقوقها المشروعة". وتأسيسا على هذا قررت اللجنة الآتي: "من حق المرأة في الجماعة السلالية أن تستفيد كما يستفيد الرجل من العائدات المادية والعينية، التي تحصل عليها الجماعة إثر العمليات العقارية التي تجري على الأراضي الجماعية، وأن

يكون ذلك بمعايير عادلة، تعطي لكل ذي حق حقه، تحقيقا للعدل الذي جاء به شرع الإسلام، وجعله من أسس دينه وتجليات تكريم الإنسان، رجلا كان أو امرأة...."

وجدير بالذكر كذلك أن دعوة مولانا أمير المؤمنين أعزه الله إلى الانكباب على "مراجعة وتحديث الترسنة القانونية المؤطرة للعقار بشقيه العمومي والخاص بما يضمن حماية الرصيد العقاري واثمينه والرفع من فعالية تنظيمه وتبسيط مساطر تديره لتمكينه من القيام بدوره في تعزيز الدينامية الاقتصادية والاجتماعية لبلادنا"²⁰. هو قرار حكيم سيكون له أثره الإيجابي على الأراضي الجماعية، وسيسهم في ضمان حقيقي لحقوق السلايات.

وأخيرا يمكن القول إن هذه المبادرة الملكية السامية التي تتمثل في إنصاف المرأة السلاية وإدماجها في صلب المشروع التنموي عبر الاستفادة من حقوقها المادية والعينية الكاملة هو مدخل مهم من مداخل التنمية عموما، وهو رهان التنمية العقارية والاقتصادية على وجه الخصوص.

سابعاً: تمكين المرأة من ولوج خطة العدالة تأكيد لمبدأ المناصفة

لقد جاء القرار الملكي في العام 2018م بإدماج المرأة في خطة العدالة استمراراً وتأكيذاً لإنصاف المرأة المغربية الذي أعلن عنه حفظه الله في العام 2003م حين أعطى توجيهاته السامية لإصلاح مدونة الأسرة لتكون مدونة منصفة للمرأة باعتبارها شقيقة للرجل في الأحكام. كما جاء في النطق المولوي السامي: "فان التمثيل الضعيف للنساء في الجماعات المحلية يجعلنا نتساءل... إلى متى سنستمر في اللجوء إلى التمييز الإيجابي القانوني لضمان مشاركة واسعة للمرأة في المؤسسات لا ريب أن الأمر يتطلب نهضة شاملة وتحولا عميقا في العقلية البالية والوعي الجماعي وفتح المجال أمام المرأة بما يناسب انخراطها في كل مجالات الحياة الوطنية لما أبانت عنه من جدارة واستقامة وتفان في خدمة الصالح العام"²¹.

ولقد جاء هذا القرار الحاسم كما هو معلوم بعد أخذ رأي المجلس بجواز ممارسة المرأة لمهنة عدل، والذي نص على أنه "بناء على الأحكام الشرعية المتعلقة بالشهادة وأنواعها، والثواب الدينية

20 - مقتطف من الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى المشاركين في المناظرة الوطنية حول موضوع "السياسة العقارية للدولة ودورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية"، والمنعقدة أيام 8 و 9 دجنبر 2019م.

21 - من الخطاب الملكي السامي في افتتاح الدورة الأولى من السنة الثانية من الولاية التشريعية السابعة، الرباط: الجمعة 10 أكتوبر 2003م.

للمغرب، وفي مقدمتها قواعد الفقه المالكي واعتبارا لما وصلت إليه المرأة المغربية من تكوين و تثقيف علمي رفيع، وما أبانت عنه من أهلية وكفاءة واقتدار في توليها لمختلف المناصب السامية، " وهو قرار يعتبر مؤشرا كبيرا على التمكين والإنصاف، وتتويجا لما أبانت عنه المرأة المغربية من مشاركة فعالة في مختلف ميادين الحياة، ويأتي انسجاما مع المبدأ الدستوري المنصوص عليه في الفصل 19، والمتمثل في تحقيق المساواة بين المرأة والرجل والسعي نحو المناصفة. كما أنه قرار من شأنه كذلك أن يسهم في التنمية بكل أبعادها اعتبارا لما تشكله مهنة العدول ومهمة توثيق النصوص من ضمان للحقوق وحفظ للأمانات وحماية للملكية الخاصة والعامة. كما أن انخراط المرأة في هذا المجال يفتح الباب أمام شريحة مهمة وفئة عريضة من الرفع من مستواها المعيشي وتحقيق الاستقلالية المادية...

ختاما

وأخيرا يمكن القول إن المرأة المغربية قد تمكنت في ظل السياسة الحكيمة لمولانا أمير المؤمنين نصره الله، وفي سياق المدركات الحديثة والرؤى الجديدة من الانخراط بجدية في كل المخططات الوطنية الطموحة وذلك سواء كانت عالمة مشرفة أو مستفيدة من البرامج المتوفرة أو مساهمة في السهر على الأمن الروحي والنفسي للمواطنين والمواطنات....

إمارة المؤمنين: ضمانه للانتقال الديمقراطي والتوافق الاجتماعي وتدير التعددية وتمنع الوحدة الوطنية

د. رجاء ناجي مكاوي
جامعة محمد الخامس - الرباط.

I - الأصول الفقهية والتاريخية لمفهوم ومؤسسة إمارة المؤمنين

لقب أمير المؤمنين لا يتسمّى به إلا من يتولى قيادة الدولة استنادا إلى الشرع الإسلامي، وهو يحمل في طياته معاني: حماية الثغور وحفظ الملة والدين، وعصمة الأمة، وجمع كلمتها، ومنع الفرقة... وهو لا يتقلده إلا بناءً على بيعَةٍ وتنصيب قائمين على الكتاب والسنة والإجماع، وتحت طائلة احترام الطرفين لما ضُمّن فيها، وإلا فمن نقض أحد بنود البيعة الأساسية، من الجانبين، يعتبر ناقضا للعهد وتجب في حقه جزاءات شرعية حددها العلماء وإن اختلفوا في تقديرها تبعاً لخطورة الفعل وبحسب وضعية وحال الأمة.

عقد الإمامة القائم على البيعة وتفوقه على العقد الاجتماعي

البيعة *la Bai'a* (وترجم خطأ بـ ¹ *L'allégeance*)

يمكن تعريف البيعة بأنها إعطاء العهد بقبول ولاية أو خلافة أو رئاسة، وأنها طريقة شرعية لاختيار الحاكم في الإسلام. فالكلمة والمفهوم يُستقن من الجذر: ب.ي.ع (بيع)، بمعنى مبادلة الشيء بالشيء أو بما يساوي قيمته، المُرافق بالمصافحة باليد اليمنى دلالة على انعقاد الصفقة. وهي تحمل، اصطلاحاً، معنى المعاهدة والمعاهدة والمبايعة على الطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم أو الإمام، أو الحاكم أو الخليفة أو الأمير، مقابل وفائه بالالتزامات التي تضعها على كتفه ولاية الأمر².

1 - Allégeance: Obligation de fidélité; Soumission fidèle.

2 - راجع: جمال الدين ابن منظور في "معجم لسان العرب"؛ الحليل بن أحمد الفراهيدي: معجم لسان العرب في اللغة، مادة "بيع"...

ومع أن الشرع لم يحدد للبيعة شكلا مخصوصا، إلا أن ما جرى على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين، أصبح نموذجا راسخا في الفكر الجمعي. ففي هذه النماذج، اختص "أهل الحل والعقد"، لما يحملونه من رمزية ومن مؤهلات علمية وسلطة معنوية، بمبايعة رؤساء الدولة. ويضم "أهل الحل والعقد": العلماء وكبار مسؤولي الدولة، والوجهاء والأعيان... ومن الناحية الشكلية، تأخذ البيعة صورة مصافحة ترمز لكل تلك المفاهيم: "يد بيد، قلب بقلب" (عهد قلب بقلب). فالبيعة تعهد بالوفاء وتوثيق له.

ومع استنكاف الإسلام عن فرض شكل وحيد للبيعة، إلا أنه قنن المبادئ المؤطرة لها: فجعلها ليس حقا فحسب بل واجب والتزام على المواطن، وفق ما جاء في حديث: "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"؛ وأقر للرعية حق مراقبة الحاكم وتقويمه عند خرقه للتعاقد المتفق عليه... وانطلاقا من هذه المبادئ خطب أبو بكر رضي الله عنه، بمجرد مبايعته خليفة مناديا في اجتماع السقيفة: "أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم".

ويستخلص من وثائق البيعة المحفوظة تاريخيا، أنها ميثاق تعاقدية يحمل عدة معان، منها: تكريس المساواة بين الحاكم والمحكوم (لست بخيركم)؛ دولة القانون؛ المشروعية والانضباط للأحكام كشرط للشرعية؛ تنظيم السلطة السياسية؛ الإقرار بدور المعارضة وواجبها في الرقابة والتقويم...

وفي بيان ابن خلدون (1406-1332م) لهذا المعنى قال: "اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين... وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري (...)".

ثم يقارن ابن خلدون البيعة بهذا المعنى مع عقد الخضوع Allégeance³ لدى "الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل..." ولا ينتهي من البيان دون أن يستحث الناس على

3 - وأما قاموس روبر فيشرح بيعة المغاربة Allégeance على أنها: واجب الإخلاص والطاعة للحاكم وللوطن. وهو تعريف متأثر بنظام الخضوع في النظام الملكي الأوروبي الفيودالي الخاضع لتأثير الكنيسة، رغم حملة للمعنى السياسي.

Bay'ah ou bay'a: serment d'allégeance au souverain dans le monde musulman, notamment à l'époque médiévale.

إدراك هذه المعاني: "فافهّم معنى البيعة في العرف، فإنه أكيد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه، ولا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً..."⁴.

البيعة أسمى من مجرد عقد اجتماعي

إن من أكبر منظري الفقه السياسي أبو الحسن الماوردي، (974-1058م) الذي وضع منظومة فكرية متكاملة، لدرجة يتحدث المؤرخون عن "دستور الماوردي"، وقد تضمّن هيكل وبنود "دستور" غاية في الإبداع والتقدم والاكتمال والشبه بأرقى ما وصلته الدساتير المعاصرة⁵. وقد أدرج فيه نفس مقتضيات جيل الدساتير الحديثة (دياجة تضم المبادئ الأساسية؛ الحقوق والحريات والواجبات الفردية والجماعية؛ القانون؛ فصل السلط؛ وتوزيعها؛ والتفاعل بينها...). ولعلّ أهم ما هيا له الأسباب لابتكار إطار مفاهيمي بل تنظيري، وجعله قدوة للمفكرين الغربيين اللاحقين، لهو قدرته على أخذ مسافة عن الممارسات السياسية وعدم اصطفاؤه إلى جانب أو ضد سلاله حاكمه ما⁶. والحقيقة أن إبداع الماوردي لا يبدو لنا غريباً، إذ يكفي الرجوع إلى مرجعيته المعتمدة لفهم سبب تقدم دستوره. فلا ريب أن الماوردي متح في عهدي (دستور) المدينة المنورة الذي وضعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لفائدة يهود ونصارى المدينة. إنه أول وأقدم دستور مكتوب في التاريخ، وبإطلالة سريعة، يبين بجلاء أن ما تضمنه هذا الدستور لم تصله الدساتير الحديثة، أكان من حيث ما تضمنه من مبادئ وحقوق وواجبات، أم من حيث حمايته للتعدد والتنوع الثقافي والعقدي، وحماية

4 - مقدمة ابن خلدون الفصل التاسع والعشرون: في معنى البيعة، ص 209.

5 - وهو يقدمها، في الأحكام السلطانية، بما لا مزيد على وضوحه، وبما يمكن استجماعه في: 1 - الحفاظ على العقيدة وفقاً للمبادئ القائمة والمتفق عليها من لدن الجماعة؛ 2 - تنفيذ القرارات القضائية وحل المنازعات؛ 3 - حماية الحياة والشرف والممتلكات من كل اعتداء؛ 4 - تطبيق المقتضيات الجنائية؛ 5 - الدفاع عن الحدود بهدف ضمان حياة وشرف المسلمين وأهل الذمة؛ 6 - الجهاد؛ 7 - تحصيل تركة الأجنبي والضرائب الشرعية؛ 8 - تجديد مبلغ الأجر وما يجب أدائه للخزينة؛ 9 - تعيين أشخاص مؤتمنين ونصوحين في مناصب السلطة والمكلفين بالمالية؛ 10 - السهر على الشؤون والأعمال. وكل ذلك في عشرين باباً حملت عناوين منتظمة ومسترسلة كالتالي: في عقد الإمامة - في تقليد الوزارة - في تقليد الإمارة على البلاد - في تقليد الإمارة على الجهاد - في الولاية على المصالح - في ولاية القضاء - في ولاية المظالم - في ولاية النقابة على ذوي الأنساب - في الولاية على إمامة الصلوات - في الولاية على الحج - في ولاية الصدقات - في قسم الفئ والغنيم - في وضع الجزية والخراج - فيما تختلف أحكامه من البلاد - في إحياء الموات واستخراج المياه - في الحمى والأرفاق - في أحكام الإقطاع - في وضع الديوان وذكر أحكامه - في أحكام الجرائم - في أحكام الحسبة.

6 - انظر محمد لحبابي:

Mohammed Aziz Lahbabi : "Le gouvernement marocain a l'aube du XXe siècle", Editions Atlantides 1968;

حقوق الآخر المختلف. بحيث تضمن دستور المدينة المنورة 52 مقتضى ومبدأ: 25 منها للمسلمين، و27 خاصة بغير المسلمين⁷.

السبق إلى فصل السلط

وخصص الماوردي للبيعة فصلا بكامله تضمن طرعا نظريا متكاملا لمفهوم وفلسفة وأبعاد البيعة. ووضع فيها نظريات قانونية كاملة، من قبيل أن البيعة تفويض شخصي يتلقاه الإمام، ولا يخوله البتة أن يوكل به الآخرين (الوزراء). وفي هذا تمييز تراتبي ما بين سلطة قانونية مستمدة من البيعة وسلطة تنفيذية "حكومية" تابعة، من مرتبة أدنى ويقتصر دورها على التنفيذ... وفي هذا بيان مبتسر عن فصل السلط، وفيه استباق لمنع تمرير التفويض الشخصي المستمد من البيعة إلى الغير.

وهذا التقييد و"الطابع الشخصي" للبيعة لم يكن موجودا في أي من نظم الحكم الغربية التي كانت تقر بالخضوع التام لسلطة الحاكم ذي السيادة المطلقة، في أنظمة ملكية ستؤسس لميلاد الدولة القطرية.

لذلك لم يستوعب هذه النظريات (في تكاملها) من سيتبنون لاحقا نظريات الماوردي عن "البيعة" و"عقد الإمامة"، من كبار فلاسفة الغرب من أمثال Thomas Hobbes هوبز (1588-1679 م) و John Locke لوك (1632-1704 م)، و Jean-Jacques Rousseau روسو (1712-1778 م) وسواهم.

فنظرية "العقد الاجتماعي" مستقاة من "عقد الإمامة" أو البيعة، إلا أن البيعة في الفكر الإسلامي هي غير عقد الخضوع⁸ Allégeance. إن عقد الإمامة، يختلف تماما عن النظرية الغربية (الخضوع) من حيث:

• كون عقد الإمامة مشروطا بالعدل،

• والأهم، قيامه على حرية الرعايا لا على خضوعهم،

7 - راجع كتاباتنا العديدة في الموضوع، منذ تسعينيات القرن الماضي: حرية التعبير: التفاوت بين النظر والممارسة، مجموعة محاضرات قدمت في جامعة كوبنهاغن، منتدى الحكمة، الرباط، المركب الثقافي بمكناس... علم القانون: ماهيته، مصادره، فلسفته وتطبيقه (خمس طبعات)...

8 - Allégeance: Obligation de fidélité; Soumission fidèle.

• وأنه لا يمنح الحاكم سلطات مطلقة،

وكون الرعايا في نظام البيعة مواطنون مشاركون فاعلون (أحياء)، رعايا⁹ (من الرعاية لا من الرعي)، وليسوا خاضعين¹⁰ (Sujets¹¹). فيما احتاج الناس في الغرب زمنا طويلا وصراعا مريرا ودمويا للانتقال من منطق الخاضع (Sujet) إلى منطق المواطن¹².

وتثبينا لكل ذلك، تساءل الماوردي عما إذا كانت الخلافة واجبة بالشرع أم بالعقل؟ وبعد أن يستعرض حجج وأسانيد الرأيين¹³ يُفِيضُ في تعداد التزامات المستخلف، ليؤسس بذلك لمبادئ عقد الإمامة، الذي منه سينهل هوبز وروسو وسواهما نظرية العقد الاجتماعي، إنما ليس بنفس السعة والأبعاد والخلفية.

إمارة المؤمنين ودورها في قيام الدولة المغربية وحفظ لحمة المغاربة

منذ قيام أول إمارة للمؤمنين مع المولى إدريس الأكبر وإلى الآن، لم ينفرط أبدا عقد المغاربة ولا مُسَّ استقلال المملكة (عن الخلافة العباسية، والفاطمية ثم العثمانية...). بل حتى لما ابتلي العالم بالاستعمار، لم يتجاوز في المغرب شكل الحماية.

9 - رَعِيَّة: جمع الجمع رَعِيَّات ورَعَايا: عَامَّة النَّاس الذين عليهم وال يرعى مصالحهم وأمورهم؛ ومن كانوا تحت الولاية العامة لأُمير المؤمنين. وفي الحديث: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ". ومن ثم، قيل: صلاح الرعية بصلاح الراعي؛ وقيل رعية معطلة، أي ليس لها وال يسوسها بالعدل والحكمة فهي أشقى الرعايا. ويقال: رعى له عهده أو حرّمته: لاحظها وحفظها؛ و"تحت رعايته": في حمايته؛ وتحت رعايته: بمباركته وموافقته ودعمه... ودار الرعية: مؤسسة خاصة توفر مكانا للسكن والرعاية للمسنيين أو للأيّام، ومؤسسات رعاية الأمومة ورعاية الطفل... وللأسف، كثيرا ما يخلط الناس بين: رعية المشتقة من حالة الرعية، أي الحماية والسهر على المصالح (...)، وتلك المشتقة من حالة الرعي... كما تحمل رعية معنى ما ينبت من المرعى. راجع: معجم "اللغة العربية المعاصر"؛ ومعجم "مصطلحات فقهية".

10 - ما تزال ملكة بريطانيا تحاطب الناس بـ "الخاضعين" Mes Sujets.

11 - Sujet: Personne soumise à une autorité souveraine (sujétion), (le souverain et ses sujets).

12 - وكثيرا ما يحلل عدد من مفكرينا بعض أسس النظام القائم على مركز إسلامي، بخلفية غربية تعطي للرعية معنى الخضوع والانقياد الأعمى. ونفس الشيء يحصل مع اصطلاح البيعة الذي يضعه الكثيرون كمرادف لـ Allégeance.. ومن شدة الخلط، أصبح الكثيرون يطالبون بحذف لفظة الرعية والبيعة (...)، من دون فهم لمعنى وأبعاد المؤسسات وما يقابلها في الفقه السياسي والقانوني الغربي.

13 - "فقلت طائفة أن الإمامة وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنهم من التظلم، ويفصل بينهم في التناز والتخاصم، ولولا الولاة لكانوا فوضى مهملين، وهمجا مضاعين... وقالت طائفة أخرى بل وجبت بالشرع دون العقل، لأن الإمام يقوم بأمر شرعية قد كان مجوزا في العقل أن لا يرد التعبد بها، فلم يكن العقل موجبا لها، وإنما أوجب العقل أن يمنع كل واحد نفسه من العقلاء عن التظلم والتقاطع، ويأخذ بمقتضى العدل في التناصف والتواصل، فيتدبر بعقله لا بعقل غيره، ولكن جاء الشرع بتفويض الأمور إلى وليه في الدين..." الأحكام السلطانية والولايات الدينية، لـ: أبي الحسن البصري الماوردي (450-364هـ / 1058-974م)، أكبر قضاة نهاية الدولة العباسية، ج 1، ص 15.

وطوال اثني عشر قرنا، تطورت الدولة المغربية من "دولة مستقلة" حديثة النشأة، على عهد الأدارسة، إلى "دولة مجاهدة" (مرابطة) منذ الدولة المرابطية، فالموحدية، ثم المرينية ثم السعدية... فالعلوية، وخلال الحقب المتتالية، توالى صدُّ الهجمات الصليبية وغيرها على الأندلس، ونجحت المملكة في توحيد بلدان شمال إفريقيا والأندلس، وجمع كلمة المسلمين فيها، وإن تخللتها حقب أقل ازدهارا أو تحاما... بل وأنجزت الكثير في الفتوحات شمالا، وجنوبا...

وبكل تأكيد، فهذه النجاحات هي التي أهلت ملوك وسلاطين المغرب لحمل ألقاب تضيفي الشرعية الدينية على حكمهم، من قبيل: "أمير المؤمنين" (الأدارسة والموحدون)، أو "أمير المسلمين" (المرابطون)¹⁴.

وعلى الجملة، إذا كان الموحدون هم من قعد لإمارة المؤمنين (الإمامة العليا)، فإنها استمرت وتكرست مع السعديين، الذين، وبحكم انتمائهم إلى آل البيت، اعتبروا أنفسهم أحقَّ بتلك التسمية من باقي السلاطين. على أن هذه الصفة ستأخذ أبعادا وممارسات أكبر وأعمق مع العلويين، مرتكزين في ترسيخ الشرعية على انتمائهم بدورهم لآل البيت.

البيعة والشورى... أسس قانونية لإمارة المؤمنين في المغرب

بعيدا عن منطق الكهنوت، تجمع إمارة المؤمنين، في توافق، بين السلطين الدينية والسياسية، مما يثقلها بالتزامات الخلافة، وأبرزها: حماية الملة والدين وصون لحمة الأمة، وحماية الثغور... وأما آثارها القانونية والعملية فلا مرأى فيها: ومنها تولي الحكم بالبيعة، والعمل بمقتضى الشورى.

وبالتأمل في بيعة المغاربة تجدها وفيّة لأصولها الشرعية واللغوية. إذ وثقت الكتب أنه يتولى البيعة أهل الحل والعقد الذين يتمثلون في:

* العلماء الذين يمنحون الشرعية الدينية، والذين من دون بيعتهم، لا يتم الأمر للسلطان،

* الأمراء والأعيان وأمناء المهن والحرف، والتجار... وشيوخ القبائل، وهؤلاء يمنحون الشرعية السياسية بتنازل كل منهم عن التبدير المستقل لشؤون قبيلته.

14 - محمد عابد الجابري: في جذور الهوية المغربية، مجلة الاتحاد الإماراتية، 2010-04-21م؛ الخلافة: ثغرات دستورية موروثية، مقال منشور في موقعه الشخصي 2010م.

وجرى العمل في المغرب أن تكون البيعة مكتوبة (فيما استطاع التاريخ توثيقه)، وأن تحمل توقعات العلماء أساسا وتوقعات كبار شخصيات الدولة. وعادة ما تتبعها بيعة عامة هي عبارة عن قدوم وفود المناطق والقبائل (وجوه وأعيان...) للتهنئة وإعلان الولاء¹⁵...

وظل نظام البيعة منتهجا على نفس الهدي منذ قيام الدولة الإدريسية¹⁶ إلى أن فرضت الحماية عام 1912م. وبفضل تجذر هذا النظام، فإن المحتل، على جبروته، لم يستطع أن يمحو نظام البيعة، ولا أن يحوّل وجهتها ولا حتى الشخص المبايع، ولو كان من نفس الأسرة المالكة¹⁷... وبمجرد الاستقلال، ومع أول دستور، سترز معالم البيعة وإمارة المؤمنين كوشيجة تستمر في تقوية لحمة الأمة المغربية.

ولم تُحتَرَل البيعة أبدا في مجرد إجراء شكلي، بل حملت وتحمل شروطا ضمنية وأحيانا صريحة، بل وأحيانا صارمة ومكتوبة. وفي المغرب ظلت البيعة مشروطة دوما بـ "العمل بالكتاب والسنة"، كمقابل لالتزام الناس بالطاعة في المعروف. بحيث جرى العمل أن تُصَمَّن عبارة: "ما بُوع عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون"¹⁸. فمن صيغها مثلا أن يسأل الناس: "تبايعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله (صلى

15 - وثق محمد بن أحمد أكنسوس أو الكنسوسي لبيعة مولاي إسماعيل قائلا: "فانعدت له البيعة وحضرها الأكابر من أهل المغرب ووافق عليها أهل الحل والعقد من العلماء والأشراف، كالشيخ أبي محمد عبد القادر الفاسي والشيخ أبي علي اليوسي... راجع: الكنسوسي: الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي... كما أورد الزباني، فيما نقله عنه أكنسوس والناصري في الاستقصا، نص بيعة أهل فاس للسلطان مولاي عبد الله... راجع: أبو القاسم الزباني: البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، تحقيق: رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة- سنة 1992م... راجع أيضا: أبو عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي الشهير بأكنسوس (1796-1877م) وهو مؤرخ وصوفي ورجل دولة مغربي، تولى الوزارة في عهد المولى سليمان والمولى عبد الرحمن، في كتابه: "الجيش العرمم، الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي"، تحقيق: أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ج 2؛ وراجع أيضا: الناصري: الاستقصا، ج: 9.

16 - وقبل ذلك بايع المغاربة الخلفاء الأمويين، ومن أبرز نماذجها بيعة عبد الكريم بن يحيى صاحب عدوة الأندلسيين من فاس للخليفة الحكم المستنصر بالله الأموي، وتظهر فيها صفة أيمان البيعات جلية.

17 - إذ باتت بالفشل محاولات المستعمر تنصيب محمد بن عرفة العلوي، إثر إزاحة المرحوم محمد الخامس عن العرش بسبب تأييده مطالب الاستقلال ثم نفيه عام 1953م. فخلق غَضَبُ العرش موجة عارمة من الاضطرابات استعجلت "ثورة الملك والشعب" إزاحة الملك المزيّف ابن عرفة (بعد سنتين فقط من الحكم)، واستعجلت بالموازاة عودة الملك الشرعي عام 1955م، معلنا استقلال البلاد...

18 - وجاء في بيعة الملك محمد السادس ما نصه: "...ملتزمين بها تقتضيه البيعة من الطاعة والولاء والإخلاص... واقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم".

الله عليه وسلم)، رسول الله من السمع والطاعة في المنشط والمكره واليسر والعسر، والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين. هذا ما له عليكم ولكم عليه: ألا يحجر بعوثكم وألا يدخر عنكم شيئا مما تعمكم مصلحته، وأن يعجل لكم عطاءكم، وألا يحتجب دونكم. أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قلد من أموركم"، فيردها العامة كميثاق ملزم لهم¹⁹.

وعلى مستوى الممارسة، ارتقت إمارة المؤمنين، بأبعادها المختلفة (بيعة، شورى...)، بالفعل السياسي المغربي عن مجرد فعل شكلي، بل تطورت الممارسة السياسية واتسعت وظائف أطراف عقد البيعة. بحيث مارس العلماء وظيفتهم الرقابية إزاء السلطان، مستثمرين عدة آليات، منها "الفتوى" التي يطلبها السلطان، و"الاستفتاء"، واستشارة السلطان اللامحدودة لذوي المكانة والنفوذ في الدولة من علماء وتجار وأعيان وشيوخ، كل في مجاله... ولم يتوان العلماء عن استثمار آليات أخرى، مثل النصيحة والنقد والمعارضة والاعتراض، وحتى نقض البيعة، والتمرد أحيانا (...). كما يشهد التاريخ على ذلك.

ولكثيرا ما جعل صد الأخطار الخارجية والجهاد شرطا للبيعة. وفي التاريخ المغربي نماذج متكررة، كما حصل بداية القرن السادس عشر (16)، إثر سقوط الأندلس واستهداف إسبانيا والبرتغال للمغرب. حيث أضحي الجهاد الأولوية الوطنية الأولى، فبويغ مؤسسو الدولة السعدية، وهم علماء وأشراف ومتصوفة لا عصية قبلية لهم... بل إن أهم دواعي مبايعتهم هو الجهاد وصد الاستعمار²⁰.

البيعة في الفكر القانوني لأعرق ملكية

المملكة المغربية أعرق ملكية في التاريخ إلى جانب الملكية البريطانية. تأسست عام 785م/172هـ واستمرت، ومن دون انقطاع، اثني عشر (12) قرنا ولا زالت. خلالها حكم المغرب السلاطين

19 - وثق عبد الواحد التميمي المراكشي، وهو مؤرخ مغربي من العصر الموحدي، في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، أنه عند بيعة المستنصر بالله أبو يعقوب يوسف: "وبويغ البيعة الخاصة يوم الخميس، ويوم الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقرابة. وفي يوم السبت أذن للناس عامة. شهدت ذلك اليوم وأبو عبد الله بن عياش الكاتب قائم يقول للناس: تبايعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين...".

20 - بويغ السعديون لغاية أساسية هي مقاومة الاحتلال الأجنبي وصد الضغط العثماني. مما جعل السلطان حقا "أمير المؤمنين" أي قائدا لجيوش المسلمين. الجابري، نفس المراجع.

والملوك فقط، وحمل بعضهم ألقاباً من قبيل: "أمير المؤمنين"، الذي كان أول من تقلّده المولى إدريس الأكبر.

وعليه، فالمملكة المغربية البلد الوحيد، في العالم العربي والإسلامي، الذي استتبّ فيه نظام "البيعة" و"عقد الإمامة" من دون انقطاع، منذ دولة الأدارسة، ثم المرابطين، فالموحدين ثم المرينيين فالسعديين ثم العلويين، في استقلال تام عن الخلافة العباسية والفاطمية والعثمانية. وطوال اثني عشر قرناً، ظلت الشرعية تركز على مؤسسة البيعة، بيعة أهل الحل والعقد من: علماء، وأمراء وأعيان وأمناء المهن والحرف، والتجار وشيوخ القبائل. وشكلياً، تمثلت في بيعة خاصة مكتوبة وممضاة من طرف أهل الحل والعقد أولاً، وبيعة عامة تعبر عنها الوفود القادمة من كل المناطق والقبائل لتقديم الولاء (...)²¹.

ومع أن كل بيعة تتميز بخصوصية تؤثر فيها شخصية المبيع والفترة التي تمت في ظلها، والفئات التي ساهمت فيها... لكنها تشترك في إجماعها على الأصول الشرعية للبيعة، وتكرار نفس المبادئ الركيزة فيها.

بيعة مشروطة أم لا مشروطة؟

لطالما ركن الفكر القانوني المغربي، في موضوع البيعة، إلى مدرستين نشأتا في حوض الدولة السعدية²² (1554-1659م). فبينما تشبث البعض بـ "البيعة المشروطة" الملزمة للطرفين والمخوّلة لكلاهما حقوقاً والتزامات تبادلية؛ اعتبرها البعض الآخر بيعة لا مشروطة²³ ولا رجعة فيها، تأسيساً ببيعة الرسول (صلى الله عليه وسلم). والحقيقة أن كل قول تأثر بالحقبة والظروف التي عاشها

21 - راجع: محمد عابد الجابري: "في جذور الهوية المغربية"، مجلة الاتحاد الإماراتية، 04-21-2010م؛ الخلافة: ثغرات دستورية موروثة، مقال منشور في موقعه الشخصي 2010م.

22 - قامت الأولى على يد الفقيه يحيى الحاحي (ت. 1626 م) وأسس الثانية المتكلم أبو مهدي عيسى السكتاني (ت. 1652 م) بمناسبة مبايعة السلطان مولاي زيدان السعدي... انظر محمد ضريف: تاريخ الفكر السياسي بالمغرب، ص 167 وما بعدها، إفريقيا الشرق، 1989م، الدار البيضاء.

23 - والحقيقة أن لا خلاف بين الاثنين، فقط كون السكتاني تأثر بمحنة الاضطرابات، كما يستشف من قوله أن: "غائلة الجور وإن تفاحش، أقل بكثير من غائلة الخروج الذي يترتب عليه فساد المهج والأموال والأغراض والأديان وهتك الحرم"، وللخروج من شرقة الخلاف، اعتبر أن دور العلماء ينحصر في تقديم النصح للحكام، فعبّر عن ذلك بقوله: "الحمد لله الذي جعل الصدع بالحق وظيفة الأنبياء وأورثه من بعدهم من خلقه فريق العلماء".

العالم، ومدى استقرار الأوضاع أو طغيان الفوضى واللا أمن. ولا تكاد تخلو، من تأثيرات الحقبة الزمنية، جلُّ التحليلات²⁴ الهادفة للإحاطة بشرعية السلطة وحيثيات ممارستها.

إنما بالرجوع إلى الأصول النظرية يتضح أن البيعة في الأصل، بما أنها مبايعة رضائية، تبادلية، فهي تتضمن التزامات تبادلية على كلا الطرفين المبيع والمبايعين، من عدل وإنصاف، وحفظ مصالح الرعية، وضمان حرية الرعايا (لا خضوعهم)، بصفتهم مواطنين مشاركين فاعلين، والذود عن الحدود وحماية حمى الملة والدين (ألا يجبر بعوثكم وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته، وأن يعجل لكم عطاءكم، وألا يحتجب دونكم...)، ومن الجانب الآخر: السمع والطاعة في المنشط والمكره واليسر والعسر، والنصح للمبايع ولولاته ولعامة المسلمين، والمساهمة في الذود عن الوطن (...). فحتى حينما تُنعت البيعة بغير المشروطة، فإن هذه الشروط الأساسية لا تزاح أبداً. إنما قد تقتضي ظروف صعبة تمر منها البلاد، إرداف شروط إضافية إلى البنود الأساسية.

خصائص ومضمون بيعة المغاربة

اقتداء، ببيعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة من بعده، ثبت أهل المغرب سنة مطردة منذ مبايعتهم للمولى إدريس (172هـ - 751م). بحيث ظلت البيعة تُعقد فيجتمع الأمراء ورجال الدولة والأعيان، وأساسا العلماء (فيما يشبه كبار النخبين)، للتشاور حول من يصلح لتولي الملك. وعند الاتفاق أو التوافق أو الإجماع، ينعقد المُلْك للمبايع. وفي حال كان الملك عُيِّن وليا للعهد من قبل، يجتمع، مع ذلك، أهل الحل والعقد من أجل بيعة "تزكية".

ومن خلال قراءة بعض البيعات الموثقة، يتبين أن بيعة المغاربة تتميز، مسطرياً، بكونها:

تؤخذ من العلماء، والأمراء والأشراف، والأعيان، وكبار ضباط الجيش؛

وتتميزت أيضاً بحظوة العلماء اعتباراً لعلمهم وصلاتهم والحاجة للاسترشاد برأيهم (...)²⁵؛

وبكونها تصدر في شكل وثيقة مكتوبة وموقعة؛

24 - راجع: الإفراfi (توفي 1744م)، أبو القاسم الزياني (1734 - 1833م)، أبو العباس أحمد الناصري (1835 - 1897م)، عبد الرحمن ابن زيدان (1878 - 1946م)...

25 - بل كانت البيعة لا تصبح سارية المفعول إلا إذا أقرها علماء جامع القرويين، معهد العلوم الشرعية بمراكش.

وأنها تنشر للاطلاع بحسب المتاح (مساجد، زوايا...). وفي آخر بيعة للمغاربة، تَلَا نصَّ بيعة الملك محمد السادس²⁶ وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية آنذاك، بعد أن وقَّعها الأمراء وكبار رجالات الدولة ورؤساء المجالس العلمية، ومسؤولو أعلى الهيآت القضائية، وسامي ضباط القوات المسلحة الملكية، وأمناء الأحزاب السياسية... ونقل المراسيم عبر وسائل الاتصال المختلفة والمنابر الرسمية...

ومن حيث المضمون، تشتمل عادة البيعة على: دياجة تذكر بأصولها الشرعية (قرآن، حديث، بيعة الرضوان...); بيان أهمية منصب الإمامة (السلطان); وإجلال للانتساب إلى آل البيت؛ أسباب عقد بيعة جديدة (وفاة السلطان...); ذكر إجماع المبايعين على السلطان الجديد؛ تعداد (وتوقيع) فئات المبايعين من أهل المنطقة...

البيعة وإمارة المؤمنين عند العلويين

تميّز العلويون بما يعرف بالبيعة المشروطة (وإن كانت وجدت في التاريخ، في الدولة السعدية مثلاً كما أسلفنا)، أي ربطها بقضايا تشكل هماً جماعياً. ولعل بيعة المولى سليمان²⁷ (1760-1822 م) أبرز نموذج، وقد اقترنت بإلزامه بانتهاج الخلافة الشرعية والسنن المحمدية ونصرة الدين وترك البدع والمظالم والمكوس والمحارم.

وعلة ذلك أن الفعل السياسي كابدَ أواخر القرن الثامن عشر تحديات وتحولات عميقة، من أهم مؤشرات ذلك تردي الأوضاع السياسية والسيادية والاقتصادية... ما أفرز ردود فعل وطنية غاضبة، يمكن إجمالها في تنامي مطالب: بالإصلاح السياسي، ووضع دستور للبلاد، وإحداث تمثيل نيابي، واعتماد الاستشارة الشعبية، وتأسيس مجلس للشورى يُمثِّل فيه الأعيان... وكل هذا سوف يضمن في البيعة المشروطة²⁸.

26 - بتاريخ 23 يوليوز 1999م (9 ربيع الثاني 1420هـ).

27 - وهو السلطان العالم الفقيه. تزامن حكمه (1797-1822م) مع الثورة الفرنسية والحروب التوسعية للإمبراطور نابليون، وبالمقابل، مع بدء انتشار الوهابية، التي كانت سبباً في إدخاله تغييرات على مذهب المغاربة، مما أفرز هزات اجتماعية عنيفة... راجع: أحمد الناصري: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، طبعة دار الكتاب، ج8، ص 104-121؛ شمعون ليفي: "اليهود لقبوا المولى سليمان بـ"السلطان العادل"، عبد الإله سخير، المساء 19-03-2008م؛ رائد السلفية بالمغرب: المولى سليمان، دعوة الحق، العددان 127 و128؛ موقف المولى سليمان العلوي من الحركة الوهابية، دعوة الحق، عدد 162.

28 - محمد عابد الجابري، المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية... الحداثة والتنمية. الطبعة 1، مؤسسة بشرة، الدار البيضاء، 1988م، ص 128.

وإن آخر بيعة مشروطة، تلك التي بويغ بمقتضاها المولى عبد الحفيظ سنة 1908م، والتي اعتبرت لأجل ذلك "عقدا بين الملك والشعب يخرج بنظام الحكم من الملكية المطلقة إلى ملكية مقيدة دستورية"²⁹، تلزم السلطان بالرجوع إلى الشعب واستحصال مصادقته لإبرام أية معاهدة تجارية أو سلمية، مدنية أو اقتصادية... وفي هذا تشابه مع روح ميثاق حقوق الإنسان الفرنسية، الذي ينص على أن السيادة كامنة في الشعب ولا تقبل التفويت³⁰.

وقد أبرز العلاقة الوطيدة بين إمارة المؤمنين والبيعة مشروع دستور 1908م، الذي سُمي السلطان بـ "إمام المسلمين وحامي حوزة الدين" (6م). إنما، إذا كان فشل صد الاحتلال الأوربي وإلغاء معاهدة الحماية نسفاً بيعة مولاي عبد الحفيظ المشروطة، وأجهض مشروع دستور 1908م، وقلصاً الصلاحيات السياسية للسلطان (...)، فإن صلاحياته الروحية استعصت على كل تضيق.

وبُعَيْد الاستقلال انبَعثت إرادة وَضْع دستور للبلاد³¹ وثُبَّتَتْ إمارة المؤمنين عن طريق دسترتها في وثيقة 1962م وإذا كانت الدساتير السابقة عن دستور 2011م لم تجب بدقة عما إذا كانت إمارة

29 - علال الفاسي، حفريات عن الحركة الدستورية في المغرب قبل الحماية: مذكرة مرفوعة من كاتب مجهول إلى جلالة مولاي عبد العزيز، اكتشفها وقدمها علال الفاسي (1908-1974م/1326-1394هـ)، سلسلة الجهاد الأكبر، مطبعة الرسالة، 1982م.

30 - راجع: الجابري، نفس المرجع، ص 134-128؛ عبد الله العروي: مفهوم الدولة. الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية (بالفرنسية)....

31 - سبقت دستور ديسمبر 1962م عدة محاولات، أبرزها: العهد الملكي في 8 ماي 1958م، وتبنى مبدأ الملكية الدستورية، بنظام سياسي تعددي (في محاولة لاحتواء مساعي حزب الاستقلال لفرض "الحزب الوحيد")، وموازة مع ذلك صدر قانون الحريات العامة في 15 نوفمبر 1958م المرخص بتأسيس الجمعيات والأحزاب السياسية... ونظرا لتعثر المحاولة الأولى، عين المرحوم محمد الخامس، عام 1960م، "مجلسا دستوريا" مثلاً جل الأحزاب (باستثناء حزبي رفضا: الحزب الشيوعي المغربي المحظور آنذاك، والاتحاد الوطني للقوات الشعبية)، ومهمته وضع دستور للبلاد، لكنه فشل أيضا بسبب انسحاب عدد من أعضائه، احتجاجا على تعيين علال الفاسي رئيسا.

- علال الفاسي، حفريات عن الحركة الدستورية في المغرب قبل الحماية: مذكرة مرفوعة من كاتب مجهول إلى جلالة مولاي عبد العزيز، اكتشفها وقدمها علال الفاسي (1908-1974م/1326-1394هـ)، سلسلة الجهاد الأكبر، مطبعة الرسالة، 1982م.

عبد الله العروي: مفهوم الدولة. الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية (بالفرنسية):

Abdallah Laroui: "Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain: 1830-1912", La Découverte, 1977.

محمد عزيز الحبابي: الحكومة المغربية في مطلع القرن العشرين (بالفرنسية):

Mohamed Aziz Lahbabi: Le gouvernement marocain à l'aube du XXème siècle, Éd. Techniques Nord-africaines, 1958.

المؤمنين مجرد لقب للملك، أم مصدرا لصلاحيات واختصاصات بعينها، فإن الدستور الحالي اجتهد في إبرازها وفَرَزَها عن باقي الصلاحيات السياسية، كما سنبين.

II - الملكية في المغرب الحديث، تطوير وتجديد مستمران

يُجمع جلُّ المؤرخين على أن نمط الحكم الملكي عاش استمرارية متواصلة متجددة منقطعة النظر، وأن أسسها وأعرافها وطقوسها (...) خضعت لتأثيرات وتفاعلات تراكت طوال اثني عشر قرنا. ورغم التقلبات التي شهدتها بعض المحطات، عاش المغرب استمرارية مطردة جعلت من الملكية ثاني أعرق ملكيات العالم.

فالمملكة في المغرب خضعت للتطور التاريخي الدوري (الخلدوني)³²، الذي من ميزاته تجديد الذات وتطويرها من الداخل. وهذا ضداً على التطور الخطي الأوروبي، حيث لم تنبثق الدولة إلا في عصر متقدم، وإلا بعد صراع دموي مرير.

ولأنه نظامٌ اعتمد الكتابة إلى جانب الأعراف الموروثة شفاهاً وممارسةً، ولأنه اعتمد نظام البيعة في معنى الرعاية مع الحرية (لا الخضوع والانصياع)، ولأنه جمع بين قواعد موثقة وأخرى عرفية، فنمط الحكم المغربي لا يتشبه لا بالنموذج الإنجليزي العرفي ولا اللاتيني المكتوب والجامد... وعقد الإمامة المؤسس لإمارة المؤمنين والقائم على البيعة (لا الخضوع Allégeance)، بالنظر للمواصفات السابق بيانها، يسمو على العقد الاجتماعي³³ الذي لا يخلو من هيمنة وانصياع.

إذ بينما يعتبر ابن خلدون الدولة بمثابة "امتداد مكاني وزماني، لحكم عصبية ما"، ترى مثلاً نظرية التطور الاجتماعي (النظرية التاريخية) أن الدولة تنشأ من عدة عوامل من أهمها: علاقة الدم،

32 - يستخلص مفهوم "الدورة التاريخية Cycle historique" أو التعاقب الدوري في تفسير التاريخ، من قول ابن خلدون: "الدولة لها أعمار طبيعية كالأشخاص"، على أساس أن للدولة دورة تبدأ بالولادة فالنشأة، فالإكتمال... ثم تأتي علامات الشيخوخة تفضي بها إلى الانقراض... فظهور عصبية (أسرة، قوة...) جديدة... وهكذا. بمعنى أن الحضارات تبدأ صغيرة، ثم تكبر وتشب، ثم تأخذ في الهرم، ثم تأخذ بالسقوط. وأن الدولة القوية تنتج السلم والرخاء ووسائل الترف، فتنجح رجالاً ضعفاء ينغمسون في مباحج الحياة، مما يؤدي إلى هرمها واستهدافها من قبل القوى الأخرى، ما قد يدفع الدولة لمعاودة البناء بالقوة، والقوة أو الحرب تحتاج لرجال أقوياء يصنعون دولة قوية... وهكذا إلى ما لا نهاية... للتوسع، راجع المقدمة، ص 46؛ وأيضاً: محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، الدولة والعصبية، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 5، 1992م، ص 119...

33 - راجع: علي سعد الله: الدولة في الفكر الخلدوني، نشر دار مجدلاوي، الأردن، 2003م، ص 33.

الدين، الوعي السياسي... فعلاقة الدم تفيد أن السلطة السياسية في مكانة الأب والأم وسلطتهما على الأبناء، الملتزمين بالانقياد والخضوع... وعليه، يخضع الشعب وينقاد لسلطة الحاكم، كما يفعل الأبناء مع رب الأسرة... ولعل هذا ما يفسر عقدة الغرب، المستمرة إلى الآن، مما يسمى السلطة الوالدية .Patriarcat

ولا حاجة للتذكير بأن البيعة من أهم أسس التحام الأمة والعرش، وأنها، وإمارة المؤمنين، أهم عامل للتثام وتوازن السلطة السياسية والدينية. وكلها عوامل أطالت عمر إمارة المؤمنين، كما لم يحصل في أي بقعة من المعمور.

ومع النظام الدستوري الحديث، حُسم موضوع انتقال الحكم ومآله. إذ جَزَم الدستور الحالي، على نفس شاكلة الدساتير السالفة، إلى من تؤول الملكية بالوراثة، فنص الفصل 43 على أن: "عرش المغرب وحقوقه الدستورية تنتقل بالوراثة إلى الولد الذكر الأكبر سنا من ذرية جلالة الملك محمد السادس، ثم إلى ابنه الأكبر سنا وهكذا ما تعاقبوا، ما عدا إذا عيّن الملك قيد حياته خلفا له ولدا آخر من أبنائه غير الولد الأكبر سنا، فإن لم يكن ولد ذكر من ذرية الملك، فالمُلك ينتقل إلى أقرب أقربائه من جهة الذكور، ثم إلى ابنه طبق الترتيب والشروط السابقة الذكر".

وسند الدستور في تعيين ولي العهد يعود إلى الاختيار الذي وقع على الأسرة الحاكمة منذ قرون. بحيث حتى لما قررت سلطات الحماية تنحية السلطان الشرعي محمد الخامس وتنصيب محمد بن عرفة³⁴ مكانه (وهو من نفس الأسرة العلوية الحاكمة)، انتفض الشعب المغربي لمناهضة وشجب جرأة المحتل واعتدائه على كرامتهم ونقض بيعتهم والنيل من رمز سيادتهم، فاندلعت "ثورة الملك والشعب"... وبمجرد ردود الفعل العنيفة، ونفي العائلة الملكية كاملة إلى خارج الوطن في 20 غشت 1953م، اندلعت المظاهرات وتأججت التمردات العنيفة والانتفاضات القوية وتأسست المقاومة المسلحة المنظمة (جيش التحرير)... إلى أن أجبرت الحماية، صاغرة، على إعادة الأسرة الملكية، وتوقيع وثيقة الاستقلال.

34 - نصب ابن عرفة، لفترة وجيزة، من قبل سلطات الحماية، بعد نفي السلطان الشرعي محمد الخامس عام 1953م، وأزيح بمجرد عودة سلطان المغرب محمد الخامس، عام 1955م، معلنا استقلال البلاد.

فأبان نفي محمد بن يوسف وفاءً وارتباط الشعب المغربي الوثيق بالسلطان الشرعي الذي بايعوه وقبلوه ملكاً عليهم، بل زاد النفي من ترسيخ شرعيته كسلطان وكموحد للأمة المغربية، وترسيخ ولاية العهد خلفه. وهو ما سيكرسه أول دستور والدساتير اللاحقة.

سُر استمرارية الملكية في المغرب

يمكن استجماع أسرار هذه الاستمرارية المتواصلة المتجددة في ثلاث دعائم أساسية، هي في نفس الوقت أركان الدولة المغربية، وهي:

الوحدة الدينية: إذ جعل الإسلامُ السنيَّ الملكيَّ دينَ الدولة منذ القرن الثامن (الثاني الهجري)، فانتقل بالمجتمع من القبلية المشتتة إلى الأمة الجامعة التي تجانست وتعايشت فيها والتأمت كل الانتماءات العرقية والقبلية واللغوية، وتفاعلت وأغنت كل الروافد المتباينة بعضها البعض...

الوحدة السياسية: بحيث اختار المغاربة بتوافق مع السلالات الحاكمة المتعاقبة نمطا وحيدا للحكم هو النظام السلطاني ثم الملكي، الذي لم يتغير، رغم الصعاب والاضطرابات، ورغم تغيير اسم الحاكم (سلطان، ملك...). ولعل أهم ما قوّى عضد نمط الحكم وضمن استدامة الدولة المستقلة، هو نظام إمارة المؤمنين ونظام البيعة، لما يحمله من رضائية بين الطرفين والتزامها كليهما بواجبات تبادلية.

وحدة الجغرافيا: التي دامت مستقلة موحدة، بدون انقطاع، لقرون عديدة، مما ثبت في الوعي الجمعي للمغاربة قوة الانتماء المشترك لنفس الوطن، ولنفس الجغرافيا والحدود الترابية، ولنفس الأمة الواحدة الموحدة، المتعالية عن التباينات الدينية أو اللغوية أو الثقافية. وعيٌ مبكّر أقام وأدام ووطّد الدولة الوطنية، المشتهرة في كل البقاع وعبر الزمن الطويل بالمغرب الأقصى، ثم المغرب.

وما من شك في أن هذا الثلاثي المؤسس للوحدة هو الذي ألهم المشرع الدستوري فاستجمعه في شعار الدولة الوطنية العصرية: "الله، الوطن، الملك"، شعار تركيبي يجمع المرجعية الدينية الموحدة، والوحدة الوطنية السيادية، ووحدة نمط الحكم. وحول هذا الركن الثلاثي المتين تدور كل مقتضيات الدستور المغربي.

ومن شدة التحام الأركان الثلاثية الأضلاع فيما بينها، اشتغلت المؤسسة الملكية إلى جانب مؤسسة إمارة المؤمنين في تجانس ووثام. فمن الشرع نهل نمط الحكم مرجعيته، أي إمارة المؤمنين والبيعة؛ ومن المرجعية الوطنية استمدت وظائف الملك وأعبائه في ضمان استمرارية واستقلال الدولة ووحدة الترابية في دائرة حدودها الحقة (ف.42).

استمرار التطوير والتجديد: وإبداع البيعة المشروطة والملكية المقيدة

لن نملّ من تكرار أن بيعة مولاي عبد الحفيظ³⁵ المشروطة (كما سابقتها) تعتبر فعلا تحولا هاما، إذ وضعت على كاهل الملك واجب التصدي لكل مشاكل البلاد المتفاقمة، لدرجة جاز معها تشبيهها بمشروع إصلاح شامل للحالة المتردية للبلاد³⁶، بما يعكس عمق وسعة النظر السياسي لعلماء العصر. ومن أهم ما ركزت عليه البيعة:

- إلغاء معاهدة الجزيرة الخضراء؛
- إصلاح التعليم؛
- إحداث مجلس الشورى؛
- تحرير البلاد من الاحتلال الأجنبي؛
- إلغاء نظام الأجانب داخل التراب المغربي بما يشمل الحماية والامتيازات الأجنبية؛
- إلغاء الديون التي على المغرب للأجانب واعتبارها ديونا شخصية يسأل عنها السلطان عبد العزيز؛
- إلغاء المكوس؛
- تقوية مبادئ الإسلام؛
- استشارة السكان في كل ما له صلة بالعلاقة مع الأجانب...

وبقي مولاي عبد الحفيظ يحاول الالتزام بشروط البيعة، لكن أحداث التدخل الأجنبي والاحتلال تجاوزته. وبتوقيعه لعقد الحماية سنة 1912م، وجد نفسه ناقضا لشروط البيعة، فتنازل عن العرش.

35 - إنها ورغم أهمية وتقدم هذه البيعة المشروطة، لم يستسغها عدد من أنصار السلطان مولاي عبد العزيز، مما أحدث انقساماً داخلياً. لكن الأحداث، وأساساً تدخل الأجانب، حسم الأمر لمولاي حفيظ.
علال الفاسي: حفريات عن الحركة الدستورية والحركات الاستقلالية؛ العروي: الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912م.

Abdallah Laroui: "Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain: 1830-1912", La Découverte, 1977.

36 - الجابري، نفس المرجع، ص 134.

ويستخلص مما سلف أن البيعة كانت تحد من سلطات السلطان ولا توسعها³⁷، كما يعتقد البعض. فالبيعة هي التي كانت تلزم السلطان بالرجوع إلى الأمة للاستشارة، وذلك في شخص علمائها، باستشارتهم في جواز وسق (تصدير) بعض المواد إلى أوروبا³⁸، وأنها كانت تقيم للشعب مكانة معتبرة، بصفته صاحب السيادة.

التحكيم المتجدد... عماد آخر لإمارة المؤمنين

في زمن امتدت أطراف الدولة المغربية شمالا وجنوبا وشرقا، وغابت أو قلّت سبل التواصل، كان طبيعيا أن تحصل مناوشات واضطرابات وغارات من قبائل على أخرى. وبمقتضى بيعة العلماء والقبائل، وبصفته أميرا للمؤمنين كان السلطان يمارس وظيفة هامة هي التحكيم بين القبائل³⁹.

وظلت إمارة المؤمنين تضطلع بدور أساسي في توحيد القبائل والتحكيم فيما بينها. ومع زوال نظام القبائل، إثر اكتمال بناء الدولة الحديثة وانتشار المدنية وتركيز الساكنة في تجمعات ضخمة، وخضوع القبائل لنظام الدولة المركزية (...)، ظل التحكيم مع ذلك وظيفة أساسية، واتخذ أشكالا متعددة ومتجددة تبعا للأوضاع والحاجات والتبدلات، بحيث ظهرت تيارات غير مسبوقة، أدق وأخطر وأعقد من القبلية. فالاختلافات الإثنية أو القبلية أو اللغوية أو الحزبية... التي طالما استثمرها المستعمر لإحداث الفرقة داخل الجسد الوطني، لا زالت تشكل مواد دسمة للاستعمار الجديد... بل وانضافت إليها اختلافات أخرى تعتمد الجنس والأيدولوجيا والسياسة وحتى الإثنية... وخلافات فرعية أخرى حول قضايا تكاد تقصم في كل مرة لُحمة الأمة، مثل حقوق الإنسان، حقوق المرأة، قانون الأسرة، منح الجنسية، رفع التحفظات، الحريات الفردية، الدستور، الحوار الاجتماعي، الإجهاض، وفتح مهن في وجه النساء (كالإرشاد الديني وخطة العدالة)،

37 - فالبيعة هي التي حددت طبيعة حكم السلطان، فنظراً لطابع المراقبة الذي تتضمنه. فُلِزَ السلطان بـ: الاستشارة، والتصرف في أموال ومصالح الجماعة بما يعود عليها بالنفع، المحافظة على بيت المال، ممارسة العلماء، العارفين بمقاصد الشرع وأحكامه، للاستشارة والبيعة... يراجع:

Mohamed Aziz Lahbabi: Le gouvernement marocain à l'aube du XXème siècle, Éd. Techniques Nord-africaines, 1958.

38 - الناصري: "الاستقصا"، نفس المرجع؛ الحباي: الحكومة المغربية في مطلع القرن العشرين، نفس المرجع، بالفرنسية.

39 - يقول جرمان عياش: "إن وظيفة التحكيم هاته مارسها بمقتضى مركزه الديني... فإليه كانت تلجأ الأطراف المتضررة طلبا لوساطته"... راجع: جرمان عياش: دراسات في تاريخ المغرب، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص 145 وما بعدها.

والمصالح المرسل⁴⁰...، والتطرف والسلفية، والاستغلال السياسي للدين، والعلمانية وفصل الدين عن الدولة... وكلها قضايا تستثير الكثير من الجدل والتعاطي الأيديولوجي العصبي (قبلية من نوع جديد). مما يستدعي تحكيميا حكيما يراعي المصالح العليا للوطن.

كل ذلك يبين إلى أي حد زادت قيمة وإلحاح التحكيم المنتظر من إمارة المؤمنين، وكيف أنه أضحى السبيل الأوحى لحسم خلافات ونزاعات لا يتوانى عن إشهارها (عن حق أو دونه) الفرقاء السياسيون والفاعلون في المجتمع، بدون انقطاع، في زمن العولمة والفتح القسري للحدود و"الانفتاح" المستلب على كل الثقافات والأيديولوجيات... وإن هذا ليرز، من جانب آخر، إلى أي حد ظلت وتبقى مؤسسة إمارة المؤمنين عاملا لتوحيد الأمة وجمع كلمتها، وحفظ الاستقرار الاجتماعي والسياسي والثقافي والديني وتثبيت الأمن الروحي. ويعتبر المغرب مرجعا ورائدا في التحكيم المرتكز على القواعد الحاكمة لإمارة المؤمنين المستلهمة من الشرع.

III - تشبيه إمارة المؤمنين بملكيات أوربية عريقة: لا مقارنة مع الفارق؟

كانت لـ "إمارة المؤمنين" همولة دينية. فظلت، قبل إدراجها في الدساتير تحتضن كل صلاحيات السلطان. وإن من أسمى الوظائف المركزية لها، هو تدبير العلاقة بين الدين والدولة. من منطلق أن إمارة المؤمنين تملك أدوات تدبير الشأن الديني من دون الوقوع في شرك "سلطة الكهنوت" الشمولية.

وإن من الجور تحليل إمارة المؤمنين على ضوء القراءة التيقراطية لنظريات الحكم "الإلهي" الكنسي الأوروبي، التي تعتبر الحاكم (الراهب) حائزا على تفويض إلهي، مستمرا في تلقي الوحي. وهذا يتجاف مع التصور الإسلامي للحكم الذي ينطلق من بديهية انقضاء الوحي مع الرسالة الخاتمة، ومن بديهية كون الحاكم يستمد شرعيته من الشعب لا من تفويض إلهي.

بل إن مؤسسة "إمارة المؤمنين" قد خففت كثيرا من أزمة العلاقة بين الدين والسياسي، أزمة، هي في الواقع مختلطة في فهم تلبست الأنموذج الكنسي الغربي، دون أن تنبه إلى كون الدولة في

40 - وهي المنفعة، والمراد: جلب المنفعة، ودفع المصرة. والمرسل: المطلقة واصطلاحا تفيد المصلحة المرسل: المصلحة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده من حفظ دينهم وأنفسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم... المحصول في علم الأصول للفخر الرازي، ج 2 ص 220.

الإسلام ليست دينية، ولا شمولية، ولا رهبانية كهنوتية، ولا متسلطة، بل إنها مدنية بامتياز، زمنية، قائمة، ليس على ادعاء تلقي الوحي، وإنما تكتسب شرعيتها من الشعب، الذي يبايع الحاكم بيعة (من البيع)⁴¹ تبادلية ملزمة للطرفين، لا على الخضوع ولا الانقياد للسلطة الدينية الشمولية، وأن الاستغلال السياسي للدين غير مقبول في الإسلام. بل دور الدين هو تخليق الحياة العامة والخاصة، وتنقية سلوكيات الأفراد والجماعات، وتعقيل الممارسة السياسية، وحماية الحرية الدينية لغير المسلمين... أي تثبيت القيم والأخلاق في الفعل السياسي.

وحينما يتشوّف دعاة فصل الدين عن الدولة إلى التماهي مع ما جرى في الغرب ويطالبون بحذف تنصيب الدستور على الدور الديني للملك، فهم لا يلتفتون إلى تلك الفوارق المتوّه بعضها عن الخلفية والحمولة... حينما يُشهر في أوجههم ما تتضمنه الدساتير المعاصرة في الملكيات الأوروبية العريقة من أدوار دينية للملك أو رئيس الدولة، فهم لا يستحسنون هذه المُنَاطرة، بدعوى أن الكنيسة، هنالك، لم يعد لها دخل في شؤون الدولة مُدْ بناء الدولة الحديثة... إنها يغيب عن ذهن هؤلاء مقدار تدخل الكنيسة وتأثيرها في السياسات الحكومية والدولية العالمية، وكيف تضع الحكومات خدماتها رهن إشارة الكنائس لتسهيل تسلّلها والانحشار في الشؤون الداخلية للدول... وهم لا يلتفتون أيضا إلى مقتضيات تضمنتها دساتير غربية، من قبيل أن الملكة في بريطانيا تحمل لقب "حامية الإيمان" و"حامية العقيدة"، بصفتها تترأس هرم الكنيسة الأنجليكانية؛ وإلى ما فرضه دستور النرويج⁴² من أن يكون الملك من معتنقي الديانة الإنجيلية - اللوثرية (م 4)... وكون دستور الدانمرك جعل "الكنيسة الإنجيلية اللوثرية الكنيسة الرسمية في الدانمرك"، وألزم "الدولة" بحمايتها (الجزء 1 فقرة 4)... وهكذا. فكيف يتصور إذن الانفصال حينما يلزم الدستور قمة هرم الدولة بدعم الكنيسة؟

أما إمارة المؤمنين فمؤسسة رمزية في دولة مدنية، مقصدها الأساسي ضمان الأمن الروحي والقيمي والأخلاقي، وإحداث التوازن بين الديني والمدني، ومصادرة تسييس الدين من يد الأحزاب والجمعيات وسواهما. وهي حينما تقوم بذلك لا تزج بنفسها في الصراعات السياسية، ولا

41 - "وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ" سورة التوبة، آية 112.

42 - وإلى حين تعديل 21 ماي 2012م، ظل دستور النرويج يلزم معتنقي الديانة الإنجيلية - اللوثرية بتربية أبنائهم على نفس الديانة. ويلزم الملك بأن يكون من نفس الديانة وأن يحميها.

تتمترس كطرف وسط تدافع وتنافس المشتغلين بالسياسة. وإنما قِيَّضت إمارة المؤمنين، وما زالت، واجبَ إحداث التوازن بين الشأن الديني والتدبير السياسي، في اتجاه التخليق، وليس تسييس الدين ولا انتهاج الشمولية، ولا ادعاء تلقي الوحي، ونسبة كل استبداد أو تطاول أو ظلم إلى الله.

وزيادةً في توقي الاستغلال السياسي للدين، جُعِلت كل الهيئات التي تشغل إلى جانب إمارة المؤمنين تحت رعايتها وإشرافها المباشر، وحُظِر عليها الانغماس أو الانخراط أو التعاطف أو الترويج (من فوق المنبر) لتيار سياسي أو أيديولوجي أو حزبي أو نقابي... من قبيل ذلك ما جاء به ظهير 104-14-1 الصادر في 20 رجب 1435 هـ (20 ماي 2014م) في شأن تنظيم مهام القيمين الدينيين وتحديد وضعياتهم، والذي وُضِعَ القيمين الدينيين، المزاولين لمهامهم بسائر الأماكن المخصصة لإقامة الشعائر الدينية، تحت الرعاية السامية لجلالة الملك باعتباره أمير المؤمنين، الراعي لشؤونهم، والضامن لحقوقهم (م1). بحيث حظر عليهم القانون كل انخراط أو إعلان من فوق المنابر عن تعاطف أو تسويق لأيديولوجية تيار سياسي أو نقابي، واستغلال منابر الخطابة أو دور العبادة للتجيش والحشد.

تَفَرَّد في الموازنة بين الدين والدولة وبين القدامة والحداثة

ومع قيام الدولة الحديثة في ظل الثقافة العولمية، زادت التحديات وضرورات الموازنة بين الأصيل والمستجد، بين القدامة والحداثة، ولذلك احتدَّت المواجهة بين الموروث الثقافي الديني وبين قيم العولة وربيباتها من علمانية ولائكية وإلحاد (...). فوُضِعَت صورة الدولة "التقليدية" بمؤسساتها العتيقة في مواجهة قاسية مع نموذج الدولة الحديثة، بمؤسساتها المبتدعة، ومع شعارات ومبادئ (المعلنة فيما الحقيقة غير ذلك) من قبيل دولة الحق والقانون والمؤسسات (دون التفات للقيم والأخلاق)، وإطلاقية الحقوق والحريات الفردية والجماعية والليبرالية (المتوحشة)...

فاجتازت إمارة المؤمنين في المغرب باقتدار امتحانات التطوير والتحديث، من دون تنكر للتراث والقيم والمبادئ التي أقرها الإسلام، فتقلَّد الملك رئاسة الدولة وإمارة المؤمنين، من أجل العبور بسفينة التحديث إلى مرفأ الأمان. وليس في هذا أية غرابة، اعتبارا لكون الإسلام دين مجدد، واعتبارا أيضا لوَلَعَ الأمة المغربية وتمسكها الشديد بالتراث والقيم والأعراف، مع حبها للتجديد والتطوير في ملائمة ومصالحة مع الأصيل التالِد.

وإن الدساتير المغربية تدرجت في الموازنة بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية، بين الملكية وإمارة المؤمنين، وتأقلمت مع التطورات والتبدلات المعاصرة. ف "إمارة المؤمنين" لم تكن، في أي وقت من الأوقات، لتحوّل دون الانفتاح على مقومات الدولة العصرية (دولة المؤسسات...). بل لعلها أكبر ما أسهم في انتقالٍ محكمٍ متدرج، في بناء الدولة الحديثة القائمة على مرجعية الأمة، من دون صدٍّ للمنظومة الحديثة للحقوق والحريات والمساواة والديمقراطية... ويكفي أن نمثّل بمؤسسات حصّنت الانتقال من النماذج العتيقة إلى العصرية: ففي الوساطة بين المواطن والإدارة صار ديوان المظالم "وسيطاً" للمملكة، وارتقى المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان إلى مجلس وطني لحقوق الإنسان، ومن الحسبة إلى مؤسسات مراقبة الأسواق والأسعار والجودة، التي اشتغلت وتعاضدت معها إلى حين اشتد عودها فحصل الاستغناء عن الحسبة، ومن احتكار لمهن ووظائف من قبل الرجال إلى فتح ولوجها أمام النساء... وفي كل مرة فالمرجع في التحديث هو الشرع، والآلية هي التحكيم المسدّد الداعم لإمارة المؤمنين.

إمارة المؤمنين سرّ التساكن بين جميع الأيديولوجيات المتناقضة

وللحقيقة والتاريخ، فمسار الإصلاحات لم يبدأ مع حراك 2011م الاحتجاجي، وإنما ابتدئ عقداً ونيف قبل ذلك، مع دستور 1996م المهيئ للانتقال الديمقراطي، وبشكل فعلي عام 1999م، مع بروز المفهوم الجديد للسلطة وبدء الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية العميقة والأوراش الإنمائية الكبرى.

ويكاد يجمع المحللون، من الداخل والخارج، على أن إمارة المؤمنين هي، قطعاً، سرّ الاستثناء المغربي وركيزته وسرّ تمنيع البلاد ضد كل الاهتزازات، وأنها ضمانة لاستقرار واستمرار الدولة، ولمّ شمل الأمة والتحامها، وأنها حاضنة لجميع الأيديولوجيات والنزعات السياسية ومهذّبة لكل التيارات المغالية ومؤوِّيتها...

في النموذج المغربي تُعنى إمارة المؤمنين بأمور الدين ورعاية المجال الروحي؛ لكن هذا لا يعني ابتعادها عن التدبير السياسي الموكل للملك بصفته رئيساً للدولة. بل إن إمارة المؤمنين تقوم بأدوار مركزية في المزاوجة والمواءمة بين الديني والسياسي، وضبط السياسة بالقيم والأخلاق. وبفضل ذلك وُفّقت في بناء الدولة الحديثة المدنية ومن داخل المرجعية الأصيلة وبلاستنارة بها. فانطلاقاً من نظام

المصالح المرسله مثلاً، نجحت إمارة المؤمنين في تدبير شؤون الدولة العامة، وضمان الحقوق الأساسية، والمساواة، وتدبير المصالح السياسية، وضمان التدافع بين التنظيمات والجماعات (...)، ناشدة في كل ذلك مقصداً سامياً: السعي إلى الأفضل، وتحقيق الرفاه الاقتصادي والاجتماعي والفكري، واستدامة الاستقرار والالتحام (مصالح مرسله) ...

وعلى الجملة، فمنذ بدأت أوربا تراود المملكة ومرجعيتها عن نفسيهما (منذ الحملات الصليبية والهجمات الاستعمارية)، فكل ما حصل من تحديث وتطوير سياسي تمّ من داخل المرجعية، وليس بالقطيعة معها، كما فعل الغرب وكما أراد فرض ذلك على بلداننا، أو كما غيرت (مؤقتاً) أنظمة علمانية ملامح دول إسلامية (تركيا أتاتورك، وتونس بورقيبة وبن علي...). بل دأب المغاربة على تطوير نظامهم السياسي التالد من الداخل (...) بما يشي أن التحديث السياسي سيظل يرتشف من عمق المرجعية.

شاهد تاريخي آخر على عمق تشبث المغاربة بثوابتهم، أنه يوم عمد المستعمر وأذابه من الخونة، إلى نفي أمير المؤمنين الشرعي (المرحوم محمد الخامس)، وتنصيب بنعرفة مكانه، لم يعترف به المؤمنون حقاً من المغاربة وسواهم. بل كان ذلك سبباً لاستعجال الاستقلال، بحيث انتفض الشعب برمته ولم تهدأ فورته إلا برجوع أميرهم الشرعي. وكان سندهم في كل ذلك مشروعية إمارة المؤمنين ودورها الجامع والحامي للحمّة المغاربة ومرجعيتهم.

وبمجرد جلاء المعمر أجمع جيل بناء الاستقلال، من الكهول (جيل محمد الخامس) والشباب (جيل ولي العهد)، على أن المرجعية هي الملاذ والمنهل لإعادة بناء الهرمية السياسية...

وبُعيد الاستقلال واندلاع حرب الاستفراد بالشأن العام المؤطرة بأيدولوجية "الحزب الوحيد" (المدعوم بجيش التحرير)، نهلت إمارة المؤمنين من معين الشرع المؤيد والضامن للاختلاف والتنوع، فأنتجت دستور 1962م، مشهراً في وجه من يريد احتكار الشأن السياسي والحزبي، مبدأ التعددية الحزبية، منهياً صراعا كاد يعصف باستقرار البلاد، بإيعاز من المستعمر الذي كان ما يزال يحكم قبضته على الدولة والجيش...

واستمر مسار بناء السيادة واستكمال تحرير المناطق المحتلة، خصوصاً منها الصحراء. وفي قضية الصحراء بالذات كان لإمارة المؤمنين دور في التحرير دون أن تراق قطرة دم، بالاهتداء

لإصدار تعليمات بالتسلح بالقرآن والعلم والسلم، وبإشراك المدنيين في مسيرة سلمية خضراء ليس لها شبيه من قبل ولا من بعد.

وزاد النبوغ يوم وفد (في 14 غشت 1979م) لفيف من علماء ووجهاء وأعيان وممثلي وشيوخ سائر قبائل إقليمي أوسرد ووادي الذهب إلى العاصمة الرباط، وتلي، في بثّ تلفزيوني مباشر مهيب، نصّ البيعة التي جدد وأكد بها سكان هذه الأقاليم مبايعتهم لأمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، المغفور له الحسن الثاني، معلنين ارتباطهم الوثيق والتحامهم الدائم بوطنهم المغرب، وتشبّثهم بوحدة التراب المقدس⁴³.

وعندما احتدم الجدل عام 1999م حول مشروع إدماج المرأة في التنمية وانقسم المجتمع المغربي شطرين منفصمين (في سكيذوفرينيا مقلقة)، كان لتحكيم وحكمة إمارة المؤمنين دورٌ حاسم في إيجاد حل أرضى جميع الأطراف... وكان التصويت بالإجماع على مدونة الأسرة... (2004)

كما بعث أمير المؤمنين سؤالاً محورياً ومرجعياً⁴⁴ إلى المجلس العلمي الأعلى في موضوع المصلحة المرسلّة (المصلحة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده)⁴⁵، في 8 يوليوز 2005م. والمقصود من

43 - وكانت بحق لحظة تاريخية كبرى ومهيبة، في مسيرة الوحدة الوطنية. وقد خاطبهم المرحوم الحسن الثاني، وعبرهم كل سكان الصحراء المغربية، قائلاً: "إننا قد تلقينا منكم اليوم البيعة، وسوف نرعاها ونحتضنها كأثمن وأعلى وديعة، فمنذ اليوم بيعتنا في أعناقكم، ومنذ اليوم من واجباتنا الذود عن سلامتكم والحفاظ على أمنكم والسعي دوماً إلى إسعادكم، وإننا لنشكر الله سبحانه وتعالى أغلى شكر وأغزر حمد على أن أتم نعمته علينا، فألحق الجنوب بالشمال ووصل الرحم وربط الأواصر".

44 - نص السؤال المرفوع من أمير المؤمنين: "... وفي هذا السياق قررنا أن تكون فاتحة أعمال المجلس العلمي الأعلى تكليفه، طبقاً لما يراه من رأي فقهي متنور، بتوعية الناس بأصول المذهب المالكي، ولا سيما في تمييزه بالعمل بقاعدة المصالح المرسلّة، التي اعتمدتها المملكة المغربية على الدوام. لمواكبة المتغيرات في مختلف مناحي الحياة العامة والخاصة، من خلال الاجتهادات المتنورة، لأسلافنا الميامين ولعلمائنا المتقدمين. وهو الأصل الذي تقوم عليه سائر الأحكام الشرعية والقانونية المنسجمة والمتكاملة، التي تسنها الدولة بقيادتنا، كملك وأمير المؤمنين، في تجاوب مع مستجدات العصر، والتزام بمراعاة المصالح، ودرء المفسد، وصيانة الحقوق وأداء الواجبات"، من الخطاب الملكي، بالقصر الملكي بفاس بمناسبة افتتاح الدورة الأولى لأشغال المجلس العلمي الأعلى، بتاريخ 8 يوليوز 2005م (فاتح جمادى II، 1426هـ).

45 - المصلحة المرسلّة من أهم أصول التشريع في المذهب المالكي، غايتها تطبيق روح الشريعة ومقاصدها. وهي بهذا المعنى لا تخرج عن الشرع، وإنما تسعى لتحقيق نوع من المرونة والملاءمة لاستيعاب وتقنين كل مستجدات ونوازل الحياة... وهي بذلك تؤكد مبدأ "صلاحية" الشريعة لكل زمان. ومنطلق وعماد المصالح المرسلّة أن المقصد العام من التشريع الإسلامي هو "جلب المصالح ودرء المفسد"، اعتماداً على نصوص شرعية عديدة، منها قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" (الأنبياء الآية 106)، وقوله: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" (آل عمران 159)... على أن المرونة واللين لا يعنيان الإطلااق، بل المصلحة المرسلّة مقيدة بعدة شروط، أهمها: - ألا تعارض أصلاً ثابتاً بنص أو إجماع، - أن يكون الأخذ بها لحفظ ضروري أو لرفع حرج، - أن تكون معقولة بذاتها بحيث لو عرضت على العقول السليمة لتلقتها بالقبول، ==

الاحتكام إلى المصلحة المرسلّة تحويل الصراع بين الأصيل والمعاصر إلى توافق وتكامل وغنى وإبداع (لا بدعة). من منطلق أن الأحكام من أي مصدر كانت (شرعي أو قانوني)، تجتمع وتُجمَع على وحدة المرتكزات والأهداف والمقاصد، ومنها: تحقيق المصالح ودرء المفساد وصيانة حرّيات وحقوق الناس وأداء الواجبات، وهذا عين المصلحة المرسلّة...

ومن الإبداعات أيضاً، إنشاء هيئة الإنصاف والمصالحة بقرار لأمر المؤمنين في 7 يناير 2004م⁴⁶، من أجل إخراج المجتمع من تبادل الاتهامات، والانغماس في المظالمات... ومن أجل طي صفحة الماضي والمصالحة، وإنصاف الضحايا وجبر أضرارهم، والانطلاق لبناء مغرب جديد ومفهوم جديد للسلطة (...)، والمتوجة أعمالها بتوصيات الغاية منها الاعتبار من أخطاء الماضي وتحسين البلد من الانزلاق إلى الممارسات الجائرة من تنكيل وتعذيب وإهدار للكرامة...

ولما قرّر المغرب العودة لبيته الإفريقي، على ما سيُسيّر لاحقاً، أفادت إمارة المؤمنين من رصيدها التاريخي ووشائجها القوية مع الشعوب الإفريقية، واستثمرت دبلوماسية دينية راقية، منها ستمتاح دول صديقة لمواجهة الأخطار المحدقة بعالم اليوم من لا أمن واضطرابات وعنف وتطرف...

هذه مجرد نماذج، والأمثلة أكبر من أن تحصى، يبين منها كيف تبرّع إمارة المؤمنين، كلما داهمت المملكة أطماع وأخطاراً خارجية و/أو داخلية، في الاقتداء بهدي المرجعية لتجنيب البلاد كل الويلات، وكيف يجد المغاربة ملاذاً ومنقذاً في وصفات ذات أسس وقواعد تراثية تزيد من التحامهم والتفافهم حول إمارة المؤمنين.

ونرى بنفس القدر كيف أن كل التطويرات التي عرفها المغرب، قبل الحماية وأثناءها وبعدها وإلى اليوم، حصلت في ظل الاستمرارية والعراقة، مما حصّن البناء السياسي وحافظ على جوهره، كما أرسى دعائمه العالمون الأوّل.

== أن تكون المصلحة حقيقية وليست وهمية، وأن تكون عامة لا شخصية. وتنطبق عن المصلحة المرسلّة عدة قواعد، منها: *إذا تعارضت مفسدتان دفعت أعظمهما؛ *إذا تعارضت مصلحتان قدمت أعظمهما نفعاً؛ *إذا تعارضت المصالح والمفساد قدم الأرحح منها على المرجوح؛ *درء المفساد مقدم على جلب المصالح...

46 - وبمقتضى الظهير الشريف المتضمن للنظام الأساسي للهيئة الصادرة في 12 أبريل 2004 م.

ويستخلص من مسيرة التحديث التي سجلها المجال السياسي المغربي أن المرجعية الأصيلة لا تمنع الديمقراطية وبناء الدولة العصرية، بل بفضلها استرجع المغرب زمام الريادة، على الصعيد العربي والإفريقي، واعترف العالم بتفوق النموذج الأصيل والمتحضر. ويستخلص أنه، في التجربة المغربية، تعتبر الملاءمة بين تدبير الشأن الديني وإدارة الدولة، ومحورها إمارة المؤمنين، أكبر وأعظم وأسمى من الدستور ومقتضياته.

IV - إتمام الأسس الدستورية لإمارة المؤمنين: من العرف إلى الدسترة ومن الغموض إلى التدقيق الاصطلاحي والقانوني

لإمارة المؤمنين أركانها ومؤسساتها الدستورية الداعمة

فرغم قِدَم إمارة المؤمنين، ورغم التلميح لمعالمها في الدساتير السالفة، إلا أنه، قبل مراجعة 2011، لم تحصّ أية وثيقة في تفاصيل المؤسسة وآليات وأدوات اشتغالها. وبمناسبة وبفضل المراجعة الشاملة، بيّن المشرع أسس ودعائم وصلاحيات وأبعاد إمارة المؤمنين، والتي، نستحضر منها أهم المبادئ والمقتضيات العامة، كالتالي:

1. إسلامية الدولة: إمارة المؤمنين مؤسسة إسلامية صرفة، وتكريس إسلامية الدولة، يتكرس مقتضاها وعمادها، بصفتهما متلازمتين، في التاريخ المغربي منذ قيام دولته،
2. سمو المرجعية الإسلامية على كل المرجعيات الأخرى، فكلما كانت المبادئ المستقاة من مصادر أخرى معارضة لما هو قطعي الثبوت والدلالة في الإسلام، وجب استبعادها لفائدة المرجعية الأصيلة.
3. جعل الإسلام مرجعية أساسية ومؤطرة للعملية التشريعية، وحكما عند الاختلاف، مرجعية تزوج بين أصول الشرع والمصالح المرسلة والاجتهاد المقاصدي في الجواب على القضايا المستجدة.
4. مراقبة مطابقة التشريع للمرجعية الأصيلة، من قبل المحكمة الدستورية، التي اكتسبت صلاحية النظر في مطابقة التشريعات للشرع، وصلاحية البتّ في الطعون المثارة بشأن تعارض تشريع ما مع المرجعية الأصيلة، ودعم تركيبة المحكمة، لأجل ذلك، بخبراء معتمدين يمثلون مؤسسة العلماء.

5. طلب مشورة وفتوى المجلس العلمي الأعلى في صنف من مشاريع القوانين.
 6. دسترة إمارة المؤمنين وفرز صلاحياتها عن صلاحيات وأعباء رئيس الدولة السياسي.
 7. جعل البيعة، المحددة وجهةً وخلفاً، أساس انتقال الحكم، القائم على التعاقد والرضائية والتبادلية في الحقوق والواجبات والمسؤوليات، كما يفهم من الوثيقة الدستورية.
 8. حماية حرية ممارسة الشعائر الدينية وتقييـض إمارة المؤمنين بهذه الحماية. انطلاقاً من أول دستور في التاريخ، "عهدا المدينة"⁴⁷، والذي أقرّ فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بمبادئ: "الوطنية بدل القبلية" و"الوطن للجميع والدين لله" و"حرية المعتقد" و"لا إكراه في الدين"، انطلاقاً من ذلك كرّست وثيقة 2011م، ذات المبادئ، ضماناً للتعدد الثقافي والتعايش والاحترام المتبادل ومنعاً لاستفزاز الشعور الديني للآخر المختلف.
 9. جعل المجلس العلمي الأعلى مؤسسة تابعة لإمارة المؤمنين وتحت الرئاسة المباشرة لأمير المؤمنين.
 10. استقلال مؤسسة العلماء عن السلطتين التنفيذية والتشريعية. فبما أن المشرع الدستوري جعل المجلس العلمي الأعلى تحت رئاسة أمير المؤمنين، يكون قد أقرّ بأنه سلطة مستقلة عن الأجهزة الأخرى، بل لعله أسـمى منها، ما دام يملك مراقبتها في كل ما يتعلق بحماية الملة والدين. ولا يملك أي جهاز آخر من أجهزة الدولة السياسية مراقبة مؤسسة علمية تابعة لإمارة المؤمنين.
 11. دسترة المؤسسات المرتبطة بإمارة المؤمنين وتحديد المجلس العلمي الأعلى، والهيئة العليا للإفتاء... التي أضحت مراكز للخبرة والاستشارة والفتوى، تمدُّ كل مؤسسات الدولة وعلى رأسها إمارة المؤمنين، برأيها العلمي بشأن قضايا شرعية وبشأن ملاءمة مشاريع القوانين للمرجعية.
- ومع أن المجلس العلمي الأعلى أُحدث في 8 أبريل 1981م (بمقتضى ظهير 270-80-1 بتاريخ 3 جمادى II 1401هـ)، أي قبل تعديلين دستوريين سابقين (1992 - 1996م)، إلا أنه لم يتبوأ مكانته الدستورية فيها جميعها، ولم يُدسّر إلا مع مراجعة 2011م.

47 - عهدا أو صحيفتا (دستور) المدينة، أول دستور مكتوب في التاريخ، أبرم أحدهما الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود، في السنة الأولى للهجرة (622م)، وأبرم عهدا مائثا مع النصارى لطوله، نحيل عليه في مراجع عديدة منها: رجاء ناجي المكاوي: أصول القانون: ماهيته، مصادره، فلسفته وتطبيقه، ط 6، "أبي رقيق"، 2018م؛ رجاء ناجي المكاوي: حرية التعبير المتباين بين النظر والممارسة، محاضرة مقدمة في جامعة كوبنهاغن، 2005م، أشغال الندوة... راجع أيضاً: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، الطبعة السادسة، 1987م، ص 189...

وما دام التطوير عملية أبدية لا تنقضي، وبما أنه أحدث مجلس أعلى لمراقبة مالية الأوقاف بمقتضى ظهير 13 رمضان 1433هـ غشت 2012م، فإن الباب يفتح مجددا لتطويرات أخرى دستورية وغيرها... من أجل الأدوار: حفظ الأمن الروحي وكفالة حرية ممارسة الشعائر الدينية.

تتحدث الوثيقة الدستورية عن إمارة المؤمنين، لا إمارة المسلمين، حفظا لوحدة الأمة المتعددة الروافد الدينية واللغوية والثقافية، تعدد استمر واحتضنه المجتمع والدولة المغربيين، بفضل مظلة إمارة المؤمنين، راعية الحقل الديني.

ولذات الغاية صَادَر الدستور من أي كان، جماعة أو حزبا أو أفرادا، حق توظيف الخطاب الديني، منعا للمزايدة على ثوابت الأمة الضامنة للحمّة المغاربة ووحدة الوطن ولاندماج كافة الأطياف والانتماءات في أمة واحدة. فبعد أن نص الدستور على أن "الإسلام دين الدولة"، أردف للتو أن "الدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية" (ف3)... وبعد أن أقر الدستور التعددية الحزبية وحرية تأسيس الأحزاب والجمعيات... ربط ذلك باحترام الدستور والقانون، وضمن التعددية الحزبية، وعدم اعتماد "الأحزاب السياسية على أساس ديني أو لغوي أو عرقي أو جهوي، وبصفة عامة، على أي أساس من التمييز أو المخالفة لحقوق الإنسان"... أو أن تجعل "هدفها المساس بالدين الإسلامي"...

فباستعراض وظائف إمارة المؤمنين والمؤسسات التي تشتغل إلى جانبها، تبين، بما لا مزيد عليه أنها، مجتمعة، تتولى:

- تنظيم الشأن الديني، وضبط ورعاية الفتوى وتحصينها ضد الانزلاقات؛
- الحفاظ على الشريعة وتحقيق المصالح المتسقة معها؛
- صون الثوابت وملاءمة القوانين معها (...)
- حماية الثغور؛
- ضمان استقلال واستمرارية الدولة واستقرارها؛
- صون المؤسسات الدستورية والاختيار الديمقراطي والحقوق والحريات؛ واحترام التعهدات الدولية طبقا للدستور؛

تقوية لحمة الأمة، في السابق بتوحيد القبائل والتحكيم بينها، وحاليا بتبدير التباينات والتوفيق والتقريب بين الفرقاء والفاعلين السياسيين وسواهم (...).

تعصيد إمارة المؤمنين بمؤسسات دستورية

بالنظر لتعقد وتطور بنية الدولة، ولكون أمير المؤمنين رئيسا للدولة السياسية، وممثلا أسمى للأمة ويتقلد أعباءً مدنية وعسكرية و...، فتركيز المهام في يد واحدة وممارسة الإمامة العليا بشكل انفرادي وفق التصور القديم... لم يعد ممكنا. بل أضحي ضروريا تفويض تدبير الشأن الديني لمؤسسات، تتبع لإمارة المؤمنين وتسترشد بهديها وتضم علماء عارفين وطاقات وخبراء، قادرين على إنتاج الفتوى والاستشارة.

تجديد وتوسيع مهام وأدوار المؤسسات التابعة لإمارة المؤمنين

في إطار تطوير حكمة الشأن الديني وإكمال دولة المؤسسات، ارتقى المجلس العلمي الأعلى لأول مرة إلى رتبة المؤسسات الدستورية المساهمة بقوة في تدبير كافة شؤون الدولة. بل وأسندت رئاسة المؤسسة العلمية لأمير المؤمنين.

وتبين النصوص المؤطرة أن أهم أدوار المجلس العلمي الأعلى الإفتاء والإجابة على الاستفتاء والاستشارة، وكلها مهام تشترط الاجتهاد وإصدار الفتاوى في القضايا والنوازل المستجدة في المجال الاجتماعي أو الاقتصادي أو حتى السياسي. هكذا أشرف بناء المؤسسة العلمية على الاكتمال، وأوكلت إليها مهام إضافية غير مسبقة. ويمكن استجماع المستجدات في:

- دسترة المجلس العلمي الأعلى، وما اقتضاه ذلك من مراجعات تشريعية وهيكلية،

- إشراكه في مجلس الوصاية،

- تقلده واجب حفظ الثوابت،

- تخويله مهمة الاجتهاد والتطوير،

- والسهر على تكوين الأئمة والمرشدين والمرشحات،

- إيصال المعرفة إلى فئات ظلت بدون ولوج، بإشراك العالمات،

• التصدي للتطرف والغلو...

• ونعرض بعجالة لبعض هذه الإبداعات والمهام:

دسترة أعلى مؤسسة للعلماء

"يرأس الملك، أمير المؤمنين، المجلس العلمي الأعلى، الذي يتولى دراسة القضايا التي يعرضها عليه. ويعتبر المجلس الجهة الوحيدة المؤهلة لإصدار الفتاوى التي تُعتمد رسمياً، في شأن المسائل المحالة إليه، استناداً إلى مبادئ وأحكام الدين الإسلامي الحنيف، ومقاصده السمحة. تُحدّد اختصاصات المجلس وتأليفه وكيفيات سيره بظهير" (الفصل 41 من الدستور). هكذا سطر دستور 2011م أدوار إمارة المؤمنين ووظائف المؤسسة التي تشغل تحت مظلتها.

ويكمل النصّ الدستوريّ الظهير المعدّل للمجالس العلمية والمحدّد لاختصاصاتها، الصادر في 2 ربيع الأول 1425هـ / 22 أبريل 2004م، والذي يرتقب المراجعة على ضوء المستجدات الدستورية والقانونية. وأما المهام الموكولة للمؤسسة العلمية، فنعرضها بإيجاز تباعاً.

1 - إشراك المؤسسة العلمية في مجلس الوصاية

حسم الدستور الحالي أنه في حالة تولي الحكم ملكٌ لم يبلغ سن الرشد (أي 18 عاماً). فإن مجلس الوصاية يمارس، وإلى حين يبلغ الملك سن الرشد، اختصاصات العرش وحقوقه الدستورية، باستثناء ما يتعلق منها بمراجعة الدستور. ثم يستمر مجلس الوصاية في العمل، كهيئة استشارية بجانب الملك، حتى يدرك تمام السنة العشرين من عمره.

وبوياً الدستور الحالي المؤسسة العلمية شرف الانضمام إلى هذا المجلس، فأردف أنه: "يرأس مجلس الوصاية رئيس المحكمة الدستورية، ويتركب، بالإضافة إلى رئيسه، من رئيس الحكومة، ورئيس مجلس النواب، ورئيس مجلس المستشارين، والرئيس المنتدب للمجلس الأعلى للسلطة القضائية، والأمين العام للمجلس العلمي الأعلى، وعشر شخصيات يعينهم الملك بمحض اختياره". (ف.44).

2 - حفظ الثوابت

من أوجب واجبات المجلس العلمي الأعلى الحفاظ على المرتكزات الأساسية الخمسة وعلى الثوابت التاريخية التي يتشبث بها المغاربة ولا يحيدون عنها، ونذكر منها: المذهب المالكي، والعقيدة

الأشعرية، والتصوف السني على طريقة الجنيد السالك، وإمارة المؤمنين، إلى جانب الوحدة الوطنية. وهي الثوابت التي حفظت التماسك الاجتماعي، والأمن الروحي والاستقرار السياسي، وأفلحت في تبدير كل الاختلافات الفقهية والعقدية، وحققت الوحدة الدينية والوطنية.

3 - وظيفة الاجتهاد والإفتاء والمشورة

يستفرد المجلس العلمي الأعلى دستوريا بالإفتاء، ولأجل ذلك أنشئت داخله هيئة علمية مكلفة بالإجابة على القضايا المعاصرة، كلما تلقت طلب استفتاء أو استشارة من أمير المؤمنين أو أسئلة من جهات رسمية أو غيرها أو حتى من الأفراد. ويلزم بيان أن المجلس العلمي الأعلى، وتحديدًا هيئة الإفتاء، تنظر في القضايا الكبرى وذات البعد الوطني والاستراتيجي، وأما الإفتاء في القضايا البسيطة وشؤون الناس اليومية ومعاشهم وأحوالهم، فلأنه يقتضي سرعة البت، ولا يحتمل الانتظار، ونظرًا لبساطته، فإنه يسند للمجالس العلمية المحلية.

وتتوسل هيئة الإفتاء (وتتبعها في ذلك المجالس العلمية المحلية) بمقومات الاجتهاد الأصيلة، وأهمها: الكتاب والسنة⁴⁸؛ وما جرى به العمل (عمل أهل المدينة وما جرى به العمل في المذهب المالكي)؛ ومقاصد الشريعة الكبرى التي من أجلها شرعت التكاليف والأحكام؛ وسد الذرائع⁴⁹؛ وأقوال العلماء⁵⁰ والقواعد الفقهية⁵¹؛ والمصالح المرسلة (أي المصلحة التي قصدها الشارع

48 - وكمثال على ذلك فتوى أبريل 2006م بشأن سؤال وزارة الأوقاف عن جواز القرعة في الحج، فاستدلت للقول بمشروعية القرعة بعدة آيات منها: "وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم" (آل عمران/ الآية: 44)؛ "وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون، فساهم فكان من المدحضين" (الصافات، 140-141)؛ واستندت أيضًا لحديث عائشة من "أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا خرج أقرع بين نسائه.."، البخاري، كتاب النكاح، باب: القرعة بين النساء إذا أراد سفرا، رقم: 4913.

49 - ومثاله فتوى عن سؤال لوزارة الأوقاف في 13 أكتوبر 2006م، والقاضية بمنع استعمال الآيات القرآنية شعارات أو عناوين لمؤسسات ربحية تجارية أو لمنتجاتها، سدا للذرائع؛ وفتوى بعدم جواز استعمال كلمة (sexy) ضمن استخدام تسمية www.sexy.ma جوابا عن سؤال الوكالة الوطنية لتقنين المواصلات ANRT في 4 شتنبر 2007م.

50 - ومثاله فتوى حول إمامة المرأة في الصلاة جوابا عن سؤال وزارة الأوقاف 26 ماي 2006م، فأحالت على قول ابن أبي زيد القيرواني والإمام المازري بعدم الجواز.

51 - منها فتوى بجواز إيصاء الإنسان في حياته بالتبرع بقرنية عينيه لفائدة نقلها منه حين وفاته، وزرعها في عين إنسان آخر ليستعيد بها سلامة نظره وعافية بصره جوابا عن استفتاء في الموضوع من "الجمعية المغربية لجراحة قرنية العين والمياه البيضاء وزرع العدسات بالدار البيضاء" 08 رجب 1430هـ الموافق 01 يوليوز 2009م، وقد استندت في بناء هذا القرار إلى عدة أدلة من ذلك توسلها بالقواعد الفقهية للتعليل، وبذلك "تندرج هذه العملية في مبدأ اليسر ورفع الحرج عن الناس في بعض الأمور والأحوال جاء به دين الإسلام، ونص عليه في قول الله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [10]، وقوله سبحانه: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [11]، كذا في بعض القواعد الفقهية الكلية المتعلقة بأحكام الضرورة... كقواعد: (الضرورات تبيح المحظورات) [أي المنوعات]، و(الضرورات تقدر بقدرها)، و(الضرر يزال)، و(الأمر بمقاصدها)".

الحكيم لعباده)... وإن الاعتماد على هذه الآليات مجتمعة هو ما يسمح بالمرونة والانفتاح على قضايا العصر، وبتغيير الفتوى بتغير الزمان، من دون ابتعاد عن النصوص ومقاصدها.

4 - التأطير والتنظيم والسهر على تكوين القيمين الدينيين

يتقلّد المجلس العلمي الأعلى مهمة الإشراف على التأطير الديني، من خلال رئاسته وتوجيهه للمجالس العلمية المحلية والجهوية، ومن خلال مراقبته لتكوين المكونين، أي الأئمة والمرشدين والمرشيدات، وتأهيلهم للتأطير الديني والوعظ والإرشاد والنصيحة.

فالمجالس العلمية المحلية والجهوية هي التي تتواصل مع المواطنين وتتلقى أسئلتهم وطلباتهم وتجيّب عن الحالات الفردية وتعطي المشورة الدينية، وتسهر على جودة ووحدة وتناسق الخطاب الديني والوعظ والإرشاد وتسهر على التعليم العتيق...

وأما معهد تكوين أئمة المساجد والمرشدين والمرشيدات، فدوره التكوين والتأهيل في مجال الإمامة والإرشاد ومراقبة المساجد، وهو الذي يضع البرامج، ويتابع شؤون المكونين وتأهيلهم للوعظ والإرشاد، وينظم دورات للتكوين المستمر وتداريب لاستكمال خبرة ومعارف القيمين الدينيين...

وكل ذلك لغاية تثبيت المرجعية الدينية الصافية النقية من كل الشوائب في نفوس المواطنين، والحفاظ على الوحدة المذهبية وتجانس الاجتهاد، وتحصين الهوية المغربية ضد الانجراف والتبعية للتيارات الأيديولوجية المعولمة القادمة من كل حذب.

وبالنظر للإشعاع العالمي لهذا المعهد، فقد انخرط في عملية غير مسبوقة لتكوين وتأهيل واستكمال تكوين القيمين الدينيين الأجانب من كل بقاع العالم (إفريقيا، أوروبا...). وإن الطلب على خدمات المعهد في تزايد مستمر. مما استلزم توسعة بنياته ومرافقه وزيادة عدد المؤطرين.

5 - إيصال المعرفة الدينية إلى فئات ظلت بدون ولوج، بإشراك العائلات والمرشيدات...

وأما مشاركة العائلات والواعظات والمرشيدات، فإنه مما يحسب لأمر المؤمنين حفظه الله الذي رخص وشجع عليه وأصدر تعليماته لإيلاء العناية الكافية لتحقيق الأهداف المتوخاة من ذلك. ولهذا الإشراف أكثر من مزية، من بينها إفادة المجتمع من خبرة ونظرة الأنثى وفقه النساء (...). ثم تحقيق

ولوج نساء وشباب المجتمع للاستفادة من التنوير والإرشاد والتوجيه ول الديني والتوعية، ومنها الاهتمام بقضايا الأسرة والمرأة والشباب. وبالفعل، فحسنت هذه المشاركة تفوق كل تقدير، لدرجة أضحت معها خلايا الأسرة والمرأة والطفولة التي ازدانت بها المجالس العلمية، سببا لإشعاع المجالس وانفتاحها على محيطها.

وإن من حسنات هذا الإشراف، عدا تفعيل دور نصف المجتمع، هو إيصال المعرفة الدينية إلى شرائح من المجتمع ظلت لزمن طويل مهمشة ولا ولوج لها إلى حلقات التحسيس والتكوين الديني القيمي، وبخاصة النساء والشباب، ولعل هذا واحداً من أسباب الغلو والتطرف. وبإشراف المؤطرات النساء، فإنه يؤمل تصحيح قواعد تربية النشء وتمكين المربيات والشباب من الحصول على أجوبة سليمة على أسئلة ترافق الإنسان في حياته، وحينما لا يجد لها جهة رسمية، يبحث عنها في أماكن مظلمة، فيقع في شرك التطرف.

6 - التصدي للتطرف والغلو

على أن أحد أهم مقاصد هيكلة الشأن الديني ومأسسته، هو إيجاد سياسة مندمجة لالتزام السنة والجماعة، ومحاربة الغلو والتطرف، وما ينتج عن ذلك من انخراط في ظاهرة الإرهاب العالمية (وإن كانت محاربة الإرهاب بالوسائل الجزرية والوقائية تعود للأجهزة الأمنية).

وعقب أحداث 16 ماي 2003 م المتزامنة مع موجة الغلو والتطرف التي اجتاحت العالمين العربي والإسلامي، أدخل المشرع المغربي تطويرات على الإفتاء: باستحداث الهيئة العلمية للإفتاء داخل المجلس العلمي الأعلى كهيئة وحيدة لإنتاج الفتوى واقتراحها على أمير المؤمنين باعتباره رئيس المجلس الأعلى؛ والحفاظ على المرجعية الأصيلة ووحدة المذهب، واجتثاث الفتنة والتصدي للاجتراف على الفتيا، وتمنيع الفتوى الرسمية ضد المتطاولين والحد من فوضى الإفتاء...

ثم سيتوج مسار الإصلاح بإصدار ظهير (20 ماي 2014م) يحظر على القيمين الدينيين ممارسة السياسة والترويج لأيديولوجية ما، صوناً لوقار المنابر وما تفرضه من استقامة وحياد ونزاهة⁵²...

52 - ظهير شريف رقم 104-14-1 الصادر في 20 من رجب 1435 هـ (20 ماي 2014م) في شأن تنظيم مهام القيمين الدينيين وتحديد وضعياتهم، وجاء في المادة 7: يتعين على كل قيم ديني، في جميع الأحوال وطيلة مدة مزاولته لمهامه، التحلي بصفات الوقار والاستقامة والمروءة التي تقتضيها المهام الموكولة إليه. ويمنع عليه، خلال هذه المدة، ممارسة أي نشاط سياسي أو نقابي، أو اتخاذ أي موقف يكتسي صبغة سياسية أو نقابية، أو القيام بأي عمل من شأنه وقف أو عرقلة أداء الشعائر الدينية، أو الإخلال بشروط الطمأنينة والسكينة والتسامح والإخاء، الواجب توافرها في الأماكن المخصصة لإقامة شعائر الدين الإسلامي.

وكل ذلك حفظا على تماسك المجتمع ووحدة مرجعيته وصونا لمقوماته الروحية التي لا تتنافى مع الانفتاح على روح العصر، وتنبذ كل تعصب أو غلو أو تطرف في الدين.

لا حاجة للتذكير بأن إمارة المؤمنين في المغرب ليست مجرد لقب أو صفة، وإنما مؤسسة أصيلة، فاعلة، قوية، وحازمة، تضبط النظام السياسي والديني الوطني، وتتصدى لكل تطرف أيديولوجي أو سياسي... وقد نجحت إمارة المؤمنين في وضع سياسةً مندمجة لمحاربة الغلو والعنف، أهم مرتكزاتها: إصلاح الخطاب الديني، ومراقبة منابر الخطابة في المساجد تفاديا لكل انزلاق أو انحراف عن مضمون الإسلام الوسطي المعتدل، القائم منذ اثني عشر قرنا على ثوابت راسخة (المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، والتصوف السني)، ثوابت هي التي حصنت، وستظل، إلى جانب إمارة المؤمنين، المغرب ضد كل نزعة للتطرف والعنف.

إسهام صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله في بناء المشروع الحداثي الإفريقي

د. سمير بوزوينة
عميد كلية الآداب سايس-فاس

جعل جلالة الملك محمد السادس نصره الله، منذ أن تولى عرش أسلافه المنعمين الفضاء الإفريقي الواعد ضمن مشروعه الحداثي الإفريقي، وقد بلور في سياق ذلك توجهات اقتصادية ودبلوماسية وسياسية.

إن تفسير ومحفز هذا المشروع يترجم في تطلع المغرب إلى إعادة إحياء البعد الإفريقي الذي طالما كدرت صفوه الحسابات السياسية، أو حالت دون تجذره التوازنات الإقليمية، أو التحالفات والتحالفات المضادة المستحضرة لقضية الصحراء المغربية بهذا الشكل أو ذاك.

لقد اتسمت فترة جلالة الملك محمد السادس، أعزه الله، بتوجه المنتظم الدولي نحو العولمة والتحالفات الإقليمية مع إعطاء الأسبقية للاقتصاد. فكان البعد الإفريقي من أولويات السياسة الخارجية المولوية لصاحب الجلالة، حيث دفع في اتجاه تعزيز ودعم الحضور المغربي بإفريقيا، بكل أشكاله الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية.

فصاحب الجلالة الملك محمد السادس، حفظه الله، بحكمته الرشيدة ومرجعيته الدينية (إمارة المؤمنين) وكاريزميته استطاع إعطاء قفزة نوعية ودفعاً لهذه الروابط التاريخية المتينة. وجعل من المكون الإفريقي عنصراً جوهرياً من عناصر هويته العربية والأندلسية والأمازيغية والإفريقية، مؤسساً وليس مكملها. ووفق هذا وذاك تركز هذه الدراسة على إبراز التوجهات الكبرى لإسهام جلالة الملك محمد السادس في بناء المشروع الحداثي الإفريقي، وذلك من خلال خطب العرش التي لم تكن خطبا لحظية، وإنما خارطة طريق تتضمن التصور والإجراءات العملية لمشروع نقل ووضع الدول الإفريقية على سكة التنمية المستدامة.

وهذا الطموح للمغرب في تنمية إفريقيا، انطلق منذ القمة الإفريقية الأوروبية المنعقدة بمصر سنة 2000م. حيث هدفت القمة الإفريقية- الأوروبية إلى تعزيز الشراكة وتوطيد العلاقات السياسية والاقتصادية والأمنية بين دول وشعوب القارتين. وتعود بداية الشراكة بين القارتين عبر آليات القمم التي يحضرها قادة الدول إلى عام 2000م حين عقدت أول قمة بين الطرفين في مصر.

لقد بدأت الشراكة بين إفريقيا والاتحاد الأوروبي مع هذا المؤتمر، وتركزت رؤية الشراكة المعلنة المنبثقة عن هذا المؤتمر على تعزيز العلاقات السياسية، وتعزيز وتشجيع القضايا ذات الاهتمام المشترك، مع تعزيز التعددية الفعالة والشراكات التي يكون محورها الشعوب.

ركزت القمة الإفريقية- الأوروبية الأولى التي انطلقت أشغالها بالقاهرة (أبريل 2000م) على: تدبير الخلافات التي تتركز على الديون وآلية متابعة المشاكل، وقد اعتبرت هذه القمة الأولى من نوعها بين قادة إفريقيا وأوروبا وسط أجواء متفائلة بحلول "عهد جديد" في علاقات القارتين. وأثيرت مسألة الديون الإفريقية، والتي اعتبرت العائق الأول في الذهاب بالطرف الإفريقي والأوروبي إلى بناء صفحة جديدة بين القارتين، وخطوة رئيسية مرموقة على درب النظام العالمي الجديد.

تضمنت كلمة السيد الأمين العام لمنظمة الوحدة الإفريقية سالم أحمد سالم مدى استعداد الدول الإفريقية في بدء حوار بناء مع أوروبا يستند إلى أسس جديدة من التعاون والمصالح المتبادلة التي تأخذ في الاعتبار المخاوف المشتركة، ومؤكداً على أن إفريقيا لديها بعض المخاوف الرئيسية في شأن قضايا الديون، وحذر من أنه ما لم تعالج قضية الديون الإفريقية بجدية، وبالشكل الكافي فإن جهود القارة الرامية لإحداث إصلاحات اقتصادية وسياسية ستظل متعثرة.

وشدد على ضرورة أن يدرك "الشركاء الأوروبيون" الذين يصرون دائماً على إثارة قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان أن القارة "بلورت موقفاً موحداً حيال هذه القضايا"، وأنها تواصل الجهود لإحراز تقدم في هذين المجالين: الديمقراطية وحقوق الإنسان في إفريقيا، والتي تتطلب دعماً أكبر في محاربة الفقر والتخلف، وهي قضايا قائمة بالفعل وتهدد الجهود التي تبذلها الدول الإفريقية.

لقد شكلت القمة منعطفاً جديداً في العلاقات بين القارتين، ومنطلقاً لتحقيق مشروع إفريقيا موحدة في كل المجالات وإنشاء الجماعة الاقتصادية الإفريقية.

وخلال اللقاءات الثنائية، كان أبرزها لقاء موسى مع نظيره المغربي محمد بن عيسى الذي صرح بـ "إننا نريد أن نكون عضواً كامل العضوية في منظمة الوحدة الإفريقية على أساس الشرعية وعلى أساس احترام ميثاق المنظمة الذي يتحدث عن عضوية الدول ذات السيادة التي تفرض سلطتها وحكمها على الأرض".

وسئل ابن عيسى عن احتمال لقاء الملك محمد السادس والرئيس بوتفليقة، فأجاب: "لا شيء مستبعد وإذا كان هناك لقاء، فقطعاً سيكون لقاءً ثنائياً، فالمغرب والجزائر جاران تربطهما مصالح مشتركة عدة، واللقاء إذا تم سيكون بين أخوين جارين وليس هناك أي مطلب مغربي ولا يوجد أي شرط لعقد مثل هذا اللقاء".

وقد حدد جلالة الملك محمد السادس مفاصل هذا المشروع الحدائي في خطاب عيد العرش 30 يوليوز 2000م التالي: "وتعزيزاً منا لأواصر التضامن مع القارة الإفريقية التي تربطنا بها علاقات تاريخية وروحية عميقة فقد حرصنا على دعم علاقات الصداقة التقليدية والتعاون المثمر والتضامن الفاعل والتقدير المتبادل مع قادتها وشعوبها سواء خلال الزيارات الرسمية التي قام بها لبلادنا إخواننا رؤساء دول موريتانيا والسينغال ومالي وغينيا الاستوائية أو خلال المقابلات المكثفة التي أجريناها مع عدة رؤساء دول إفريقية شقيقة وصديقة خلال زيارات العمل أو الزيارات الخاصة التي قاموا بها لبلادنا كالغابون وغامبيا والكونغو وغينيا أو خلال قمة القاهرة الإفريقية الأوربية الأولى. وقد بادرنا خلال هذه القمة التي انعقدت في ظل الاحترام الكامل للشرعية وفي جو من التفاهم المتبادل إلى الإعلان عن إلغاء ديون كل الدول الإفريقية الأقل تقدماً تجاه المغرب وفتح أسواقنا دون شرط أمام المنتوجات الأساسية لهذه البلدان الشقيقة تفعيلاً من جلالتنا لقيم التضامن مع إفريقيا خاصة ومع محور جنوب- جنوب عامة وتجسيدا ملموساً لنوعية العلاقة الاستراتيجية التي ينبغي على أوروبا أن تحرص فيها على التنمية المستدامة لقارتنا وعلى استتباب الأمن والاستقرار والتخفيف من آثار الكوارث الطبيعية والآفات الاجتماعية ذلكم الحرص الذي جسدهنا بإرسال مساعدات إنسانية للموزمبيق وبوتسوانا والاستجابة للنداء الأممي بمساهمة قواتنا المسلحة الملكية الباسلة في توطيد السلم بجمهورية الكونغو الديمقراطية الشقيقة"¹.

1 - نص الخطاب الملكي السامي الموجه إلى الأمة بمناسبة عيد العرش، الأحد 30 يوليوز 2000م.

تأكد بالملموس أن صاحب الجلالة الملك محمد السادس اعتبر أن الانفتاح على الدول الإفريقية يجب أن يفعل وأن يأخذ شكلاً جديداً من العمل المشترك، المبني على بناء الثقة المتبادلة. وعلى استثمار التآزر بين الدول الإفريقية، وذلك في أفق بلورة مشاريع اقتصادية واعدة. وهذا ما أكدته في خطاب العرش في 30 يوليو التالي: "وهكذا، ومواصلة لسياسة التآزر مع القارة الإفريقية، التي تجمعنا وإياها روابط تاريخية وحضارية ودينية، وعلاقات تضامن وحدوية راهنة؛ فقد كان اهتمامنا كبيراً بدعمها من خلال تبادل الزيارات والوفود، التي عززت علاقاتنا مع الدول الإفريقية الشقيقة، سواء على الصعيد الثنائي أو متعدد الأطراف، وفي مقدمتها لقاءات القمة، التي تمت، سواء باستقبالنا، أو بقيامنا بزيارات رسمية لإخواننا الأجلاء، أصحاب الفخامة رؤساء الدول الشقيقة؛ للسينغال وغانا والنيجر والطوغو.

وقد حرصنا على الحضور في التظاهرات الكبرى التي شهدتها قارتنا، حيث شاركنا شخصياً في القمة الواحدة والعشرين لرؤساء دول إفريقيا وفرنسا، التي انعقدت بالعاصمة الكاميرونية، حيث دعونا بهذه المناسبة إلى الأخذ بعين الاعتبار الوضعية الاستثنائية الإفريقية، والبعد الإنساني لإكراهات العولمة التي تواجهها. وفضلاً عن مساهمة المغرب في برامج التنمية، لفائدة سبع عشرة دولة إفريقية، فقد انتدبنا وزيرنا الأول لتمثيل جلالتنا في الدورة الثالثة لمؤتمر تجمع دول الساحل والصحراء، التي انعقدت في السودان، والتي تميزت بانضمام بلدنا إلى هذا التجمع، الذي نتطلع إلى أن يفتح مجالات جديدة للتعاون الإفريقي الجاد. كما تولى بلدنا أيضاً تنظيم أول قمة للسيدات الأوليات الإفريقيات، تحت رعايتنا السامية، والرئاسة الفعلية لصاحبة السمو الملكي الأميرة الجليلة للامريم. وتدخل هذه التظاهرة، التي اعتنت بأوضاع الفتاة الإفريقية ضمن الإعداد للقمة العالمية للطفل، التي أنطنا بشقيقتنا صاحب السمو الملكي الأمير الجليل مولاي رشيد، رئاسة لجنة وطنية تحضيرية لها، ضمت، علاوة على القطاعات الحكومية، فعاليات المجتمع المدني؛ وكان لها تحت إشراف سموها جهود فعالة، سواء في تحضير المغرب لهذه القمة، أو في احتضان لقاءات وزارية وجمعية إفريقية وعربية، لضمان الإسهام الجيد للمغرب وإفريقيا في هذا الملتقى الأممي".²

وبنفس روح التآزر ودعم المبادرات التنموية وتبني سياسة المصالحة من أجل إحلال السلام بالقارة الإفريقية، وجه صاحب الجلالة الملك محمد السادس يومه الأربعاء 30 يوليو 2003 خطاباً

2 - نص الخطاب الملكي للأمة بمناسبة عيد العرش، الإثنين 30 يوليو 2001م.

ساميا إلى الأمة بمناسبة عيد العرش المجيد الذي يصادف هذه السنة الذكرى الرابعة لاعتلاء جلالته عرش أسلافه المنعمين. والذي أكد فيه المقاربة الإفريقية التي يؤمن بها وبنجاحاتها، وهي: "وبنفس الروح التضامنية سنواصل دعم مسار التنمية المستدامة والمساهمة في إخماد بؤر الصراع باتخاذ مبادرات المصالحة لإحلال السلام في القارة الإفريقية تأكيدا لانتمائنا العريق إليها أو على صعيد بلدان الجنوب نهوضا بالتزامنا كرئيس لمجموعة السبعة والسبعين زائد الصين بإقامة علاقات اقتصادية دولية متوازنة ومنصفة لها"³.

إيماننا من جلالة الملك محمد السادس بدوره في توطيد دعائم تطوير إفريقيا في مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فقد أعلن كامل استعداداته للإسهام في مبادرة النيباد الإفريقية، والتي تهدف إلى التعامل مع مشكلات القارة المختلفة وإيجاد الحلول الملائمة لها للقضاء على الفقر والهشاشة، وتحقيق مشاركة جادة وفاعلة بين الدول الإفريقية. كما بين في خطاب العرش ليوم الثلاثاء 20 يوليوز 2004م، الدعم المادي والمعنوي للمملكة المغربية تجاه الدول الإفريقية: "وبنفس الحزم والعزم، فإننا لم نفتأ نجعل قارتنا الإفريقية في صدارة سياستنا الخارجية، مكرسين جهودنا لتعزيز علاقاتنا مع كافة بلدانها الشقيقة، ولا سيما منها الأقل نموا، عاملين على المساهمة في إنجاح مبادرة (النيباد) والمشاركة في العمليات الأمية، لحفظ الأمن والسلام والاستقرار في منطقة الساحل وقارتنا الإفريقية بأسرها.

وبالنظر لكون منطقة غرب إفريقيا والساحل، تمثل امتدادا طبيعيا لجوار المغرب، فقد حرصنا، من خلال زيارتنا الأخيرة لخمسة من بلدانها الصديقة، على تجسيد ما تحظى به من مكانة خاصة، ضمن رؤيتنا الاستراتيجية، بحكم الروابط الحضارية العريقة التي تجمعنا بها، والتي نسعى لتوطيدها، بالمزيد من التعاون والتكامل الاقتصادي، والتضامن الفاعل لمواجهة المخاطر التي تهدد أمنها واستقرارها"⁴.

وتأكيدا من جلالته مواصلة الدعم الميداني والفاعل للتنمية البشرية المستدامة للبلدان الإفريقية، وبدور القوات المسلحة الملكية في حفظ السلام بهذه الدول، فإنه نص على هذا التوجه في نص خطاب العرش لسنة 2005م التالي: "وفي هذا الصدد، فإننا إذ نؤكد موصول دعمنا الميداني

3 - نص الخطاب الملكي للأمة بمناسبة عيد العرش، الأربعاء 30 يوليوز 2003م.

4 - نص الخطاب الملكي للأمة بمناسبة عيد العرش، الثلاثاء 20 يوليوز 2004م.

والفاعل للتنمية البشرية المستدامة، للبلدان الإفريقية؛ فإننا نشيد، على وجه الخصوص، بما أبانت عنه الأطر الطبية لقواتنا المسلحة الملكية، من تفان في تجسيد تضامننا الإنساني والأخوي النبيل، مع شعوبها الشقيقة⁵.

وبالرؤية ذاتها، أكد جلالته في خطاب العرش ليوم الأربعاء 30 يوليوز 2008م، استمراره في السعي للاندماج الإيجابي لإفريقيا: "وهو ما سنواصل العمل من أجله، في فضاءاتنا الجهوية والدولية، تضامنا عربيا - إسلاميا ناجعا، ووضعنا متقدما مع أوروبا، واتحادا واعدة من أجل المتوسط، واندماجا إفريقيا إيجابيا. ومع جوارنا من بلدان الساحل، وشراكة بناءة مع دول الشمال، وتعاوننا مثمرا بين أقطار الجنوب"⁶.

ويستمر جلالته في التثبيت اللامشروط مع الدول الإفريقية ووضع تجربته وخبرته رهن إشارة الدول الإفريقية الشقيقة، وذلك في أفق وضع هذه القارة في مسار التنمية المستدامة المنشودة. وقد أعلن عن ذلك في نص خطاب العرش لسنة 2009م التالي: "ويتمثل الفضاء الثالث، في تجسيد تضامن وتعاون المملكة مع الدول الإفريقية الشقيقة، وفي مقدمتها بلدان الساحل المجاورة. بالمثابرة على إقامة شراكات حقيقية معها، قائمة على المصالح المشتركة، وتحقيق التنمية المستدامة. واضعين تجاربنا وخبرتنا في خدمتها، كنموذج للتعاون جنوب- جنوب، بمشاريع تنموية بشرية وهيكلية"⁷.

ووفاء لانتهاج سياسة إفريقية متناسقة، فإن جلالة الملك محمد السادس سينص في خطاب العرش ليوم السبت 31 يوليوز 2010م، على التعاون الأمني مع بلدان الساحل والصحراء، ومع الدول الإفريقية الأطلسية، لمواجهة المخاطر الأمنية المتعددة: "وتجسيدا لانتهاج الإفريقي، فإن المغرب سيظل وفيًا لانتهاج سياسة إفريقية متناسقة؛ هادفة لتحقيق التنمية البشرية، وتعزيز الأمن الإقليمي؛ خاصة في إطار التعاون مع بلدان الساحل والصحراء، ومع الدول الإفريقية الأطلسية، لمواجهة المخاطر الأمنية المتعددة"⁸.

5 - نص الخطاب الملكي للأمة بمناسبة عيد العرش، 30 يوليوز 2005م.

6 - نص الخطاب الملكي للأمة بمناسبة عيد العرش، الأربعاء 30 يوليوز 2008م.

7 - نص الخطاب الملكي للأمة بمناسبة عيد العرش، الخميس 30 يوليوز 2009م.

8 - نص الخطاب الملكي بمناسبة عيد العرش، السبت 31 يوليوز 2010م.

لقد أدرك جلالته أن عمق المغرب الإفريقي والواعد، يتطلب استشرافا مستقبليا مبنيا على خلفية مقاربة متجددة قائمة على التضامن، ومبنية على تعزيز الأمن والاستقرار، خاصة في منطقة الساحل والصحراء؛ فضلا عن خلق شروط تنمية بشرية، تسهم في النهوض بالإنسان الإفريقي، طبقا لأهداف الألفية للتنمية. وقد أفصح عن ذلك في خطاب العرش ليوم السبت 30 يوليوز 2011م: "أما علاقاتنا مع عمقنا الإفريقي، الذي يشكل مجالا لفرص واعدة، فإننا حريصون على نهج مقاربة متجددة، قائمة على التضامن، ومبنية على تعزيز الأمن والاستقرار، خاصة في منطقة الساحل والصحراء؛ فضلا عن خلق شروط تنمية بشرية، تسهم في النهوض بالإنسان الإفريقي، طبقا لأهداف الألفية للتنمية.

كما أن ما يجري من أحداث ومتغيرات في منطقة جنوب المتوسط، يؤكد ضرورة تحقيق نقلة نوعية في مسارات الشراكة بين الشمال والجنوب، من أجل خلق فضاء اقتصادي وإنساني متضامن ومنسجم، تتقاسم شعوبه قيم الديمقراطية والتنمية المشتركة.

ويمكن لشراكة المغرب مع الاتحاد الأوروبي، بمختلف أبعادها، أن تشكل مصدر إلهام لصياغة هذه المقاربة المتكافئة، ذات المنافع المتبادلة".⁹

وحرصا من جلالته على تفعيل مشروع التنمية بالقارة الإفريقية، فإنه أشار في خطاب العرش ليوم الاثنين 30 يوليوز 2012م أن المملكة المغربية ستولي اهتماما خاصا للمشاريع ذات الأولوية: "وبخصوص الدول الإفريقية جنوب الصحراء، فإن المملكة المغربية تظل منخرطة في المشاريع الفعالة للتعاون معها. هدفها دعم برامج التنمية البشرية المحلية في القطاعات ذات الأولوية".¹⁰

وفي خطاب جلالة الملك إلى الأمة بمناسبة الذكرى الرابعة عشر لاعتلاء جلالته عرش أسلافه الميامين، الثلاثاء 30 يوليوز 2013م، أكد عزمه على مواكبة سياسته الإفريقية: "وقد واصل المغرب سياسته التضامنية، تجاه الدول الإفريقية الشقيقة، مكرسا بذلك قناعاته العميقة، بنخصال التعاون جنوب- جنوب.

وفي هذا الصدد، قمنا بزيارات رسمية خلال هذه السنة، لثلاث دول إفريقية شقيقة، ساعين إلى توطيد الأواصر، التي تجمع المغرب بقراته. وقد كانت هذه الزيارات، مناسبة لوقوفنا على طلب

9 - نص الخطاب الملكي بمناسبة عيد العرش، السبت 30 يوليوز 2011م.

10 - نص الخطاب الملكي بمناسبة عيد العرش، الإثنين 30 يوليوز 2012م.

هذه الدول، للاستثمارات والخبرة المغربية. ومن ثم، ندعو الفاعلين المغاربة، للتجاوب مع هذا الطلب، لتحقيق المزيد من الاندماج، والتقارب والتكامل، بين اقتصادياتنا¹¹.

وقد بين جلالته الخطوط العريضة لتوجهه الإفريقي النابع من قناعته بأن القارة الإفريقية لها من الإمكانيات ما يؤهلها أن تتبوأ الصفوف المتقدمة، وذلك في الخطاب الذي وجهه جلالة الملك إلى الأمة بمناسبة الذكرى 15 لعيد العرش المجيد، الأربعاء 30 يوليوز 2014م: "إننا نؤمن بأن إفريقيا قادرة على تحقيق نهضتها. غير أن ذلك لن يتحقق إلا بالاعتماد على أبنائها، وعلى قدراتها الذاتية. وهنا أؤكد ما قلته في أبيدجان: إن إفريقيا مطالبة بأن تضع ثقتها في إفريقيا.

ومن هذا المنطلق، نجدد التزامنا بنهج سياسة متناسقة ومتكاملة، تجاه أشقائنا الأفارقة، تركز على الاستثمار المشترك للثروات، والنهوض بالتنمية البشرية، وتعزيز التعاون الاقتصادي.

وهو ما تجسده الزيارات التي نقوم بها لعدد من الدول الإفريقية الشقيقة، وحجم ونوعية الاتفاقيات التي تم توقيعها، والتي تؤسس لنموذج متميز من الشراكة جنوب - جنوب، التي نريدها تضامنية وفعالة.

كما نؤكد التزامنا بالتعاون الثلاثي والمتعدد الأطراف من أجل شراكات متوازنة وذات النفع المتبادل مع دول الشمال.

وأمام تزايد التهديدات الأمنية، وخاصة بمنطقة الساحل والصحراء، فإننا نجدد دعوتنا لضرورة التصدي الجماعي للتنظيمات الإرهابية التي تجد في عصابات الانفصال والاتجار في البشر والسلاح والمخدرات، حليفا لها، لتداخل مصالحها، والتي تشكل أكبر تهديد للأمن الإقليمي والدولي.

غير أن توجهنا الطبيعي نحو إفريقيا، لن يكون على حساب علاقات الشراكة، التي تربط المغرب بشركائه الدوليين، بل إنه يفتح آفاقا أوسع للشراكة بين دول الشمال وبلدان الجنوب¹².

وقد أكد جلالة الملك محمد السادس في الخطاب السامي الذي وجهه إلى الأمة بمناسبة الذكرى 16 لعيد العرش المجيد، الخميس 30 يوليوز 2015م، على التوجه الدبلوماسي الاستراتيجي

11 - نص الخطاب الملكي بمناسبة عيد العرش، الثلاثاء 30 يوليوز 2013م.

12 - نص الخطاب الملكي بمناسبة عيد العرش، الأربعاء 30 يوليوز 2014م.

الذي يهدف إلى ترسيخ تعاون جنوب- جنوب فعال، خاصة مع الدول الإفريقية الشقيقة: "وفي ما يخص التضامن، فإن المغرب يعتمد توجهها دبلوماسيا استراتيجيا يهدف إلى ترسيخ تعاون جنوب- جنوب فعال، خاصة مع الدول الإفريقية الشقيقة.

وقد مكنتنا الزيارات التي قمنا بها لعدد من بلدان القارة، من تطوير نموذج للتعاون الاقتصادي، يقوم على تحقيق النفع المتبادل، وعلى النهوض بأوضاع المواطن الإفريقي¹³.

أما في الخطاب السامي الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى الأمة بمناسبة الذكرى 17 لعيد العرش المجيد، السبت 30 يوليوز 2016م، فإنه يطرح توجهها سياسيا منفتحا أكثر، ومقترحا إقحام العمل الدولي للاهتمام بقضايا التنمية، وخاصة في إفريقيا: "وبصفته بلدا فاعلا في مجال التعاون الثلاثي، فإن المغرب يجعل في صدارة سياسته، توجيه العمل الدولي للاهتمام بقضايا التنمية، وخاصة في إفريقيا¹⁴.

وفي خطاب العرش ليوم الأحد 29 يوليوز 2018م، الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، بمناسبة الذكرى الـ19 لترجع جلالته على عرش أسلافه المنعمين، نص فيه على ما يلي: "ونود أن نشيد بالعمل الإنساني والاجتماعي الذي تقوم به القوات المسلحة الملكية داخل الوطن وخارجه، وخاصة من خلال المستشفى الميداني بغزة للتخفيف من معاناة أشقائنا الفلسطينيين، ودعم صمودهم، وكذا بمخيم الزعتري، لينضاف إلى دورها الإنساني والطبي سابقا، بالعديد من الدول الإفريقية الشقيقة¹⁵.

وخلاصة القول، لقد أحس جلالة الملك محمد السادس منذ توليه العرش بأن إفريقيا في حاجة إلى دفعة إفريقية متفائلة، وتوجه بكل ثبات نحو هذه القارة الواعدة، وقد ترجم هذا المشروع في خطب العرش منذ 2000م إلى يومنا هذا، وبلور مقاربة إفريقيا المندمجة، وذلك على أساس أن الاندماج الإفريقي يجب أن يتبلور في شكل تصور ومقترح اقتصادي، أكثر منه رؤية سياسية.

وفي هذا الصدد، تم إنجاز خطوات مهمة، مثل الإسهام في اندماج "النيباد"، ومنطقة التبادل الحر القاري الإفريقي، والسوق الموحدة للنقل الجوي الإفريقي، ومشروع الغاز بين المغرب

13 - نص الخطاب الملكي بمناسبة عيد العرش، الخميس 30 يوليوز 2015م.

14 - نص الخطاب الملكي بمناسبة عيد العرش، السبت 30 يوليوز 2016م.

15 - نص الخطاب الملكي بمناسبة عيد العرش، الأحد 29 يوليوز 2018م.

ونيجيريا، كما سعى المغرب بتوجيهات ملكية إلى تشجيع التنمية والأمن الطاقوي لإفريقيا الغربية، فضلا عن إنجاز المكتب الشريف للفوسفات لأرضيات إقليمية من أجل إنتاج الأسمدة الذي يهدف إلى تعزيز الأمن الغذائي على المستويين الإقليمي والقاري، كما أن الاستثمارات الأساسية للمغرب في المجالين المالي والبنكي في عدة جهات من القارة تسهم أيضا في التقريب بين الأسواق الإفريقية.

وعموما، فإن المشروع الحداثي الإفريقي للملك محمد السادس يبنّي على قاعدة الاندماجات الإقليمية والمتقدمة والعملية، وهذا ما ترجمه سياسته الإفريقية، والتي تسعى إلى تكثيف العلاقات الثنائية مع البلدان الإفريقية، بشكل فردي وجماعي، مع دعم إصلاح المؤسسات الإفريقية، ومع الدعوة إلى حكمة قارية للتجمعات الإقليمية. كما أنه أكد أن تحقيق هذا المشروع يجب أن يتأسس على بعده الإنساني، لافتا إلى أن من حق ساكنة القارة أن تشعر بشكل مباشر بتأثيرات إيجابية لمختلف التحولات التي تشهدها القارة.

البيعة ودلالاتها ومسؤولية الراعي والرعية في الالتزام بمضامين عقدها

د. أحمد الأزمي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله
- فاس -

للإحاطة بالموضوع المنوه به أعلاه، سنقسمه منهجيا إلى مبحثين رئيسيين، نتطرق في الأول للتعريف بمفهوم البيعة في ارتباطها بالخلافة ودلالاتها، وأنواعها، وتطورها التاريخي، ونخصص الثاني، للالتزامات المترتبة على عقد البيعة بالنسبة للحكام والمحكومين على حد سواء، وفقا لمقتضيات تعاليم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما هي موضحة ومفسرة ومبسطة بتفصيلها في التأليف المشهورة، المعروفة بالأداب السلطانية.

1- مفهوم البيعة في الإسلام وتطورها التاريخي:

1- مفهوم البيعة في الإسلام:

البيعة والمبايعة مشتقة من البيع، والبيع عقد بين البائع والمشتري، تنتقل بموجبه الأملاك من يد لأخرى، ويتبعه الالتزام والإلزام. وعلى هذا المعنى، تقاس البيعة التي تكون بين الأمة والإمام، فهي عقد من الأمة على التفويض للإمام بالإمامة، ويتبعه الالتزام والإلزام، أي بذل الطاعة والنصرة من الأمة في مقابل الحماية والرعاية بالعدل من الإمام. وهو نفس معنى البيعة الذي حدده لها ابن خلدون الذي يرى "أن البيعة، هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسه، وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده، جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد. فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي ذلك بيعة. وصارت البيعة مصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة

ومعهود الشرع، وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ. ومنه بيعة الخلفاء ومنه أيمان البيعة، إذ كان الخلفاء يستحلفون على العهد، ويستوعبون الأيمان كلها لذلك، فسمي هذا الاستيعاب أيمان البيعة إلى أن قال: "وأما البيعة المشهورة لهذا العهد، فهي تحية الملوك (...)"، أطلق عليها اسم البيعة، التي هي العهد على الطاعة مجازاً، لما كان لهذا الخضوع في التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها، وغلب فيه حتى صارت حقيقة عرفية، واستغني بها عن مصافحة الأيدي التي هي الحقيقة في الأصل، لما في المصافحة لكل أحد من التنزل والابتدال المنافين للرئاسة، وصون المنصب الملوكي، إلا في الأقل، ممن يأخذ نفسه بالتواضع من الملوك مع خواصه، ومشاهير أهل الدين من رعيته، فافهم معنى البيعة في العرف، فإنه أكيد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه ولا تكون أفعاله عبثاً ومجاناً¹.

وذكر ابن منظور في "اللسان": أن البيعة هي الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة. ومن ثم جاء معناها يمين الولاء، يقسم بين يدي الخليفة عند ولايته. وهذه الشعيرة عبارة عن وضع اليد في يد الأمير المبسوطة دلالة على الخضوع. ويقال بايعه وأعطاه صفقة يده، والأصل في ذلك ما كان عليه العرب من أنه إذا تباع اثنتان صفق أحدهما بيده على يد صاحبه، ومن هنا انتقل، فاستعمل كتعبير دقيق للربط الإيماني القوي والدائم بين الطرفين في المبايعات².

ويتضح من هذه التعريفات كلها أن البيعة قولية وعملية، وأن اليد هي التعبير العملي لها بعد أن يقول المبايع (بالكسر) للمبايع (بالفتح) رضيت بك خليفة أو نحوه، مما يدل على الرضاء وهي عقد يتم بين الطرفين، الطرف المختار والمرشح للخلافة، وطرف أهل الحل والعقد المرشحين، والخلافة هي موضوع البيع.

وأول مفهوم للبيعة في الإسلام كان لنصر دين الله، وتطهير النفوس، وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اللقاء التاريخي بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل المدينة في العقبة الأولى، إذ

1 - عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1988م، ص: 261.

2 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت (د.ت)، ج 8، ص: 23 وما بعدها.

قدم اثنا عشر رجلاً من الخزرج والأوس، فاجتمعوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلموا وبايعوه، على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا بهتاناً يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف³.

وللمرة الثانية كانت بيعة أخرى في العقبة الثانية، حين تمت له من عدد أكبر من أهل المدينة، اشترط فيها لربه أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئاً، ولنفسه أن يمنعوه، مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، حين قدم عليهم. ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وقعت هناك بيعة ثالثة، إذ بايعه أصحابه البالغ عددهم ألفاً وخمسمائة رجل، على قتال المشركين الذين صدوه عن العمرة، وحبسوا مبعوثه إليهم عثمان بن عفان، تلك البيعة التي كانت السبب في تخويف قريش، ورضوخها لصلح الحديبية المعروف، والمرتب عنه نصر عظيم وفتح مبين للمسلمين⁴.

وقد مدح الله هذه البيعة المعبرة عن استعداد المسلمين الصادق، لخوض غمار الحرب مع كفار قريش، وسجلها في صحائف من نور بقوله: «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة ياخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً»⁵.

2 - التطور التاريخي لمفهوم البيعة في ارتباطه بالخلافة (الإمامة)

نرى في البداية من المفيد التعريف ولو بشكل سريع بمفهومَي الإمامة والخلافة، وهما مفهومان، يدلان على شيء واحد، ويمكن أن يضاف إليهما في نفس المعنى إمارة المؤمنين وإمارة المسلمين، والملك، مع بعض التفاوتات البسيطة، بين مصطلح وآخر. غير أن المفهومين البارزين في النصوص التاريخية الإسلامية، هما الإمامة والخلافة. وهما اللذان سنركز عليهما. فمن حيث الاستعمال اللغوي هناك من يرى أن الإمام كل من أئتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم، وهو من أمه إذا قصده، وورد في القرآن مفرداً ومجموعاً، بالمعنى اللغوي السابق، وذلك في قوله تعالى: «وإذ

3 - أبو محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها، مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، جزآن، بدون دار نشر ولا تاريخ، ج 1، ص: 431 وما بعدها.

4 - نفسه، ص: 454 وما بعدها.

5 - سورة الفتح، الآية: 19.

ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتهمهن، قال إني جاعلك للناس إماماً⁶، ثم قوله تعالى: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين»⁷.

وتطورت الخلافة الإسلامية على أرضية التطبيقات التاريخية إلى أن فرضت نفسها كمؤسسة إسلامية، يعقد لها الفقهاء باباً خاصاً، تطلق على الإمام، فتجب طاعته على الأمة، ومن الفقهاء من اشترط فيه سلالة معينة، كابن تيمية⁸، وابن حزم الذي يرى أن الخلافة لا تجوز إلا في قریش مستدلاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يزال هذا الأمر في قریش، ما بقي من الناس إنسان)⁹.

وإذا أطلقت الإمامة دون تخصيص كان معناها الإمامة العظمى، التي هي قيادة الدولة الإسلامية تمييزاً لها عن إمامة الصلاة التي لا تخلو بدورها من رموز للتصدر، واحتلال المكانة المرموقة في المجتمع: التي قد تفضي بصاحبها إلى قيادة الدولة، وهو ما حصل، لما اعتبر المسلمون أن تقديم الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ليؤم الناس نيابة عنه في الصلاة، إشارة إلى تقديمه ليؤمهم في الشؤون العامة أي الإمامة العظمى. وإذا كان الإسلام لا يجعل من أئمة المسلمين معصومين يمنحون الجنة والنار لمن أرادوا، مثل ما عليه السلطة الكنسية عند المسيحيين، فإنه إضافة إلى ذلك أوجب طاعتهم والرجوع لهم عند الاختلاف، فقال عز وجل، مخاطباً الإمام أو الخليفة: «إن الله يامرکم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»¹⁰، ثم قوله: «يا أيها الذين آمنوا، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر»¹¹.

بعد هذا التعريف الموجز بالإمامة، ننتقل للحديث عن الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية.

6 - سورة البقرة، الآية: 123.

7 - سورة القصص، الآية: 4.

8 - للتوسع في الموضوع يمكن مراجعة: أحمد بن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين، خرج أحاديثه سعد عبد الغفار علي، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2005م.

9 - حمداتي ماء العينين، دور الخلافة من خلال عقد البيعة في تكوين وحدة الدولة الإسلامية، ضمن أعمال ندوة البيعة والخلافة في الإسلام بمدينة العيون، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب 1985م، ج 2، ص: 408.

10 - سورة النساء، الآية: 57.

11 - سورة النساء، الآية: 58.

II - الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية:

سنتطرق في هذا المبحث، لمحور أول يتناول الإمامة وشروط انعقادها، ونفصل القول في محور ثان بخصوص الحقوق المتبادلة بين الراعي والرعية.

1 - الإمامة وشروط انعقادها:

يرى أبو الحسن علي الماوردي في "الأحكام السلطانية والولاية الدينية" أن الإمامة موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنه الأصم¹² واختلف في وجوبها، هل وجبت بالعقل أو بالشرع؟ وانقسم الرأي في هذا الموضوع إلى قسمين، فريق أول يقول إنها وجبت بالعقل، لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظلم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم. أما الفريق الثاني، فيقول بوجوبها بالشرع دون العقل، لأن الإمام يقوم بأمر شرعية، قد كان مجوزا في العقل أن لا يرد التعبد بها، فلم يكن العقل موجبا لها¹³.

أما الشروط الواجب توفرها في الإمام، فهي سبعة كما حددها الماوردي¹⁴.

الأول: العدالة على شروطها الجامعة.

الثاني: العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

الثالث: سلامة الحواس من السمع، والبصر، واللسان.

الرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

الخامس: صحة الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح بشكل مرض.

السادس: الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

السابع: النسب، وهو أن يكون من قریش، لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه.

12 - الأصم: هو عبد الرحمن بن كيسان، شيخ المعتزلة. كان من أفصح الناس وأورعهم وأفقههم. منقبضا عن الدولة (ت 200هـ). انظر: ترجمته في الفهرس لابن النديم، تحقيق رضا تجدد، طهران 1971م.

13 - أبو الحسن علي الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد جاسم الحديبي، منشورات المجمع العربي، بغداد. 2002م: ص: 49-50.

14 - أبو الحسن علي الماوردي، م. س، ص: 54.

لكن ابن خلدون من جهته، ورغم أنه وظف الكثير من الأفكار والمعلومات الواردة في الأحكام السلطانية، فإنه اختلف مع الماوردي في عدد الشروط التي يجب توفرها في الإمام المرشح لرئاسة الدولة، وفي ذلك يقول: "... وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل. واختلف في شرط خامس، وهو النسب القرشي"¹⁵.

بعد هذا المحور المرتبط بالإمامة وشروط انعقادها، نتقل لبسط القول حول المحور الثاني من المبحث والذي يعد حقيقة صلب الموضوع، ونعني بذلك الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية، كما ينص على ذلك عقد البيعة الذي يجمع بين الطرفين، تطبيقاً لما ورد في الكتاب والسنة.

2- الحقوق والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية (السياسة الشرعية)¹⁶:

إذا كان الخليفة مراعيًا لحقوق الله في رعيته، محافظاً على الأمانة التي في عنقه بموجب عقد البيعة. فإن الخروج عليه عدوان ظاهر، ويحفظ لنا التاريخ عدة أمثلة لشخصيات إسلامية بارزة أعطت المثل الأعلى في الصبر على المكاره، حفاظاً على وحدة المسلمين، واتقاء للفتنة التي حذر منها الرسول (صلى الله عليه وسلم). فهذا أبو ذر الغفاري الذي كان منفيًا مغضوباً عليه بالربذة¹⁷ بعد أن رحله معاوية عن الشام بأمر من عثمان، أتاه بعضهم وقال له: إن هذا الرجل (معاوية) فعل بك كذا وكذا، فهل أنت ناصب لنا راية¹⁸ فقال أبو ذر: "لو أن عثمان سيرني من المشرق إلى المغرب سمعت وأطعت"¹⁹، وذلك امتثالاً لتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان أوصاه بالصبر على المكاره وعدم استعمال العنف، وقال له: "اصبر حتى تلقاني"²⁰.

15 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، م. س، ص: 241.

16 - من المؤلفات التي ناقشت مسألة السياسة الشرعية بشكل علمي مبسط، كتاب "المقدمة السلطانية في السياسة الشرعية"، تأليف طرغان شيخ المحمدي الحنفي الأشرفي (ت881هـ)، تقديم وتحقيق الدكتور عبد الله محمد عبد الله، مكتبة الزهراء، القاهرة، 1997م.

17 - خال محمد خالد، رجال حول الرسول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1998م، ص: 52.

18 - يعني أن يخرجوا عن عثمان ويقاتلوه.

19 - عبد الكريم التواتي، البيعة والخلافة في الإسلام، ضمن أعمال ندوة البيعة والخلافة في الإسلام، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1985م، ج 2، ص: 579.

20 - سيأتي في مبحث لاحق السياق الذي ورد فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم.

فالصورة المثالية، لما يجب أن تكون عليه الدولة الإسلامية، في علاقة الراعي بالرعية، بفضل الوفاء لمقتضيات وأهداف عقد البيعة النبيلة، تحققت في عدد غير قليل من عصور الخلافة الإسلامية التي عرفت فترات مشرقة وزاهية في التاريخ، من حيث الاستقرار والرخاء، وازدهار العلوم الإسلامية وتطورها في كل تخصصاتها وفنونها، كما هو الشأن بالنسبة للخلافة الأموية²¹، خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري، والخلافة العباسية²² منذ النصف الثاني من القرن الهجري الثاني وإلى ما بعد نهاية القرن السادس الهجري، ونفس الشيء يقال عن دولة الخلافة بالأندلس في عصورها الزاهية²³، إلى تاريخ احتلال مدينة سبتة المغربية خلال القرن التاسع الهجري، غير أن هذه النماذج التاريخية الإيجابية، في تاريخ الخلافة الإسلامية، تخللتها وأعقبتها نماذج سلبية، مشهورة ومعروفة في التاريخ العربي الإسلامي، نتيجة الإخلال بمستلزمات عقد البيعة، من هذا الطرف أو ذاك.

وبما أن عقد البيعة، يلزم الطرفين الحاكم والمحكوم، فإن التاريخ يحتفظ لنا بنصوص، تشهد على إخلاص بعض الخلفاء لله والرسول في المهمة التي أنيطت بهم، وحرصهم على الضرب بيد من حديد على كل من رام الخروج عن شرع الله في تدبير شؤون الأمة، كما نجد نصوصاً أخرى تسلط الضوء على ما كان للرعية من دور في تقويم ما اعوج من سياسة الإمام في دولته، ومن سلوكات منحرفة ولا شرعية، من قبل ولاية وعمال في الأقاليم لا ضمير لهم، فتسببوا بذلك في تدمير الرأي العام، مما كان يسيء لقدسية منصب الخلافة ويطنعن في قيم العدل والمساواة التي يعتبر الإمام أكبر ضامن لها.

أ- نماذج من إخلاص الخلفاء لله وللرسول:

• الخليفة أبو بكر الصديق: يعتبر أبو بكر الصديق خليفة رسول الله أبرز نموذج، وقع عليه اختيار الصحابة لرئاسة شؤون الدولة الإسلامية الفتية، في ظرف حرج. وبمجرد ما تمت مبايعته من قبل أبرز المقربين من النبي محمد صلى الله عليه وسلم كعمر وعثمان وعلي، والزبير، وجماعة من

21 - محمد كامل المحامي، الدولة العربية الكبرى، دار المعارف بمصر، د.ت، ص: 130 وما بعدها.

22 - مصطفى الرافعي، حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1968م، ص: 199 وما بعدها.

23 - سهيل زكار، تاريخ العرب والإسلام، دار الفكر، بيروت، 1977: ص: 422 وما بعدها.

الأنصار²⁴، ألقى أبو بكر كلمته التاريخية المؤثرة في المسلمين والتي يمكن اعتبارها بلغة العصر، خارطة الطريق، التي من سار على هديها نجا. وفيما يلي أهم المقاطع الواردة في خطبته، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال: "أيها الناس،، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم تكلفوني ما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقممت فبايعوني: وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبض، وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها، وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، (...) وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه، وإن استطعتم أن لا يمضي إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله"²⁵. إلى أن قال: "... إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، فإن ما خلصتم الله من الأعمال، فطاعة أتيتموها وضرائب أديتموها وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية، حين فقركم وحاجتكم، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم (...)، واعلموا أنكم عبيد مذنبون، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته"²⁶.

• عمر بن عبد العزيز (ت 715/هـ 96م)²⁷: من أبرز خلفاء بني أمية الذين ساروا في الرعية سيرة عادلة، على غرار سيرة الخلفاء الراشدين في رعاياهم، خصوصاً وأنه من سلالة عمر بن الخطاب الذي سارت بذكره الركبان قديماً وحديثاً بخصوص العدالة الاجتماعية التي كان يحرص عليها شخصياً خلال فترة حكمه. وقد نسب لعمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب قوله، وهو خليفة للمسلمين: "أيها المسلمون، إنه لا كتاب بعد كتاب القرآن، ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، ألا وإني لست بقاض، ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، ولست بخير من أحد منكم، ولكني أثقلكم حملاً، وأن الرجل لهارب من الإمام الظالم، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"²⁸.

24 - الحافظ ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2008م، ج 5، ص: 4.

25 - نفسه، ص: 5.

26 - نفسه، ص: 5.

27 - سهيل زكار، م. س، ص: 198.

28 - حمداتي ماء العينين، دور الخلافة من خلال عقد البيعة في تكوين وحدة الدولة الإسلامية، ضمن أعمال ندوة البيعة والخلافة في الإسلام، م. س، ج 2، ص: 416.

• أبو جعفر المنصور، الخليفة العباسي (ت 158هـ)²⁹: من الخطب المنسوبة لهذا الخليفة الذي عرفت الدولة الإسلامية في عهده وفي عهد أسلافه وبعض من جاء بعده قدرا لا يستهان به من الرخاء والازدهار، محذرا أعوانه من مغبة الغش المؤدي إلى الإساءة إلى الأمة: "... أيها الناس، لا تخرجوا عن أنس الطاعة، إلى وحشة المعصية، ولا تسروا الأئمة، فإن من أسر غش إمامه، أظهر الله سريره في فلتات لسانه وسقطات أفعاله وأبداها الله لإمامه الذي بادر بإعزاز دينه به"³⁰.

• أحمد المنصور، الخليفة السعدي (ت 1012هـ/1603م): ازدهر المغرب الأقصى في عهد هذا الخليفة، واتسعت دولته، وكان محبا للعلماء، مجالسا لهم يسير في الرعية سيرة عادلة، وقد أعطى المثال في الوفاء لعقد البيعة مع شعبه، عندما أنزل على محمد الشيخ المأمون أحد أبنائه المرشحين لولاية العهد أقصى العقوبات، لتفسخ أخلاقه وعدم اهتمامه بأمور الرعية التي أوكل له أمرها بمدينة فاس وما جاورها. وبعد أن حذره عدة مرات، ووبخه، دون طائل، أقر الخليفة العزم، على وضع حد لتصرفاته مهما كان الثمن. وعندما علم ابنه محمد الشيخ المأمون بالخبر: "... فر إلى زاوية الشيخ الصالح أبي الشتاء من فشتالة، قرب نهر ورغة، (...) فنزل بالزاوية ومعه بطانته وأصحاب دخلته من الأحداث وقرناء السوء فبلغ خبره المنصور، فبعث إليه الباشا جودرا مع القائد منصور التبيلي، فذهبا إليه، فامتنع من الدخول في يدهما، وانعزل في أصحابه حتى ناوشوه القتال، وتراموا بالنبال، ثم قبضوا عليه وأتوا به إلى المنصور، فأمر به إلى مكناسة، فسجن بها"³¹.

• السلطان المولى سليمان (ت 1238هـ/1822م): الأمير الورع العالم الذي تصفه المصادر، بأنه لم يلتفت قط إلى شيء مما يتعاطاه إخوته الكبار والصغار من أمور اللهو كالصيد والسماع، ومعاقرة الندمان، ولم يأت فاحشة قط من صغره إلى كبره³²، ومن صفات عدله، واستقامته واحترامه لرعيته بموجب البيعة التي تربطهما، أنه لم يعهد بالملك لأحد من أبنائه، وأوصى به لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام، ليتفرغ لعبادة ربه، وفي ذلك أورد صاحب "الاستقصا" على لسان السلطان مولاي سليمان: "... ما أظن في أولاد مولانا الجد عبد الله ولا في أولاد سيدي محمد والدي رحمه الله ولا أولاد أولاده، أفضل من مولاي عبد الرحمن بن هشام، ولا أصلح لهذا الأمر منه، لأنه إن شاء

29 - محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، 1983م، ج 1 ص: 99 وما بعدها.

30 - المسعودي، مروج الذهب، ج 23 ص: 6، نقلا عن حمداني ماء العينين، م. س، ص: 418.

31 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب، الدار البيضاء، 1955م، ج 5، ص: 175-176.

32 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، م. س، المجلد الثالث، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971م، ص: 200.

الله، حفظه الله، لا يشرب الخمر ولا يزني، ولا يكذب، ولا يخون، ولا يقدم على الدماء والأموال بدون موجب، ولو ملك ملك المشرقين"³³.

• الملك محمد الخامس (ت 1961م)³⁴: من المعروف تاريخيا أن الاستعمار الفرنسي، وهو يبسط حمايته على المغرب منذ سنة 1912م، اعتدى على الملك الشرعي محمد الخامس سنة 1953م، ونفاه وأسرته إلى كرسিকা أولا، ثم إلى مدغشقر³⁵، بسبب مواجهته للفرنسيين ومطالبته لهم بمنح الاستقلال للمغرب وشعبه، وهي المواجهة والتضحية التي رأى فيها واجبا وإجراء لا بد منه باعتباره المؤمن شرعا، كما ينص على ذلك عقد البيعة، على وحدة البلاد واستقلالها، فلم يزد ذلك الشعب المغربي إلا إيمانا وتثبيتا واستمساكا بالملك الشرعي الذي أعطاه صفقة يده ومحضه الحب وأخلص له النية، وأصفى له الولاء، رافضا في الوقت نفسه الملك الدمية ابن عرفة الذي نصبه المستعمر.

خاتمة

كانت تلکم هي أهم القضايا المرتبطة بالبيعة، وتنصيب الكتاب والسنة عليها، وما يرافق ذلك من شروط انعقاد الإمامة شرعا، وفق اجتهادات العلماء والفقهاء، عبر أهم مراحل التاريخ الإسلامي. وسواء تعلق الأمر بكتاب الله وسنة رسوله أو اجتهادات العلماء فإن البيعة تكتسي أهميتها من العقد المقدس الذي يربط الراعي بالرعية، وما يستلزمه من حقوق وواجبات من الطرفين، مركزين في ذلك بشكل أساسي على النصوص التاريخية ذات الصلة بالموضوع. وهو ما حاولت هذه الورقة أن تبرز أهم خطوطه قدر الاستطاعة.

33 - نفسه، طبعة الدار البيضاء، 1956م، ج 8، ص: 164.

34 - Groupe d'auteurs, Histoire du Maroc, Paris, Casablanca, 1967, p. 252.

35 - ibid, p.402.

الدوحة العلوية الشريفة، شجرة مباركة من أرض طيبة

ذ. لحسن تاوشيخت

المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث

- الرباط -

لقد لعب النسب الشريف دورا محوريا في تحول تاريخ الحكم بالمغرب خلال العصر الحديث من تناوب العصبية الثلاثية: الصنهاجية، فالمصمودية والزناطية إلى العودة إلى الأسر الشريفة التي حظيت بالبيعة من طرف المغاربة على عهد الأدارسة في البداية، ثم السعديين وتوحيجا بالأشراف العلويين. فمنذ منتصف القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي، انتشر صيت الشرفاء العلويين السجلماسيين كأسرة عالمة حافظة للدين وعلمه الشرعي، مما جعل ملوك بني مرين يتوددون إليهم ويعتمدون رأيهم في ضبط أنساب أشراف المغرب. وأعطت هذه الخطوة لشرفاء سجلماسية قوة معنوية على مستوى الأصل النسبي، فضلا عن الأساس المعرفي العلمي والديني والروحي.

يرجع أغلب النسابة أصل الأشراف العلويين إما إلى جدهم الأكبر مولاي الحسن بن القاسم الملقب بـ "الداخل" فيُطلق عليهم إذن الشرفاء الحسينيين، وإما إلى زعيمهم الروحي والمجاهد مولاي علي الشريف الأكبر "دفين مدينة الريصاني"، وبهذا سُموا بالشرفاء العلويين. ويُضاف إلى هذين الاسمين الأصليين اسمان فرعيان هما: السجلماسيين والفيلايين نسبة إلى منطلقهم ومهد دولتهم السعيدة: "سجلماسية أو تافيلالت".

في هذه الورقة سأحاول أن أقدم لمحة تاريخية عن ظروف وصول الشرفاء العلويين إلى منطقة سجلماسية وكيف استقروا بها وكيف انطلقوا منها لتأسيس دولتهم الميمونة وكيف تسلسلت ذريتهم وتفرعت في باقي مناطق المغرب، وذلك اعتمادا على مصادر مغربية صرفة أهمها "الجوهر الشفاف" لأحمد بن العربي بن عبد السلام دفين طيبة، و"الجيش العرمم" لأكنسوس المراكشي، و"الدرر البهية" لإدريس الفضيلي و"الأنوار الحسنية" لأحمد بن عبد العزيز العلوي.

1. مولاي الحسن بن القاسم:

في منتصف القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي، ذهب جماعة من أعيان سجلماسة تحت رئاسة أبي إبراهيم العمري إلى بلدة ينبع النخيل ببلاد الحجاز بعد أداء فريضة الحج قصد استخدام أحد الأشراف العلويين للاستعانة به في فض الصراعات السياسية والقبلية وفي إيجاد بعض الحلول للأزمات الاقتصادية التي تعاني منها المنطقة. فوقع اختيارهم على مولاي الحسن بن القاسم المعروف بالقادم أو بالداخل والذي وصل إلى منطقة سجلماسة حوالي سنة 664 هجرية 1265 ميلادية وتوفي بها قدس الله روحه سنة 678 هجرية / 1279 ميلادية، حيث دفن بالمكان المسمى المصلح، وسط واحة تافيلالت. وبفضل نبلة ونسبه وعلمه، أُستقبل الشريف العلوي بحفاوة من طرف السجلماسيين، ورضوه أن يستقر بين ظهرانهم، فكان يقوم بإصلاح ذات البين بين القبائل المتصارعة وعمل على استصلاح أشجار النخيل.

هذا وقد ترك مولاي الحسن من بعده ذرية اشتهر منها مولاي علي الشريف بن الحسن بن محمد بن الحسن بن القاسم، والذي تنتسب إليه الدولة العلوية الحاكمة. ووصل مولاي الحسن إلى سجلماسة في ظرفية كان المغرب يعرف فيها تنامي مد النسب الشريف من جهة، وتراجع النفوذ الإسلامي بالأندلس بعد معركة العقاب من جهة ثانية، وبتوافد قبائل بني معقل على سجلماسة ومحاولتها الهيمنة على هذه المنطقة من جهة ثالثة، مما نتج عنه صراعات قبلية فضلا عن أزمات اقتصادية بسبب تراجع تجارة القوافل وتكرار الأوبئة والجفاف.

كل هذه الظروف ساهمت في تبوء مولاي الحسن الشريف مكانة متميزة في أوساط السجلماسيين، في البداية وعند كل المغاربة مع ذريته الصالحة من بعده والتي أجمع الكل على مبايعتها وأثنى على مجهوداتها العظيمة في توحيد المغرب وضمان استقلاله وتقديمه بين الأمم منذ أن وطئت أقدامهم الكريمة هذه الأرض الطيبة. فما هي الأوضاع العامة التي كانت سائدة في العالم الإسلامي وخاصة في جناحه الغربي عند قدوم مولاي الحسن الداخل؟ وما هي الحيشات التي دفعت أهل تافيلالت إلى استخدام مولاي الحسن من الحجاز وكيف احتضنوه وعاشروه؟

أ. الأوضاع العامة بالمغرب غداة ظهور الأشراف العلويين:

شهد الغرب الإسلامي خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي انقسامًا سياسيًا جديدًا، تخض عنه ظهور ثلاث دويلات مستقلة كنتيجة لسقوط دولة الموحدين، وهي دولة بني

مرين بفاس ودولة بني زيان بتلمسان، ودولة بني حفص بإفريقية. فقد كانت دولة الموحدين قوية مترامية الأطراف¹، واستطاعت أن تحافظ على استمرارية وحدة تراثها الممتد من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا والبحر الأبيض المتوسط والأندلس شمالا إلى الصحراء جنوبا، تحت نظام إداري مركزي محكم. وكانت الدولة الموحدية تمثل قوة سياسية فاعلة وقوة عسكرية ضاربة في غرب البحر المتوسط، في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي يعاني من وطأة الحروب الصليبية المدمرة، والهجوم المغولي الكاسح، والاسترداد الإسباني المطرد للأندلس. فقد كان الموحدون في ذلك الوقت حماة دار الإسلام في بلاد المغرب والأندلس، وساهموا في رد العدوان الصليبي على بيت المقدس، إلى جانب إخوانهم في الدين من أهل المشرق بجيوشهم البرية، وأساطيلهم البحرية، إلا أنه في مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، بدأت الأوضاع تتغير على ساحة الغرب الإسلامي ولاسيما بعد هزيمة القوات الموحدية في معركة العقاب المشؤومة² في الأندلس سنة 609هـ/ 1212م حيث اعتبرت هذه الهزيمة بمثابة بداية النهاية الحقيقية للوجود الإسلامي في الأندلس، فازدادت هجمات الممالك النصرانية على دولة الموحدين بعد ذلك، أراغون من الشرق، وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب، وفشل الموحدين في صد تلك الهجمات³.

ثم تلتها أزمة أخرى وهي الثورة التي قام بها بنو غانية⁴، فضلا عن الحروب التي كانت تشب بين بني مرين والموحدين، خاصة منها هزيمة 612هـ/ 1215م، وكانت هذه الهزائم المتتالية للموحدين سببا في ضعفهم، وضياع هيبتهم. ولقد شكلت وفاة محمد الناصر بداية انهيار البيت الموحي، وأيضا نهاية عصر القوة والعظمة وبداية العصر الثاني، وهو عصر التفرقة والانحلال والتنافس على

1 - الطمار، محمد بن عمرو: تلمسان عبر العصور، ودورها في سياسة وحضارة الجزائر. تلمسان، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1984م، (ص 79).

2 - دارت هذه المعركة بين الموحدين بقيادة محمد الناصر الموحي، وبين الجيش المسيحي الإسباني بقيادة ألفونسو الثامن بموضع يعرف في المصادر العربية باسم العقاب نسبة إلى حصن قديم ينسب إلى الأمويين وفي المصادر الإسبانية las navas de tolosa الذي يعني الوديان الفسيحة وقد وقعت في أحد الوديان وانتهت بانتصار الإسبان، [ابن أبي زرع، علي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، (ص 238-239).]

3 - بلعربي، خالد: الدولة الزيانية في عهد يغمراسن بن زيان، دراسة تاريخية وحضارية، 633-681هـ/ 1235-1282م. تلمسان، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الطبعة الأولى، 1426هـ/ 2005م، (ص 39-40).

4 - ينسبهم المؤرخون إلى أمهم غانية من العائلة المرابطية الحاكمة، امتلكوا جزر البليار شرق الأندلس واستقلوا بها، ثم أنكروا ولاءهم للموحدين، فغزوا بجاية ومليانة وقلعة بني حماد وقسنطينة. [المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق خليل عمران المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998، ص 189]

عرش الخلافة. فعقب وفاته خلفه ابنه أبو يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر سنة 610هـ/1213م، حيث تولى الحكم وعمره 16 سنة فكان بعيدا على أمور الإدارة، وميالا للهو، فبدأ الأشياخ يستعيدون سلطانهم، فظهر خلل الإدارة الموحدية وكثر عصيان القبائل وخروج زعمائها عن طاعة الموحدين. ولما توفي الخليفة الموحي سنة 620هـ/1221م بويغ من بعده عدة خلفاء أشهرهم المأمون بن منصور الذي وقعت في عهده حوادث كثيرة أدت إلى ظهور ثلاث دويلات منفصلة في الغرب الإسلامي⁵، فقد برز الحفصيون بزعامة أبي حفص شيخ قبيلة هنتاتة وأسسوا دولتهم في الجزء الشرقي للدولة وجعلوا عاصمتهم تونس 625هـ/1227م. وكان بنو حفص الممثلون الحقيقيون للتقاليد التي سارت عليها دولة الموحدين⁶. وتمكن بنو عبد الواد من تأسيس دولتهم سنة 633هـ/1235م وجعلوا عاصمتهم تلمسان، كما استطاع المرينيون من القضاء على ما تبقى من نفوذ الموحدين نهائيا سنة 688هـ/1289م وتأسيس دولة لهم كانت حاضرتها فاس⁷ وهي أقوى الدول الثلاث عرفت رقعتها اتساعا كبيرا في عهد السلطان أبي الحسن منذ توليه الحكم سنة 731هـ/1331م.

■ الصراع بين بني زيان وبني مرين:

بدأ الصراع الزياني المريني حينما وقف يغمراسن موقفا مساعدا للموحدين في حربهم ضد المرينيين، وحين استشعر أبو بكر بن عبد الحق المريني خطورة هذا التحالف، خرج في حملة عسكرية من فاس سنة 647هـ/1249م، والتقى الجمعان بوادي إسلي، فدارت بينهما معارك كبيرة انتهت بهزيمة السلطان يغمراسن.

وفي منتصف محرم سنة 666هـ/شتنبر 1267م تخلى الخليفة المريني أبو يوسف يعقوب عن حصار مراكش واتجه إلى العاصمة فاس، فنهض بجيشه واخترق ممر تازة والتقى الجمعان عند وادي تلاغ⁸، وهناك دارت المعركة بتاريخ 12 جمادى الثانية 666هـ/28 فبراير 1268م، حيث هلك فيها ولي عهد

5 - ابن الأحرر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان. تحقيق هاني سلامة، بيروت، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م، (ص10)

6 - ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد: المقدمة، تحقيق أحمد الزعبي، بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، 1972م، (ص13).

7 - ابن الأحرر: المصدر السابق، (ص10).

8 - بلعربي، خالد: المرجع السابق، (ص110-111).

يغمراسن عمر وهو أكبر أولاده⁹، فخضع يغمراسن إلى بني مرين. فصمم السلطان المريني القضاء على ما تبقى من دولة الموحدين في مراكش، قبل أن يتجه للقضاء على بني عبد الواد وضم عاصمتهم تلمسان إلى ملكه، ولكنه فوجئ بوفد من بني الأحمر يستصرخه أن أمر الإسلام بالأندلس أصبح في خطر، فمال ومن معه إلى الاستجابة لنداء الجهاد، مع ضرورة مصالحة يغمراسن بن زيان ليؤمن جانبه، فأرسل إليه وفداً ليلغيه بالجهاد في الأندلس، ولكن يغمراسن رفض وقال إنه لن يصلح المرينيين أبداً، بعد أن قتل ولده أبا حفص عمر¹⁰.

ولما بلغ الخبر السلطان المريني، حشد قوات جرارة وأحس بالإهانة وجرح الكبرياء، فخرج لقتال يغمراسن والتقى الجيشان في وادي إسلي، وكانت الهزيمة مرة أخرى في جانب يغمراسن وحاصر يعقوب بن عبد الحق تلمسان. وأمام هذه الهزائم التي لحقت بيغمراسن من قبل المرينيين، أوصى ابنه وولي عهده أبي سعيد عثمان بعدم التعرض لبني مرين، وإبرام المعاهدات السلمية معهم¹¹، وطال حصار يعقوب بن عبد الحق لتلمسان دون أن ينال منها فقرر رفع الحصار، وعادت الجيوش المرينية إلى فاس¹².

■ اختلال التوازن الاقتصادي والاجتماعي بالمغرب:

تأزم الوضع الاقتصادي ببلاد المغرب في الربع الأخير من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، نتيجة توالي المجاعات والجفاف. وسجلت المصادر تعاقب سنوات الجفاف ما بين سنة 686 وسنة 690هـ/ 1285-1291م، وفي سنة 693هـ/ 1294م، عمت المجاعة الشديدة والوباء العظيم المغرب وإفريقية ومصر وهلك من جراء ذلك خلق كثير¹³.

وكان لموجة الجفاف التي اجتاحت المغرب الأقصى في مدة حكم أبي سعيد عثمان المريني في أوائل القرن الثامن للهجرة أثر كبير، إذ ذكر ابن أبي زرع أن البلاد عرفت تضرراً كبيراً وهلك الناس والدواب والمواشي والبقر والغنم والخيل والإبل والدواوير بفعل تلك الكوارث¹⁴.

9 - مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته. القاهرة، العصر الحديث للنشر والتوزيع، الجزء 2، الطبعة الأولى، 1992م، (ص 125).

10 - ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف: المصدر السابق، (ص 19).

11 - بلعربي، خالد: المرجع السابق، (ص 114-115).

12 - ابن الأحمر: المصدر السابق، (ص 24).

13 - ابن أبي زرع، علي الفاسي: المصدر السابق، (ص 408-409).

14 - نفسه، (ص 413).

هذا فضلا عن التعقيدات التي بدأت تعرفها التجارة الصحراوية، بسبب تحكم عرب المعقل في مسالكها الجنوبية الغربية ونهبهم للقوافل المارة بمجالاتهم وما ترتب عن ذلك أيضاً من انحراف الطرق في جهات متعددة وخصوصاً ما حصل من تغير وتحول في طرق الملاحة التجارية العالمية في القرن السادس عشر الميلادي، حيث بدأت الجهات الأطلسية الغربية تتأثر بالملاحة العالمية التي أحدثتها الكشوف الجغرافية وكانت الملاحة البرتغالية تتحكم فيها تحكماً كبيراً¹⁵.

وقد كان للوضعية الاقتصادية الصعبة أثرها الكبير في اضطراب المجتمع المغربي وانتشار كبير لشيوخ الزوايا وطرق التصوف وانقسام كبير للمغرب إلى جهات مختلفة ومتصارعة، بالإضافة إلى ما عاشه المغرب من تحركات وحروب قبلية وتحالفات كبرى متنافسة فيما بينها وانعزالاً لعدة أجناس بشرية في المناطق المغربية، وانفصام في البنية الاجتماعية القبلية، وتشتيت لواقع السلطة المغربية، شكلت قبائل عرب المعقل وبعض قبائل بني هلال القوة العصبية التي كان بإمكانها منافسة قبائل بني مرين على السلطة بالمغرب الأقصى، لأن هاتين المجموعتين القبليتين كانتا من أوفر قبائل المغرب عدداً وقتئذ واحتكتا بمجال واحد ابتداء من منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، حيث هيمنت القبائل المعقلية على مدن وبوادي المناطق الجنوبية، لكنها لم تخضع لزعامة موحدة¹⁶.

وقد صادف كل هذا بداية نهاية عصر القوة المرينية التي وطدت في المجتمع المغربي مظاهر الحياة الدينية الروحية التي استمرت بعد ذلك في المغرب، فكان الوضع منذ بداية بني مرين يتجه نحو تركيز نظم وطبائع التصوف السني المغربي. ولعل أهم مظهر ديني في هذه الفترة يتجلى في ترسيم الاحتفال بعيد المولد النبوي الذي بدأ الاحتفال به في سبتة مع العزفيين حوالي 691هـ/1292م في أيام أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني. وقد عمل فقهاء المغرب ورجال التصوف على إعطاء موعد الاحتفال بالمولد النبوي صبغة وطبيعة رسمية تأخذ أبعادها في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول كل سنة هجرية.

15 - حافظي علوي، حسن: سجل مائة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف، 1418هـ/1997م، (ص 235).

16 - حافظي علوي، حسن: المرجع السابق، (ص 201).

ب. سجللماسة غداة وصول مولاي الحسن الداخل:

• الوضعية العامة:

كانت منطقة سجللماسة في القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي مسرحاً لأحداث واضطرابات قبلية نتيجة الصراع الذي كان قائماً بين التجمعات العربية المهاجرة من بني معقل والقبائل المستوطنة قديماً ومنها قبائل صنهاجة وزناتة.

وعملت سجللماسة على رفض مبايعة الموحدين تحت قيادة عبد الله بن زكرياء الهزرجي الذي أرغم السعيد الموحدي على الخروج إليه من مراکش¹⁷ لما استبد فيها أمره وانقاد له أهل تلك الجهات والأنحاء ووصلته العرب من جهة الصحراء وفوض له الأمور في تلك الجهات الأمير أبو زكرياء الحفصي وأطمعه في استمداده بأموال زائدة ودعا له في الخطبة بسجللماسة¹⁸. ورافق هذا الوضع الذي انفلت فيه الأمن في سجللماسة ونواحيها أن اتجهت قبائل المعقل وكذلك قبائل صنهاجة وزناتة إلى المدينة ونواحيها وأخذ الجميع يتنافس على السيطرة والتحكم في المنطقة. وبدأ الوضع يتجه نحو خلق ميدان للصراع والتنافس والتحكم والقوة، إلا أن القبائل المعقلية هي أقوى التجمعات البشرية التي أخذت تسيطر على المدينة¹⁹. وقد استطاعت هذه القبائل التحكم في الشبكة الطرقية الواصلة بين شمال الصحراء وجنوبها، كما سيطرت على طريق الحج، وصار بذلك أمير ركب الحجيج من نصيبها، واشتهر في هذه الظروف أبو إبراهيم العمري السجلماسي وهو الذي كان له الشرف على استقدام شريف ينبع النخيل من الحجاز إلى سجللماسة.

وصادفت هذه الأوضاع القلقة التي عرفت سجللماسة في أواخر الموحدين واقعاً مؤلماً من التشردم والانقسام الذي أصاب المغرب الأقصى في جنوبه ووحداته، وهو الذي حمل القيادات المتحكمة في المدينة للبحث عن مخرج من الأزمة التي أثرت في الاقتصاد التجاري وحركة القوافل مع إفريقيا جنوب الصحراء، فأدى ذلك إلى تحالفات قبلية وتنظيمات اقتصادية جديدة والإقرار بضرورة الرجوع إلى وسيط لحل الخلافات وإعطاء عملية التحكيم قوة شرعية ودينية واجتماعية.

17 - حافظي علوي، حسن: المرجع السابق، (ص 193).

18 - المراكشي، ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين. الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985م، (ص 363).

19 - جوليان، شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية. تعريب البشير بن سلامة ومحمد مزالي، تونس، الدار التونسية للنشر، الجزء الثاني، (ص 78).

وشجع الوضع على تعميق هذا المفهوم ما كان يسود في البلاد من انتفاضات متعددة مثل حركة يحيى القطراني حوالي 656هـ/1258م وما جاء بعدها من مراحل الانقسام والاضطراب بين القبائل وزعماء التنافس من أجل السيطرة على سجلماسة منفذ الحركة التجارية الصحراوية. كما كان للصراع المريني- الزياني على سجلماسة الأثر الكبير على مجرى الأحداث في المدينة، حيث أدت الأوضاع إلى توالي الحروب التي كان لها الأثر الكبير في تخريب المدينة، وخاصة حرب سنة 672هـ/1273م التي حشد فيها السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق جيوشه لاسترجاع سجلماسة من يد بني عبد الواد وعرب المنبات المتحالفين معهم، واستعمل في حصاره على المدينة قوة عسكرية كبيرة: "من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة"²⁰، واستمرت القوات المرينية في حصار سجلماسة "إلى أن هتك المنجنيق من سور لها برج ومسافة، فانهذ البرج والمسافة، فدخلها من هنالك عنوة بالسيف"²¹. وبذلك تمكن المرينيون من فتح سجلماسة في 3 ربيع الأول 673هـ/1274م بعد سنة كاملة من الحصار²².

ابتداء من هذا التاريخ دخلت مدينة سجلماسة في أزمة عمرانية شاملة، فالرحلة المرينية أعطت أحداثاً تلاحت فيها تدخلات الدولة من أجل السيطرة عليها والتحكم فيها ومن أجل فرض النفوذ على القبائل المتنافسة على طرق المدينة ومنافذها²³. وقد تقوت في هذه المرحلة قبائل بني معقل التي فرضت سيطرتها على منافذ الطريق إلى سجلماسة، وبالرغم من تعدد بطون عرب المعقل التي دخلت المغرب، فإن الزعامة بالمنطقة كانت تعود لأولاد الحسين والأحلاف وهم من بطون ذوي منصور²⁴، وهي من أكثر البطون تأثيراً في أحداث المغرب السياسية ابتداء من أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وقد أصبحت تافيلالت منذ هذا التاريخ خاضعة لتوجيههم ونفوذهم، لأنهم كانوا العناصر الحيوية بمجالاتهم، و"كانت بينهم فتنة، وتجمعهم العصبية في فتنة من سواهم"²⁵.

20 - ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت، دار الكتاب، 1981م، الجزء 7 (ص 249).

21 - ابن أبي زرع: المصدر السابق، (ص 312).

22 - نفسه، (ص 312).

23 - ابن أبي زرع: المصدر السابق، (ص 312-315).

24 - ابن منصور، عبد الوهاب: قبائل المغرب. الرباط، المطبعة الملكية، 1388هـ/1968م، الجزء الأول، (ص 425).

25 - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، الجزء السادس، (ص 89).

وقد أثر نزاع هذه الزعامات بشكل كبير على أوضاع المنطقة التي كانت مسرحاً للعديد من المواجهات العسكرية والتناحرات القبلية تكبدت فيها مدينة سجلماسة العديد من الخسائر جراء الحصار الذي كان يُضرب عليها بين الفينة والأخرى، ابتداء من حصار سنة 672هـ/1273م وما تلاه من ذلك من السنين والانتفاضات الداخلية، مما استدعى استقدام الشريف مولاي الحسن بن القاسم قصد تحقيق الحكامة في المدينة وإصلاح ذات البين بين القبائل المتصارعة.

وكانت تحركات الأمراء المرينيين عاملاً قوياً في إعطاء القوة القبلية العربية المعقلية والزنازية دعماً كبيراً لحركة الاستقرار والانتشار في المنطقة وتوسعاً في أشكال الزراعة وعملية استصلاح الأراضي ونشأة قصور السكن وغرس النخيل والمزروعات، وكذلك إعادة ترتيب نظام التجارة مع إفريقيا جنوب الصحراء، وهذا ما أنعش الحياة الاقتصادية بقوة وطورها إلى إنتاج قابل للتصدير بالقوافل في المناطق الصحراوية. فصارت بذلك سجلماسة مركزاً اقتصادياً واجتماعياً نتيجة لهذا التحول الجديد الذي وقع في المنطقة ولا يطره إلا الأمن الداخلي، ومن ذلك ما تحقق في أيام أبي علي عمر المريني المستقل بسجلماسة حوالي 714هـ/1315م²⁶، حيث جعل منها عاصمة للجنوب المغربي وسعى للتحكم في أكبر رقعة ممكنة من مجال النفوذ المريني، فتوجهت أول حملاته نحو قصور الصحراء الواقعة إلى الجنوب من سجلماسة.

واستطاع أمير سجلماسة التحكم في هذه المناطق الصحراوية التي تضم قصور توات وتيكورارين وتمنطيت ووادي الساورة دون صعوبة، ويرجع السبب في ذلك إلى كونها كانت مأهولة من طرف أولاد حسين من عرب المعقل، الذين لم يستطيعوا الظعن والارتحال صحبة ذوي منصور، فاستقروا بقصور الصحراء التي اختطتها زناتة قبل زحفها نحو مناطق الشمال في حوض وادي زيز ودرعة. ولعل ذلك هو أحد الأسباب القوية التي حملت القوى الاجتماعية البصيرة بأمور المدينة وخلافاتها المحلية، على استقدام الأشراف الحسنيين من ينبع النخيل والالتفاف حولهم والارتباط بهم، وهذا ما يرجح أن يكون وصول مولاي الحسن إلى المدينة في الربع الأخير من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

26 - ابن أبي زرع: المصدر السابق، (ص 399).

• مولاي الحسن الداخل بسجلهامة:

استطاع أبو إبراهيم العمري، أمير ركب الحجيج المغربي على ما له من مكانة اجتماعية ودينية²⁷ في سجلهامة أن يقنع وفد الركب وأسر الشرفاء الحسنيين الينبعين بمن فيهم والده وأقاربه باستصحاب الحسن بن القاسم إلى سجلهامة. وفعلاً عمل أمير ركب الحجيج أبو إبراهيم العمري على ترتيب الإقامة والحياة الجديدة لهذا الشريف الحسني الذي جاء معه من المشرق إلى المغرب ومهد له المقام. وقد اختلفت المصادر في عمر الشريف الذي كان عليه أثناء وفوده إلى سجلهامة، والأغلب على الظن أن سنه كانت لا تتجاوز مرحلة الكهولة، أي حوالي ستين سنة حسب رواية كتب الأنساب المعروفة في المغرب. ويشير النسابون إلى أن مكان إقامة الحسنيين في الينبع هو مدشر "بني إبراهيم" الذي كانت تقيم فيه أسرة القاسم والد الحسن. وبمجرد ما وصل مولاي الحسن إلى سجلهامة تعهد أبو إبراهيم برعاية الشريف الحسني، فعين مكان إقامته ودار نُزله وزوجه من بنات وكريبات الأسر السجلهامية، حيث رشح له مصاهرة الأسر الآتية: أولاد المزارى، وأولاد المغراوي، وأولاد البشير، وأولاد ابن عاقل، وأولاد المعتصم، فاختار لمصاهرته أولاد المزارى (المنزاري) لمروءتهم وديانتهم ووسطتهم في عشائهم، امتثالاً لقول جده طيب الأغراس خولوا أولادكم إن العرق دساس²⁸. فأنجبت منه زوجته السيدة المنزارية السجلهامية ولده محمد الذي انحدرت منه سلالته الشريفة التي تعرف بأسرة الشرفاء السجلهاسيين نسبة إلى مدينة سجلهامة²⁹.

وتذكر المصادر التاريخية أن سبب إتيان أهل سجلهامة بمولاي الحسن بن القاسم إلى هذه البلاد أن ركائب الحج المغربية كانت تتوارد على الأشراف في الحجاز، وكان أمير الركب المغربي إذ ذاك من أهل سجلهامة يدعى أبو إبراهيم العمري³⁰، فلما حج في بعض السنين اجتمع هناك بشريف ينبع النخيل مولاي القاسم بن محمد، وكان من أكبر شرفاء الحجاز في وقته ديانة ووجاهة، فطلب منه أمير الركب المذكور أن يبعث معه أحد أولاده الثانية إلى المغرب تكريماً وتشريفاً لهم³¹. "فلا زال

27 - الفضيلي، مولاي إدريس: الدرر البهية والجواهر النبوية، مراجعة ومقابلة، أحمد بن المهدي العلوي، ومصطفى بن أحمد العلوي، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1420هـ/1999م، الجزء الأول، (ص 83).

28 - العلوي، أحمد بن عبد العزيز: الأنوار الحسنية، الرباط، مطبعة وزارة الأنباء، 1966م، (ص 26).

29 - الإفرائي، محمد الصغير: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي. تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1998م، (ص 409-413).

30 - الريني، عبد الكريم بن موسى: زهر الأكم، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، الجديدة، مطبعة المعارف، 1992م، (ص 101).

31 - الزياتي، أبو القاسم: البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، الريصاني، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الطبعة الأولى، 1992م، (ص 29-30).

يحسن له بلاد المغرب، ويستميله بما يسر ويطرب"³² إلى أن استجاب الشريف لطلب الوفد المغربي. وقبل اتخاذ القرار الحاسم اختبر أولاده واحدا واحدا ليرى من يليق بهذه المهمة النبيلة، وفي هذا الصدد يذكر الإفرائي أن مولاي القاسم "كان يسأل منهم الواحد بعد الواحد ويقول له، من فعل معك الخير، ما تفعل معه؟ فيقول: أفعل معه الخير فيقول: ومن فعل معك الشر؟ فيقول له: أفعل معه الشر فيقول له: اجلس، إلى أن بلغ مولانا الحسن الداخل، فقال له: ومن فعل معك الشر؟ فقال له: أفعل معه الخير، قال: فيرد ذلك بالشر، فيقول له: أعود له بالخير إلى أن يغلب خيري على شره. فاستنار وجه مولانا القاسم وتهلل فرحا به، ودخلته أريج هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفي عقبه. فأجاب الله دعوته"³³. وهكذا استجاب شريف ينبع النخيل لطلب وفد الحاج السجلماسي، واختار ابنه مولاي الحسن لمرافقة الحجاج المغاربة الذين عرفوا بحبهم وتعظيمهم وتمجيدهم لآل البيت النبوي الشريف..

وأشار ابن خلدون إلى تاريخ الأشراف الحسنيين بالينبع قائلا: "كان بنو الحسن، كلهم موطنين بنهر العلقمية من وادي ينبع، لعهد إمارة الهواشم بمكة، وكانوا ظواعن بادية، ولما نشأ فيهم قتادة هذا، جمع قومه ذوي مطاعن وأركبهم واستبد بإمارتهم وكان بوادي ينبع بنو حراب من ولد عبد الله بن الحسن بن الحسن، وبنو عيسى بن سليمان"³⁴. ويذكر صاحب "الدرر البهية" أن مقر سكنى الحسن الداخل من ينبع كان بمدشر بني إبراهيم تحديداً وتدقيقاً وهو من انفصلت عليه كتب الأنساب التي جاءت في المراحل المتقدمة والمتأخرة"³⁵. ويذكر المقرئ في كتابه (كنز الأسرار): "وأهل سجلماسة من وادي إفلي من أخنوس، هبط جدهم من الينبع في آخر القرن السابع وله ذرية كثيرة أصلحهم الله..."³⁶.

ويقول مؤلف الجوهر الشفاف: "فقد جاء من الينبع مولانا الحسن بن قاسم واستقر بزاوية ضريحه السيد أبو إبراهيم، فأزال الله عن القوم أسقام الإبراء وصلح نزلا بلاد غلاتها وشجرها وزرعها واستبشرت العرب والأعاجم وخصبت الأرض وصلحت البهائم. فلما توفي رحمه الله جاء

32 - الفضيلي: المصدر السابق، (ص 82).

33 - الإفرائي: المصدر السابق، (ص 413).

34 - المقرئ، أبو عبد الله أحمد: كتاب الأنوار وكنز الأسرار في نسب آل النبي المختار، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم: 76.

35 - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، الجزء الرابع، (ص 5).

36 - الفضيلي: المصدر السابق، الجزء الأول، (ص 85).

أهل سجلماسة بحذافيرهم يشرفهم ودانت حربهم، كل قبيلة تريد دفنه في أرضها فتفاقم الأمر على الشيخ أبي إبراهيم وسمح لهم، فتنازعوا فيما بينهم فقال لهم إن كان قصدكم البركة فادفنيه وسط سجلماسة لتعم بركته جميعها، فتهاذنوا وتراضوا على أن أخرجوا أمنا لكيل الأرض وهو نفعا الله به ورج في الأكفان فدفنوه حيث ضريحه الآن بالحذب لتوسطه وخيموا على ضريحه أياما ومددا مديدة وشهورا عديدة. وقد خلف ولدا واحدا وهو سيدي محمد إلى أن تأهل وتوفي رحمه الله بقرب ضريحه ودفن السبعة الصالحين المعروفين بالحرارين وخلف سيدي محمد هذا ولدا واحدا أيضا وهو مولانا الحسن فلما كبر وتأهل اشترى دورا بالمدينة قرب الزعفران ونال بهذه المدينة ثروة عظيمة هرعت إليه النفوس الكريمة والآثمة.. وكثرت على مولانا الحسن وفود العباد واشتهرت بركاته عند الحاضر والبادي وكان مجاب الدعوة كثير الاعتكاف بالخلوة. فلما توفي مولانا الحسن هذا خلف فرعين اثنين مولانا عبد الرحمن المكنى بأبي البركات والولد الأبر الأشهر بمولاي علي المدعو بالشريف...³⁷

وأقام الشريف مولاي الحسن بن القاسم بسجلماسة معززا مكرما، ولكنه لم يباشر أي سلطة تحقق له الوجود السياسي، بل كان يشكل قوة اجتماعية قائمة وملتصقة بنسبه وأصهاره، فإليه يرد الأمر لتسوية الخلافات الطارئة بين الجماعات البشرية والقبلية ذات النفوذ والوجود في سجلماسة. وقد تزامن توطین الأشراف الحسينيين الينبعيين في سجلماسة مع تحسن الأوضاع الاقتصادية وعقد تحالفات بين الزعامات المرينية وبني معقل في سجلماسة، وكذلك مع بني عبد الواد في تلمسان. هذه التوافقات القبلية والسياسية خلقت أحلافاً اجتماعية بين تجمعات قبائل بني معقل وتجمعات القبائل الزناتية الأمازيغية، وكذلك قبائل صنهاجة في الجبال الموالية لإقليم سجلماسة الشيء الذي سيؤدي بعد ذلك مع تطور الأحداث إلى الحلف الأكبر في إقليم تافيلالت وهو حلف "آيت يافلان"³⁸. وأعطت هذه الأوضاع لشرفاء سجلماسة قوة معنوية على مستوى الأصل النسبي، وكذلك الأساس المعرفي العلمي والديني والروحي.

وكان مولاي الحسن الداخل رجلا صالحا ناسكا، له مشاركة في العلوم، ولما توفي رحمه الله سنة 1277م/676هـ، تنازع في دفنه أهل سجلماسة، حتى كادت نار الحرب تشتعل بينهم، فاجتمع رأيهم على

37 - ابن دفين طيبة، العربي بن عبد السلام: الجوهر الشفاف في ذكر من بسجلماسة من الذرية الأشراف والذرة المكنونة في أخبار الدولة الميمونة. مخطوط مستنسخ بمركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني تحت رقم إنجلترا-1.

38 - أبو ضيف، مصطفى: أثر القبائل العربية في المغرب خلال عصري الموحدين وبني مرين، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1982م، (ص 83-100).

أن يكون مدفنه بالمصلح في موضع يتوسط جميع النواحي الأربعة، بحيث لا يكون أقرب لجهة دون أخرى³⁹، ويعرف ضريحه حالياً بضريح سيدي مناع والحسن الداخل⁴⁰.

2. مولاي علي الشريف:

يعتبر مولاي علي الشريف شخصية فذة تألفت في دروب العلم والجهاد والزهد، وشاعت أنوارها أصقاعا مختلفة انطلاقا من ربوع الأندلس إلى تخوم بلاد السودان ومن المحيط إلى الخليج. واعتبارا لأهمية هذه الشخصية المتميزة فقد كان لها الفضل في قيام الدولة العلوية الشريفة التي أعادت للمغرب وحدته واستقراره ومجده، كما أحيت سنة النبي صلى الله عليه وسلم في نشر الإسلام ومحاربة البدع والكفر، كما جددت دين هذه الأمة من خلال التمسك بخلق القرآن والزهد عن الدنيا فضلا عن تعميم نور العلم ومقاومة الجهل. لهذه الأسباب أثرت شخصية هذا الرجل العظيم على معاصريه فكتبوا عنه المؤلفات الكثيرة التي ضاع أغلبها مع الأسف، كما ظلت عالقة بأذهان اللاحقين الذين رابطوا بزوايته العامرة وبضريحه الطاهر، فأحيوا أثره ودعوا له بالمغفرة والثواب.

كانت ولادة القطب الرباني مولاي علي الشريف حوالي سنة 762هـ/1362م، استوطن مدينة سجلماسة حيث اشترى بها دورا قرب الباب المسمى بالزعران ونال بهذه المدينة ثروة عظيمة بفضل التجارة. وكان رجلا صالحا وعالما ومجاهدا استوطن بعض الوقت بحومة جزاء ابن عامر من عدوة القرويين بفاس وكذلك بمدينة صفرو وجاهد بالأندلس عدة مرات، كما عمل على نشر الإسلام بإفريقيا جنوب الصحراء وخاصة بمنطقة "أكديج" وتخرج على يده عدة علماء من المغرب والأندلس والمشرق. توفي سنة 847هـ/1446م عن عمر يناهز 84 عاما ودفن أول الأمر بزوايته "الخلوة" الواقعة بقصبة تغمرت، قبل أن يُنقل جثمانه الطاهر إلى ضريحه الحالي في عهد سيدي محمد بن عبد الله⁴¹.

39 - الإفرائي: المصدر السابق، (ص 414).

40 - ابن دفين طيبة، العربي بن عبد السلام: الجوهر الشفاف في ذكر من بسجلماسة من الذرية الأشراف والذرة المكنونة في أخبار الدولة الميمونة. مخطوط مستنسخ بمركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني تحت رقم إنجلترا-1

41 - تاوشبخت، لحسن: عمران سجلماسة، دراسة تاريخية وأثرية. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزاء 2008م، الجزء الثاني، (ص 577)

1. مولاي علي الشريف من خلال بعض المصادر الغميسة:

لإبراز شخصية مولاي علي الشريف رجعت إلى بعض المخطوطات النادرة مثل "الجوهر الشفاف" لمؤلفه العربي بن عبد السلام بن أحمد المعروف بابن دفين طيبة. ويوجد المخطوط بجامعة أكسفورد بإنجلترا ويرجع تاريخ كتابته إلى عصر السلطان مولاي إسماعيل، وتوجد نسخة منه بمركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني. ومن باب المقارنة والإثراء في سرد بعض التفاصيل مثل: جهاد مولاي علي الشريف بالأندلس، تم الرجوع إلى مخطوط "الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد علي السجلماسي"⁴² لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن أحمد أكنسوس القرشي المراكشي المتوفى عام 1294هـ/1877م.

ويتناول مخطوط الجوهر الشفاف مجموعة من الأحداث التاريخية ابتداء من وصول مولاي الحسن الداخل إلى منطقة تافيلالت خلال العصر المريني وإلى غاية حكم السلطان مولاي إسماعيل. لا نعرف الكثير عن ابن دفين طيبة الذي عاش في صدر الدولة العلوية، فقد ولد أيام مولاي الشريف بن علي حوالي 1063هـ/1652م، ونشأ في أيامه الأولى بين الأمراء العلويين باعتبار قرابة جده "عبد السلام" وأبيه "أحمد" من الأسرة الشريفة. لكن محن الدهر ستحل بالكاتب عند موت مولاي أحمد بن الشريف وتولي أخاه مولاي الرشيد وكذا سفر والده إلى الحج ووفاته بالمدينة المنورة، مما دفع بالمؤلف إلى الهجرة والاستقرار بمدينة فاس حيث اشتكى للمولى إسماعيل حاله وحال أهله من تصرفات مولاي الحران "الخليفة السلطاني بتافيلالت". فأوصى به مولاي إسماعيل خيرا، فرجع إلى بلده تافيلالت حيث اشتغل بصيانة قبور الشرفاء العلويين وناظرا لروضة مولاي علي الشريف وقيما على زاويته. كما عمل في ديوان الكتابة حيث يذكر في الصفحة 201 من المخطوط: "عزمت على جمع عيون تلك الأخبار وتدوين ما تفرق منها على سبيل الاختصار وأذكر مقدمة في سلسلة الأجداد الأولين نظما، وفي الخلفاء التالين مقتطفات من يابسها ورابطها (هكذا) لأكون صاحب قرطاسها وابن حليها". وقد عاش المؤلف إلى غاية سنة 1136هـ/1724م.⁴³

42 - المكتبة الوطنية للمملكة المغربية: المخطوط محفوظ تحت رقم 83/د.

43 - المنوني، محمد: المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس الرباط 1404 هـ/1983 م الجزء الأول (ص 182).

تتجلى أهمية مخطوط "الجوهر الشفاف في ذكر من بسجلها من الذرية الأشراف والذرة المكنونة في أخبار الدولة الميمونة"⁴⁴ في كونه يؤرخ لبداية الدولة العلوية من عصر مولاي الشريف بن علي إلى غاية عهد السلطان مولاي إسماعيل، وهي فترة مهمة من تاريخ المغرب لم تتل حظها من الدراسة كما هو الشأن للفترات السابقة أو اللاحقة. كما أن المخطوط لا يركز فقط على الأحداث التاريخية، بل يتناول أيضا مواضيع مختلفة ومتنوعة تهم الحياة السياسية والاجتماعية فضلا عن ذكر الأنساب والمناقب. كما يتضمن المخطوط مجموعة من الوثائق المهمة منها 12 رسالة، إضافة إلى ذكره لبعض الأخبار التي نجدها في مصادر معاصرة مثل: خبر نزاع أهل سجلها من حول مكان دفن مولاي الحسن الداخل كما جاء عند أكنسوس⁴⁵، أو حديثه عن شخصية السلطان مولاي إسماعيل كما جاء أيضا عند الأسير مويط⁴⁶، أو وصفه لمعركة القاعة التي دارت بين مولاي أحمد ومحمد الحاج الدلائي كما جاء عند الضعيف الرباطي. "وذكر ابن دفين طيبة بعض أخبار هذه الواقعة وأطنب فيها ولكنني اختصرتها.."⁴⁷.

يبدأ المؤلف كتابه بتمجيد آل البيت ويبين منزلتهم عند الله وتبيان صلتهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ويذكر سبب إقدامه على تأليفه هذا الكتاب، ثم يعرض لمجيء مولاي الحسن بن القاسم إلى سجلها من المتاعب التي اعترضت ذريته في بداية استقرارهم. وينفرد المؤلف بذكره تفصيلا وتدقيقا لذرية مولاي علي الشريف وكذا الأماكن التي استقرت بها، كما يعرض في نفس الوقت لبعض كرامات مولاي علي الشريف واستنجاد أهل الأندلس به وعبوره إليهم ثم رجوعه. كما تناول المؤلف الحديث عن مولاي الشريف بن علي وأولاده السلاطين الثلاثة مع إيراد بعض القصص المليئة بالكرامات، كما يقدم المؤلف مجموعة من الرسائل الصادرة عن السلطان مولاي إسماعيل أو

44 - هو عبارة عن نسخة من ميكروفيلم سالب من جامعة أوكسفورد بانجلترا مسجل بمركز الدراسات والبحوث العلوية تحت رقم انجلترا/1 وهو فقط جزء من المخطوط الذي عمل الأستاذ محمد المنصور على استنساخه في إطار بعثة علمية إلى الديار البريطانية موفدا من طرف وزارة الثقافة وفق خطة جمع وتوثيق مصادر تاريخ الدولة العلوية. ويتكون المخطوط في الأصل من 255 ورقة من الحجم الصغير بمقياس 18,5 و14,5 سم مع 28 سطرا مستقيما وكتب بخط مغربي واضح. النسخة المتوفرة بمركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني هي مبتورة بحيث لا تشمل سوى ما بين الورقة 1 والورقة 40 ثم ما بين الورقة 199 والورقة 255.

45 - كنسوس، أبي عبد الله محمد بن أحمد المراكشي: الجيش العرمرم، مصدر سابق، ص: 68.

46 - مركز الدراسات والبحوث العلوية: رحلة الأسير مويط، دراسة وتحقيق محمد حجي والأخضر غزال. الرباط، دار المناهل، 1990م، ص: 75.

47 - الرباطي، الضعيف: تاريخ الدولة السعيدة. الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988م، الجزء الأول، ص: 99.

الواردة إليه ويبلغ عددها اثني عشر، فضلا عن قصيدة شعرية طويلة في تسلسل الشرفاء وأخرى في مدح السلطان مولاي إسماعيل. وفي الختام يرد قصة اتصال أسرته بالعلويين السجلماسيين منذ مولاي علي الشريف وإلى عهد مولاي إسماعيل مذكرا ببعض الخدمات التي قدمها أجداده للعلويين، وكذا تمسكهم بمحبتهم كما يرد عدة أشعار كلها شكوى من خصومه بقصر آبار وأولاد عبد الرفيع من لا يخاف، فضلا عن رسالة في الموضوع نفسه سماها "رسالة الألسنة الماضية في نحور الشذمة الباغية".

ب. الخبر عن مولاي علي الشريف، وعن نسبه:

يقول العربي بن عبد السلام بن أحمد المعروف بابن دفين طيبة: "...فليعلم الواقف عليه من الفضلاء ومن يعزوه من الأعيان النبلاء، ويتبرك به من المؤمنين، ويطلع من الصالحين أن سادتنا وموالينا الشرفاء بسجلماسة من ذرية صاحب العوارف الفاشية، والمناقب السامية، والحج، والغزوات، والأوقاف، والطرق، والعامل لجميع الأعمال الصالحات المتبرك به في الحياة والممات الطود المنيف أبي الحسن مولانا علي الشريف بن مولانا الحسن بن سيدي محمد بن مولانا الحسن بن مولانا قاسم بن سيدي محمد بن مولانا قاسم بن مولانا الحسن بن مولانا علي بن مولانا الحسن بن مولانا سيدي محمد بن مولانا عرفة بن مولانا الحسن بن مولانا أبي بكر بن مولانا علي بن مولانا الحسن بن مولانا أحمد بن مولانا إسماعيل بن مولانا قاسم بن سيدي محمد النفس الزكية بن مولانا عبد الله الكامل بن مولانا الحسن المثنى بن مولانا الحسن السبع بن مولانا علي بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت رسول الله، وعلى الأزواج والذرية والأولاد السلام والرحمات والبركات إلى يوم القضاء..."

ج. استقرار مولاي علي الشريف بسجلماسة:

يقول المؤلف: "خرج مولاي علي الشريف من سجلماسة واشترى أصلا بالمصلح، وبني زاوية تسمى حارة الشريف، وفيها تزايد له ولده الأكبر وهو مولانا الحسن بن علي، ثم جعل زاوية قرب زاوية جنانه المعروف ببرج حمام، ثم اشترى أصولا من أولاد أبي ربيعة بتانجيوت، ثم اشترى أصولا أيضا ببني مداسن، واشترى أيضا أصل علي بن موسى المداسني. فلما اشترى جنان سملال بأرض مداسن تذكره أهل سجلماسة، واشترى أيضا من أولاد مولود التغمراقي أرضا وبني فيها دارا

ومسجدا وخلوة قرب فم القصر. واستلف من أولاد مولود التمر والشعير فاجتمع إلى أهل سجلماسة على أن يقوموا له جميع أصوله ويعطوه ثمنها ويخرجوه عنهم، فشاؤروا في ذلك سيدي محمد بن أبي إبراهيم وابن هلال.. فقالوا: أعطوه قيمة أصوله وأعطونا قيمة أصولنا معه لنخرج معه إلى حيث شاء؛ فإن رحمة الله لا تنزل من السماء على أهل بلد طردوا ذرية رسول الله.

فانقلب أهل سجلماسة كاظمين وبقي مولانا علي الشريف في أصله وزواياه مع من له آمين مطمئنين، فأغروا عليه أولاد مولود من تغمرت يقبضون منه تمرهم الذي استلفه منهم قبل وأضلوا عليه المرأة طيطي المنداسية تقوم بالشفعة في جنان سملال ليظهر لها في بقية الأصول وجه استغلال وترامي الأوباش أولاد البلدي على مواليه بالمناقشة. كما أغروا به أولاد مولود التغمراقي يقبضون منه تمرهم الذي استلفه منهم وذلك عقب السنة ولا توجد غالبا في ذلك الوقت، فتكلم أولاد مولود مع أولاد البركات يقتلونهم ويأخذون أصولهم لأنفسهم. فلما اشتغل رضي الله عنه بفهم خلوته بتجويد القرآن للطلبة وتلقين الأسماء للفقراء، جعل أولاد أبي البركات يحفظون وأولاد مولود طالبين التمر بمناقشة ووجه غضب، فقال أحد الطلبة الحابط الحابط، فقال مولانا علي الشريف رضي الله عنه اللهم إن أولاد أبي البركات وأولاد مولود كما علمت اللهم قلل عددهم. ثم قال: يا أولاد مولود اجمعوا الدواب وأتوا تحملون تمركم فجاءوا بكثرة الدواب ومد الكيل فقال رضي الله عنه سعيأ وأرادوا فضيحتنا بين الناس فأخرج قفة من التمر ثم قال له اجعلها تحت السجادة فمن أوفيته حقه فمزق برنامجي، فما زال أولاد مولود يكتالون حتى استوفوا من ذلك جميع حقوقهم، والتمر تحت السجادة لا تنقص شيئا، فتساقطوا عليه ذكرانا وإناثا يطلبون منه العفو والسماحة. وأما المرأة طيطي فقد وكل عليها وكيلًا ينوب عنه في مخاصمته معها، وتحاكموا عند القاضي السيد بلقاسم قاضي المدينة فلم يزل يؤجل لها حتى بلغ ثلاثة وعشرين أجلا في إرجاء حجتها، فلم تأت بشيء ويسمع منها شرعا، وعجزت بعجزها القاضي فوقع الصلح بينها وبين وكيله على أن أبرت في سملال ولم يقبل لها فيه مقال. وأما الإسميون أصلا أولاد البلدي فقد ابتليت بلوى كل من أضر منهم من الظالمين بمواليه رضي الله عنه فطلبوا عندئذ من مولانا العفو والتجاوز عنهم والمسامحة.. ثم إن مولانا علي الشريف رضي الله عنه قصد بعد ذلك حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه وضريح جده عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وذلك عام 1000هـ " (أي ما يوافق حوالي 1592 ميلادية).

فلما رجع من الحج باع له بني مداسن بقية أصولهم من ربط الحجر إلى الوادي جوار أهل مركونة، فبنى الزاوية المعروفة بالحجر، وبنى قصرا على شاطئ الوادي قبالتها، فسكن فيه عاما واحدا، فلقب أبو عام. وباع له أولاد بن ربيعة بلادهم السريير المعروفة الآن بأدباغ وعربية وأخنوس ثم المدرسة الكبيرة وسوق الحشف قرب قصر أولاد أبي البركات المبنائي. ثم باع له بنو مداسن قصورهم بتاوريرت وأصولهم ما بين تاسقلايت الشرقية وحطحاطة ومن سملال إلى منتهى حرب الواحة، فبنى قرب تاوريرت زاويتين مقربتين، فأسكن فيها ولده السيد الحسن ولد السيدة نجمة الحبشية وبقي رضي الله عنه يتردد في زواياه بالمصلح وتاحسنونت والحاج علي وقصره المعروف بـ "أبو عام" وكان أحب الأماكن عنده تغمرت.. فوجه رضي الله عنه أمواله لشراء الأصول وأكد على وكيله ألا يشتري له إلا في الجهة الشرقية عن مدينة سجلماسة لغلاء الأصل منها ولأن أهل المدينة أهل حاضرة ولهم جنات بالجهة الغربية يسمونها الرياضات ما بين النهرين يجعلون دورا ببساتينهم، فإذا قصدوها صباحا يستديرون الشمس وعند المساء يستديرونها مبيتا، فسوى في هذه الأملاك خلاف الأملاك الشرقية التي تستقبل الشمس صباحا ورواحا.

ويورد صاحب الجيش العرمرم تفاصيل أخرى عن هذا الموضوع حيث يقول: "مولانا علي المعروف بالشريف منه تفرقت وتكاثرت فروع المحمديين وكان رجلا صالحا مجاب الدعوات كثير الأوقاف مجاهدا حاجا ذا هممة سامية وأحوال مرضية. رحل في بعض الأوقات إلى فاس وسكنها مدة طويلة، وكان سكنه بها بالمدينة المعروفة بجزء ابن عامر من عدوة القرويين، وترك هناك دارا وأقام مدة بقرية صفرو وخلف بها عقارات وآثارا هي بها إلى الآن. وأقام مدة ببلد جرس "تيعلالين" على مرحلتين ونصف من سجلماسة وترك بها مثل ذلك".

د. جهاده بالأندلس:

يقول صاحب الجوهر الشفاف: "جاءته هدايا من الأندلس وأرسال رافعين عليه الشكاية من الطاغية عدو الله ألفونسو ومن أيده من أحلاف العرب، فكتب رضي الله عنه لأهل سوس الأدنى والأقصى وقبائل أهل الغرب يأمرهم بالجهاد ويرغبهم في تحصيل ثواب الله عز وجل وواعدتهم طنجة. فلما أحس باجتماعهم ركب مع سيدي محمد بن إبراهيم فوجد بطنجة أقواما لا تعد ولا تحصى والسفن تنتظرهم، فدخل الجزيرة وهزم عدو الله ألفينش ومن معه وأخذ أموالهم وسبائهم، فأخذ

خمسه وقسم على المؤمنين المسلمين أربعة أخماس ذلك ورجع قابلاً لهذه العدو بعد مرة. فلما بلغ طنجة وجد والد السيدة فاطمة العمرانية الجابرية التادلية ثم القيسية جاء بها إليه فبنى بها بطنجة...

ورجع رضي الله عنه بجنوده ومن معه من المؤمنين وعباد الله المسلمين لمحاربة عدو الله الفينش ومن معه من الكافرين والعصاة المجرمين، فكانت الملاقاة بينهم ففل الله حدهم وهزم جيشهم وجندهم ورد في نحورهم كيدهم. وأقام بالجزيرة الأندلسية مع أهل الإيمان والإسلام من أهلها ستة أشهر حتى ملأ قلوب الكفار والعصاة منهم الذعر، فرجع ورجعت جيوش المسلمين والمؤمنين الموحدين من طنجة لبلاده. ولما وصل رضي الله عنه إلى داره ببلدة سجلماسة وطاب بها قراره في عبادة الله تعالى، وفي أثناء ذلك كان أهل الجزيرة الأندلسية يبعثون له أرسالهم يرغبونه في تولية بلادهم وتمليكه عليهم وتبدير أمورهم ورقابهم، فزهد في الأمر. فبقي بسجلماسة، حيث توفي ولده الأكبر مولانا الحسن، فأعطاه خديمه الم رابط الخير الأرضي الأنصاري النسب سيدي محمد بن يحيى المازري بنته السيدة الزهراء وبنى بها وهو ابن ثمانين سنة فولد له منها أبو الفلاح مولانا يوسف...

ويورد أكنسوس معلومات ضافية عن جهاد مولاي علي الشريف بالأندلس فيقول: "... ودخل عدوة جزيرة الأندلس برسم الجهاد مرارا وأقام بها مدة طويلة ثم رجع إلى سجلماسة فكتبه أهل الجزيرة يطلبون منه الرجوع إليهم ويحضونه على الاعتناء بأمور الجهاد ويشكون إليه ضعف الجزيرة وأنها محتاجة إلى من تجتمع عليه القلوب. وقد كانوا راودوه لما كان مقيماً عندهم على أن يملكوه عليهم ويبايعوه والتزموا له الطاعة والنصر، فرغب عن ذلك زهداً وورعاً وغض طرفه عن زهرة الدنيا "الحياة" رضي الله. وقد كتبوا له رسائل عديدة بعث بها إليه علماء غرناطة أعادها الله دار الإسلام يحضونه على الجواز إليهم واستنفار المجاهدين إلى حماية بيضة الإسلام ويذكرون له أن أهل غرناطة من علمائها وصلحائها ورؤسائها وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم دون توظيف سلطان عليهم أموالاً كثيرة برسم الغزاة الواردين معه من المغرب. وحلوه في بعض تلك الرسائل بما نصه "إلى الضرغام الهمام، وقطب دائرة فرسان الإسلام، الشجاع المقدام المصور الفاتك، الوقور الناسك، طليعة جيش الجهاد، وعين أعيان الأنجاد، المؤيد بالفتح في هذه البلاد، المسارع إلى مرضات رب العباد، أبي الحسن مولانا علي الشريف".

وكتبوا إلى علماء فاس يأمرهم أن يحضوا مولانا علياً على العبور إلى العدو، فكتب له أهل فاس بمثل ذلك وحثوه على المسارعة إلى إغاثتهم وذكروا له فضائل الجهاد وأنه من أفضل أعمال

البر. وكان من موجبات تخلفه عن إغاثة أهل غرناطة أنه عزم على الذهاب إلى الحج، فقالوا له في بعض الرسائل عَوِض هذه الوجهة الحجية التي أجمع رأيكم عليها بالعبور إلى الجهاد فإن الجهاد أصلحكم الله عند أهل المغرب أفضل من الحج كما أفتى بذلك أبو الوليد ابن رشد حين سئل عن ذلك وقد بسط الكلام عليه في أجوبته ووجه ما ذهب إليه من ذلك. وكان ممن كتب إليه من علماء غرناطة جماعة منهم الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن سراج قاضي الجماعة، ومن شيوخ فاس الذين كتبوا له أبو عبد الله العكرمي شيخ ابن غازي وأبو العباس أحمد المؤاسي شارح الروضة وأبو زيد عبد الرحمن الرقعي صاحب النظم المشهور وغيرهم... ومما ضمنوه في تلك الرسائل قصيدة طنانة في مدح مولانا علي الشريف وصاحبه الفاضل أبي عبد الله سيدي محمد بن إبراهيم العُمري، وحثوهما على إجابتهما، وهي من إنشاد العلامة أبي فارس ابن الربيع الغرناطي ومن هذه القصيدة هذه الأبيات المعبرة:

أيا راحلا يطوي المفاوز والقفرا	رُشِدت ولقيت السلامة والخيرا
وَأُمُّ ديار الحي من سجلماسة	فتلك ديار تجمّع العز والفخرا
وسلم على تلك الديار وأهلها	سلام مُحِب لِم يطق عنهم صبرا
أبا الحسن مولاي الشريف الذي به على	الغرب شمس النصر أشرق بالصحرا
هو الصقر مهمما هتز كل مجلجل	هَزَبَ إذا ما أنشب الناب والظفرا
هو الغوث إن دارت رحى الحرب للقا	وغيث إذا ما المزن ما أمطرت قطرا
أرى كل من في الغرب أصبح قانطا	وأندلس ترجوا بطلعتكم نصرا
وغرناطة الغراء نادتك أقبل	وبالراية البيضاء تتصر الحمرا
فدونكما الكفار تفنى طغاتهم	وتشبع من قتلائهم الوحش والطيرا
فغوئا رجال الله عوناً لعدوة	أحاطت بها البأساء والشدة الضرا

وبهذه الرسائل العذبة الألفاظ، المستوقفة الألحان، يُعلم أن مولاي علي الشريف كان مشهورا في عصره متقدما على كافة أهل مصره وأنه كان ملحوظا بعين الإجلال عندهم وإن هذه الدار العالية البناء والأسوار معظمة من قديم مشهود لها بالتقدم. ولم يزل رحمه الله تعالى دؤوبا على فعل الخير حريصا على أسباب الطاعة، وقسم عمره بين حج وجهاد ونشر علم.

هـ. ذرية مولاي علي الشريف:

يقول العربي بن عبد السلام: "لم يخلف مولاي علي الشريف إلا ولدين هما أبا الفضل مولاي محمد وأبا الفلاح مولاي يوسف. فخلف أبو الفضل مولاي محمد أربعة أولاد هم: الشقيقان مولاي الحسن ومولاي عبد الله والشقيقان مولاي علي ومولاي قاسم. وخلف أبو الفلاح مولاي يوسف تسعة أولاد خمسة منهم مع زوجته الخليفة من قصر الخلفي بأنبدور من سجلهاسة أشقاء فيما بينهم وهم: مولاي أبي الطيب، ومولاي أحمد، ومولاي عبد الله، ومولاي علي، ومولاي عبد الواحد وهو أبو الغيث. وأربعة منهم مع زوجته الطاهرتية من تانجيوت من سجلهاسة أشقاء فيما بينهم وهم: مولاي الحسن، ومولاي عبد الكبير، ومولاي محمد، ومولاي عبد الرحمن. فمن هؤلاء الثلاثة عشر رجلا تفرعت الأشراف أولاد مولاي علي الشريف ويميز بينهم فيقال فيهم أولاد محمد وأولاد يوسف".

■ أولاد مولاي محمد:

عدد هم أربعة وهم مولاي الحسن وشقيقه مولاي عبد الله ومولاي علي وشقيقه مولاي قاسم:

- مولاي الحسن خلف مولاي محمد الذي خلف مولاي عبد الله ومولاي أحمد، فخلف مولاي عبد الله مولاي الرشيد وخلف مولاي أحمد أربعة رجال هم مولاي محمد المأمون ومولاي عبد الواحد ومولاي الحسن ومولاي عبد الله الذي خلف سبعة رجال هم مولاي الشيخ ومولاي الحفيد ومولاي هاشم ومولاي الرشيد ومولاي محمد ومولاي السعيد ومولاي عبد المؤمن.

- مولاي عبد الله (الشقيق الثاني) خلف مولاي محمد الذي خلف مولاي عبد الكبير الذي خلف ثلاثة أولاد هم مولاي عبد المؤمن ومولاي محمد ومولاي أحمد وخلف مولاي محمد مولاي الحاج ومولاي عبد الرحمن الذي خلف ولدين هما سيدي محمد ومولاي أحمد الذي خلف مولاي الفضيل وذريته بفاس وخلف سيدي محمد بن عبد الرحمن ثلاثة أولاد هم مولاي الغازي ولم يعقب ومولاي أبو فارس وذريته بدرعة والثالث مولاي عبد الله فقد خلف مولاي أحمد الذي خلف ثلاثة أولاد هم مولاي الشيخ ومولاي عبد الله ومولاي محمد. أما مولاي الحاج فقد خلف سيدي محمد الذي خلف تسعة أولاد بالسيف وهم مولاي عبد المالك ومولاي عبد القادر ومولاي عبد الرحمن ومولاي الزوين ومولاي علي ومولاي الشريف ومولاي أحمد ومولاي محمد ومولاي عبد الكريم.

- مولاي علي (الشقيق الثالث) خلف ولدين هما مولاي العربي ومولاي عبد القادر الذي خلف ثلاثة أولاد هم مولاي محمد وشقيقه مولاي عبد المالك من زوجته العيساوية الفيلاية ثم مولاي الفضيل. بينما خلف مولاي العربي ثمانية أولاد خمسة منهم أشقاء هم مولاي عبد المومن ومولاي هاشم ومولاي عبد الله ومولاي الحسن ومولاي عمر ثم ثلاثة أشقاء وهم مولاي قاسم ومولاي الطلحاوي ومولاي محمد وكان له ولد يسمى مولاي أحمد ولم يعقب، ويقال هؤلاء أولاد مولاي علي من أولاد سيدي محمد وهم أهل أبو عام.

- مولاي قاسم (الشقيق الرابع) خلف ولدين هما مولاي محمد ومولاي أحمد الذي ترك ولدا واحدا هو مولاي عمر الذي خلف ولدين هما مولاي محمد السعيد ومولاي أحمد الذي خلف بدوره ثلاثة أولاد هم مولاي هاشم ومولاي عبد الله ومولاي محمد الذي خلف مولاي الحسن ومولاي الرشيد. وأما مولاي محمد بن قاسم بن سيدي محمد بن مولاي علي الشريف فقد خلف ولدين هما مولاي قاسم الصغير ومولاي محمد الذي خلف سيدي محمد الذي خلف سيدي محمد أيضا والذي خلف مولاي إدريس، بينما خلف مولاي قاسم الصغير ثلاثة أولاد هم سيدي محمد ومولاي عبد الله ومولاي علي.

■ أولاد مولاي يوسف:

وهم تسعة أولاد منهم خمسة أشقاء: مولاي علي ومولاي عبد الواحد ويكنى أبي الغيث ومولاي أبو الطيب ومولاي أحمد ومولاي عبد الله، ثم الإخوة الأربعة الأشقاء من زوجته الطاهرية الفيلاية التانجيوتية وهم مولاي الحسن ومولاي عبد الكبير ومولاي محمد ومولاي عبد الرحمن:

- مولاي علي خلف ثلاثة أولاد هم مولاي هاشم ومولاي محرز وهما شقيقان ومولاي محمد السالمية. وخلف مولاي هاشم مولاي الكبير ومولاي الشريف ومولاي أحمد ومولاي علي، وهؤلاء يقال لهم أولاد هاشم بن علي بن يوسف ويقطنون أخنوس والرتب. وخلف مولاي محرز ثلاثة أولاد هم مولاي الطالب ومولاي العربي ومولاي عبد الكريم. وخلف مولاي العربي ثلاثة أولاد هم مولاي عبد الواحد ومولاي محمد ومولاي علي، بينما لم يخلف مولاي الطالب سوى بنتا واحدة تدعى لالة صفية وهؤلاء هم أهل زاوية المراني، ويقطن مولاي عبد الكريم قصر أخنوس. أما مولاي محمد المكنى ولد السالمية فقد خلف مولاي علي الذي خلف عشرة أولاد غير أشقاء منهم مولاي مروان ومولاي المهدي ومولاي محمد السعيد ومولاي مبارك الذي خلف ولدين اثنين هما

مولاي العربي ومولاي الحسن جد مولاي الشيخ بن الحسن والأشقاء منهم مولاي الفضيل ومولاي الحفيد ومولاي الشريف ومولاي بوزكري..

- مولاي عبد الواحد أبي الغيث (الشقيق الثاني) له ستة أولاد هم الشقيقان مولاي هبة ومولاي عبد العزيز الذي خلف ولدين هما مولاي محمد ومولاي عمر. وخلف مولاي محمد بن مولاي عبد العزيز سبعة أولاد منهم ثلاثة أشقاء هم مولاي عبد المالك ومولاي الحسن ومولاي الكبير والأربعة الآخرين هم مولاي عبد الله ومولاي عبد القادر ومولاي العربي ومولاي عبد العزيز الصغير وكلهم بالمصلح إلا مولاي عبد المالك القاطن بأخنوس. وأما مولاي عمر فخلف مولاي محمد ومولاي هاشم ومولاي أكيم ومولاي علي، بينما خلف مولاي هبة مولاي عبد الرحمن ومولاي عبد الله ومولاي عبد الواحد ومولاي هبة الصغير. أما الأخ الثالث مولاي محمد بن عبد الواحد أبي الغيث فله خمسة أولاد منهم الشقيقين مولاي عبد المؤمن ومولاي أبي بكر، ثم مولاي علي وذريته بالرتب ومولاي السعيد ومولاي الطاهر الذي خلف مولاي محمد ومولاي العباس. أما الأخ الرابع فهو مولاي يوسف وذريته بآبار والأخ الخامس هو مولاي البركة والأخ السادس هو مولاي العربي وله ولدين هما مولاي محمد ومولاي عبد العزيز بساقية الحاسي والجميع بأخنوس والبعض بقصبة الحذب، وهؤلاء هم أولاد أبي الغيث.

- مولاي الطيب (الشقيق الثالث) خلف مولاي عمر ومولاي يوسف الذي خلف مولاي محمد الذي خلف مولاي محمد أيضا، بينما خلف مولاي عمر بن أبي الطيب مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز ومولاي عبد الله ومولاي محمد، فخلف مولاي عبد العزيز مولاي محمد وخلف مولاي عبد الله مولاي محمد أيضا.

- مولاي أحمد (الشقيق الرابع) خلف أربعة أبناء هم مولاي يوسف ومولاي عبد القادر ومولاي عبد الهادي ومولاي هلال. فخلف مولاي عبد القادر مولاي محمد وخلف مولاي عبد الهادي مولاي محمد وخلف مولاي هلال مولاي محمد أيضا.

- مولاي عبد الله (الشقيق الخامس) خلف مولاي أحمد ومولاي محمد ومولاي حفيد ومولاي قاسم وهؤلاء هم ذرية أبي الفلاح مولاي يوسف من زوجته الخليفة.

- مولاي الحسن (الشقيق السادس) له أربعة أبناء هم الشقيقان مولاي أبي القاسم ومولاي عبد العزيز ثم الشقيقان مولاي الطاهر ومولاي عمر. فأما مولاي أبو القاسم فله ستة أولاد هم

مولاي محمد ومولاي عبد الرحمن وهما شقيقان لبنت الم رابط محمد بن رحو الدخيسي، ومولاي الحفيد ومولاي أبي زكريا ومولاي عبد الواحد ومولاي إدريس وهؤلاء الأربعة أشقاء من السيدة خديجة بنت مولاي عبد الواحد أبي الغيث. والكل يقال لهم أولاد بلقاسم ويسكنون بملوية ومدغرة. أما مولاي عبد العزيز بن الحسن بن يوسف بن مولاي علي الشريف فترك أربعة أولاد هم مولاي قاسم ومولاي أحمد ومولاي محمد ومولاي عمر وهؤلاء هم أهل تعمرت بمدغرة، أما الشقيقان الآخران فهما مولاي الطاهر بن الحسن ومولاي عمر بن الحسن. وخلف مولاي الطاهر ثلاثة أولاد هم مولاي محمد ومولاي عثمان ومولاي علي الذي خلف خمسة أبناء هم مولاي عبد الله ومولاي عبد الواحد ومولاي عبد الكريم ومولاي أحمد ومولاي محمد الذي خلف بدوره ثلاثة أولاد هم مولاي قاسم ومولاي الحسن ومولاي عبد السلام الذي ترك أيضا ثلاثة أبناء هم مولاي أحمد ومولاي الطاهر ومولاي يوسف. أما مولاي عمر بن الحسن بن يوسف بن مولاي علي الشريف فقد خلف سيدي محمد الذي خلف مولاي عبد المؤمن ومولاي عبد القادر وهؤلاء هم أهل زاوية هموداوود.

- مولاي عبد الكبير (الشقيق السابع) له ثلاثة أولاد هم مولاي المأمون ومولاي أحمد ومولاي السعيد الذي خلف مولاي محمد وهؤلاء بمدينة مراكش.

- مولاي عبد الرحمن (الشقيق الثامن) خلف أربعة أبناء هم مولاي علي ومولاي الشيخ ومولاي عبيد وسيدي محمد، فخلف مولاي عبيد ثلاثة أولاد هم مولاي المأمون ومولاي إدريس ومولاي هاشم. وخلف شقيقه سيدي محمد ولدا واحدا هو مولاي السعيد، وهؤلاء هم أهل زاوية سيدي الحاج علي الشريف.

- مولاي محمد (الشقيق التاسع) ترك أربعة أبناء هم مولاي أبو علي ومولاي عبد الصادق ومولاي يوسف ومولاي السعيد. وخلف مولاي أبو علي أربعة أولاد هم مولاي محمد ومولاي أحمد وسيدي محمد ومولاي هاشم الذي خلف مولاي الشريف، وهؤلاء أولاد سيدي أبو علي يقطنون بصوصو. أما مولاي عبد الصادق بن مولاي محمد بن مولاي يوسف بن مولاي علي الشريف فله ولدين هما مولاي عبد العزيز ومولاي بوزيان الذي خلف مولاي عمر الذي خلف مولاي محمد الذي خلف مولاي أحمد دفين البقيع المشرف، بينما خلف مولاي عبد العزيز بن عبد الصادق مولاي أحمد الذي خلف ثلاثة أبناء هم مولاي العربي ومولاي العلي ومولاي الطيب،

وهؤلاء هم أولاد مولاي عبد الصادق بصوصو والرتب. أما مولاي يوسف بن محمد بن يوسف بن مولاي علي الشريف فقد خلف ثلاثة أبناء هم مولاي الحفيد ومولاي أحمد ومولاي علي الذي خلف مولاي الفضيل وخلف مولاي أحمد مولاي عبد الرحمن ومولاي أحمد بينما ترك مولاي الحفيد مولاي مبارك الذي خلف مولاي محمد بن مبارك وهؤلاء هم أولاد مولاي سيدي يوسف بصوصو. أما مولاي السعيد بن محمد بن يوسف بن مولاي علي الشريف فقد خلف سيدي محمد الذي خلف مولاي عبد الله ومولاي أبي بكر ومولاي علي وهؤلاء هم بنو السعيد بصوصو.

خلاصة:

يعد نسب الدوحة العلوية الشريفة من أصح الأنساب وأمتنها، فأول ملوكها هو المولى محمد بن الشريف بن علي الشريف بن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف السجلماسي بن الحسن بن محمد بن الحسن الداخل بن القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن القاسم بن الحسن بن محمد بن عبد الله بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت رسول الله عليه أفضل الصلوات والسلام. وقد سمي العلماء هذا النسب بالسلسلة الذهبية لأنه شرف مقطوع بصحته لا نزاع في صراحته ولا خلاف في صحته.

أما نسب جلالة الملك سيدي محمد السادس قائد البلاد حامي الوطن والدين ورمز الوحدة الترابية وباعث نهضتها وضامن كيانها والسائر بالبلاد نحو التقدم والديمقراطية الحقيقية فهو ابن المغفور له بإذن الله مولانا الحسن الثاني محرر الصحراء وباني السدود بن محرر البلاد سيدي محمد الخامس قدس الله روحه بن يوسف بن الحسن الأول بن محمد بن عبد الرحمان بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن الشريف بن علي بن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف السجلماسي بن الحسن بن محمد بن الحسن الداخل...

فمن هذه السلسلة الذهبية تفرعت الأسر العلوية التي سطع نجمها في الأفق وامتد إشعاعها من المشرق إلى المغرب، فكانت خير شجرة مباركة من أرض طيبة أنبتت نباتا طيبا وآتت أكلها كل زمان بإذن ربها.

وحدة الأمة ووسطيتها في ظل إمارة المومنين

ذ. عبد الحفي عمور
رئيس المجلس العلمي المحلي بفاس

يعتبر الإمام في السياسة الشرعية وثقافتنا الإسلامية ذات الصلة بنظام الحكم في الإسلام، هو الخليفة الذي يسوس الأمة ويحكمها نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين والسهر على أداء شعائره الدينية حرصاً على دوامها الذي يحقق مفهوم الأمة الإسلامية التي تعتبر العبادات بتعدد أصنافها، المظهر الذي يجسد العبودية لله تعالى والخضوع لأحكامه التشريعية، ويدل عن هويتها، كما أن الإمام يسوس المسلمين في الأمور الدنيوية العادية من المعاملات ونحوها، بالدين وتعاليمه في مختلف مجالات الحياة وفق ما ورد في الوحي الإلهي من قرآن وسنة.

وهاته المسؤوليات الدينية والدنيوية بما تقتضيه من تكاليف وأعباء وبما يترتب عنها من تبعات، تقتضي الطاعة في المعروف للإمام الخليفة عملاً بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"¹ وكما جاء في الحديث النبوي المتفق عليه: "من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني"². مما يتأكد معه - انطلاقاً - من هذه النصوص أن الإمامة ضرورة شرعية واجبة الإقامة والطاعة، وأن إمارة المومنين تستند في قيامها على مرجعية إسلامية باعتبارها إحدى الثوابت الدينية التي قامت على الأصلين: الكتاب والسنة والتراث الديني والموروث الثقافي.

وعلى ضوء الشريعة السمحة التي جاءت بأحكام وقيم شرعية ترسم معالم تدبير أمور الأمة، فإن بعض هذه القيم: أحكام "ثوابت" جاءت بها النصوص القطعية لا تتغير بتغير الزمان والمكان وتقلبات الأحوال، من مثل قيام الأمة على العقيدة الإسلامية المتمثلة في التوحيد مما يفرض الحرص على غرس الإيمان الصحيح بالله تعالى، وتثبيت هذه العقيدة وحماتها، ورد الشبهات عنها، ومن مثل إقامة الشعائر العبادية لله وحده، وهذا فضلاً عن إشاعة مفاهيم وقيم في الحياة العامة لا يستقيم أمر

1 - النساء: 05.

2 - رواه البخاري ومسلم.

الأمة إلا بها من مثل: العدل والأمانة، والعفة والرحمة، والشورى التي جعلها الله تعالى من القيم الأساسية للأمة الإسلامية، حيث قال سبحانه: "والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون"³، حيث قرنها بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

والشورى كانت سلوكا في العهد العلوي، ومن مظاهرها أن الحسن الأول رحمه الله وجه في عام 1303هـ/1885م من فاس خطابا إلى الرعية حول ما قاساه من ضغط ممثلي الدول الأجنبية في طنجة للمطالبة بإسقاط الرسوم الجمركية المفروضة على الصادرات - قائلا: "ولتعلموا أنكم لن تزالوا في سعة، فإن ظهر لكم ذلك فالأمر يبقى بحاله، وإن ظهر لكم ما هو أسد وأحوط في الدفاع عن المسلمين، فأعلمونا به، إذ ما أنا إلا واحد من المسلمين، وأعلمناكم بما كان امثالا لقوله تعالى: "وشاورهم في الأمر"⁴.

ومما يندرج في هذا السياق ومما تحتاج الأمة إليه من قيم: الوحدة والوسطية باعتبارهما ضرورتين أكيدتين في هذه الظروف العصيبة التي تجتازها الأمة الإسلامية وما تشتكي منه من تفرق وتمزق، وغلو وإفراط.

(1) الوحدة:

فالوحدة مقصد من مقاصد الشريعة، والأمة الإسلامية أمة الوحدة بمفهومها الشامل: والوحدة في ثقافة إمارة المؤمنين تتجاوز الإطار الجغرافي والسياسي إلى الوحدة الإسلامية، باعتبار أن أمة الإسلام قامت على أساس ديني بمفهومه الشامل: عقيدة وشريعة وقيما وأخلاقا، مما يحقق مصالح الأمة في أمورها الدينية والدنيوية، ويعيد لها العزة والنصرة والريادة والسيادة، ومن ثم فالوحدة في فكر أمير المؤمنين تعني:

أ- وحدة في العقيدة تجمع المسلمين حيثما كانوا وأينما كانوا، وتكون العقيدة رابطة الأساس والأقوى من كل الروابط: لا الجنس ولا اللغة ولا القومية التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم: "لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم وليكونن أهون على الله من الجعل (نوع من الخنافس)"⁵.

3 - الشورى: 35.

4 - عبد العزيز بن عبد الله - عضو أكاديمية المملكة المغربية، فاس منبع الإشعاع في القارة الإفريقية، ج 2 ص: 622.

5 - رواه أحمد والترمذي وأبو داود.

فالانتماء القبلي والانتساب إلى القومية المعزولة عن الدين، في كل صورها وأزيائها المختلفة، تتنافى مع المبادئ الإسلامية الأساسية التي تقوم عليها أمة الإسلام، وتعاليم الوحي الإلهي التي تحت بأن تكون وحدة المسلمين ذات طبيعة إيديولوجية - وحي سماوي - تسمو على العصبية التي نهى عنها الرسول صلى الله عليه وسلم في ألفاظ صريحة قاطعة، من مثل: "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية"⁶، وقال: "دعوها فإنها منتنة"⁷.

ب - وحدة في العبادات والتشريعات:

بالإضافة إلى وحدة العقيدة، هناك وحدة في العبادات ينتظم بها أمر المسلمين مع خالقهم، ووحدة في الشريعة تنظم بها حياتهم، أساسها ضمان مصلحة العباد في المعاش والمعاد، ووحدة في الكتاب مرجعهم ومصدر هدايتهم، ووحدة في القبلة الواحدة، والرسول الواحد، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾⁸، ويقول عز من قائل: "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا"⁹.

ج - وحدة الأمة مقصد من مقاصد الشريعة:

إذا كانت الشريعة كما يقول ابن القيم "مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها. فإن وحدة الأمة وعلاج فرقتها هي مصلحة جامعة لمنافع كثيرة، فيها من الحكم والرحمة ومصالح العباد ما لا ينكره عاقل".

يقول أمير المؤمنين حفظه الله في قيمة الوحدة: وإننا لتتطلع في نفس الوقت، إلى دعم كل أسباب التقارب بين المسلمين، في المشرق والمغرب، وتوحيد كلمتهم، واسترجاع رسالتهم الحضارية، عن طريق تقوية الأخلاق الإسلامية، التي هي الرصيد الذي لا ينفذ، لكل تقدم وازدهار ونهضة واستقرار"¹⁰.

6 - أخرجه البخاري.

7 - رواه أبو داود.

8 - الأنبياء: 92.

9 - آل عمران: 103.

10 - من خطاب أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله في الاجتماع العام للطريقة التيجانية يوم الإثنين 9 جمادى الثانية 1428هـ 25 يونيو 2007م.

(2) الوسطية:

وكما أن الوحدة أصبحت حاجة ملحة في حياة المسلمين، فكذلك قيمة الوسطية والاعتدال من منطلق أن الأمة الإسلامية أمة الوسط، كما وصفها القرآن الكريم، حيث جعل الوسطية صفة رئيسية وجامعة للأمة الإسلامية... وخاصية من خصائصها التي امتازت بها على سائر الأمم، بل إنها إرادة الله لهذه الأمة: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس»¹¹، أي تشهدون يوم القيامة على تبليغ الرسل أجمعهم، لتصديقكم بإخبار الله عن ذلك في القرآن، ذلك أن الله تعالى منذ أخرج هذه الأمة إلى الوجود، وجعلها رسالة الرسول الخاتمة صلى الله عليه وسلم جعل مقادير البشرية كلها مرتبطة بأحوال هذه الأمة، إن خيرا فخير وإن شرا فشر باعتبار أن هذه الأمة أخرجت لتكون شاهدة على كل البشرية.

والوسطية تعني: "العدل والحق والتوازن كما حددها الحديث الشريف القائل: الوسط العدل، جعلناكم أمة وسطا".¹² كما تعني الوسطية الاعتدال الذي يمثل الميزان الذي يحتكم إليه في الفعل والتصرفات الإنسانية والحضارية، ويعد الاعتدال صنو العدالة بوصفه نقيض الجور والميل. ولقد انطبعت مسيرة أمتنا بهذه الوسطية الإسلامية وتميزت حضارتها بها، فوازنت في ثقافتها وفكرها بين "العقل" و"النقل" تستعمل كل واحد منهما في مجاله، فجمعت وألفت بين ما يمكن جمعها وتأليفها من براهينها، تؤاخي بين "الحكمة" التي هي "الإصابة في غير النبوة" وبين "الشريعة" حيث ينكشف ما بينهما من الاتصال... وتقرأ "النقل" بـ "العقل"... وتحكم غرور "العقل" فيما لا يستقل بإدراكه، بالأدلة "النقلية" التي جاءت من صاحب العلم المحيط والكلي، عالم الغيب والشهادة، سبحانه وتعالى.

وهي توازن، بهذه "الوسطية الجامعة" بين مصدرَي المعرفة: "الوحي" - وعلومه الشرعية - و"الوجود" - وعلومه الطبيعية - فلا تعتمد "الوحي" وحده، دون "الوجود"... وإنما ترجع إلى "كتاب الكون المنظور" أيضا - الطبيعة - حتى لقد استخدمت حقائق علوم الطبيعة أدلة على إثبات وجود الله - عندما استدلت بالمصنوع على الصانع - واستخدمت آيات الله وسننه سبلا لفهم الطبيعة وتصور ما وراءها.

11 - البقرة: 142.

12 - الإمام أحمد في مسنده.

هاتان القيمتان الإسلاميتان التي خص الله تعالى بهما هذه الأمة، وجعلها سبحانه من مميزاتهما، مما يستأثر باهتمام أمير المؤمنين محمد السادس أعز الله أمره، حيث يكون لهما حضور وازن في توجيهاته وإرشاداته، وخطبه السامية إلى شعوب الأمة الإسلامية وقيادتها السياسية والفكرية، وذلك إيماناً منه بأن تصحيح أمر هذه الأمة وترشيد مسارها لا بد أن ينطلق من أصولنا وقيمنا، ولا بد أن يستلهم من هذه الأصول المنهج القويم لاسترجاع أمجاد هذه الأمة السياسي والعلمي والحضاري، ويتحقق فيها وعد الله من جديد، في أنها أمة الاستخلاف «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضاه لهم»¹³.

قراءة في مفهوم "التعارف المتبادل" في الخطاب الملكي أثناء الزيارة البابوية

د. حسن عزوزي

رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم مولاي يعقوب.

شكل خطاب أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله أمام بابا الفاتيكان ومتابعة العالم بأجمعه المسيحي منه على وجه الخصوص رسالة سلام ووئام وأخوة إلى عالم يموج بالمتغيرات والتحديات خاصة على مستوى تفشي وتفقم ظاهرة الكراهية وسياسة رفض الآخر.

من هنا جاء تأكيد جلالاته حفظه الله على ضرورة تطوير لقاءات الحوار بين الأديان علما بأن الديانات السماوية الثلاث لم توجد فقط للتسامح فيما بينها بما ينطوي عليه مفهوم التسامح من رغبة في التجاوز والصفح وإنما وجدت لانفتاح بعضها على البعض وللتعارف فيما بينها في سعي دائم للخير المتبادل. ولعل من المثير للانتباه لكل متأمل ليبب في فقرات الخطاب الملكي تردد مصطلح "التعارف المتبادل" ست مرات ضمن سياقات مختلفة، وهو ما يترجم أهمية المفهوم وأبعاده الدلالية في زمن ما أحوج العالم فيه إلى مزيد من التواصل الحضاري والتعارف الديني والثقافي.

التعارف مبدأ قرآني أصيل

إن تأكيد جلالة الملك حفظه الله على إبراز مفهوم التعارف في خطابه التاريخي والدعوة إلى تأسيسه وتوظيفه من أجل تعزيز الوعي باختلاف الآخر والاجتماع معه على كلمة سواء هو استلزام من المبدأ القرآني الخالد والقاضي بضرورة التعارف بين الشعوب والقبائل، ومن ثم بين الحضارات والثقافات، حيث لم يفت جلالاته الاستشهاد بآية التعارف من سورة الحجرات: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»¹

1 - الحجرات: 13.

ومن الواضح أن الآية تتضمن الإشارة إلى أبعاد إنسانية ومبادئ حضارية عامة تؤسس لمبدأ التعارف بين الأمم والشعوب والحضارات، فالتنوع بين الناس إلى شعوب مختلفة وامتدادهم على ربوع الأرض لا يعني أن تنقطع أواصرهم ويعيش كل شعب في عزلة عن الشعوب الأخرى، كما لا يعني هذا التنوع أن يتناكروا ويتنازعوا وإنما ليتعارفوا.

إن أجزاء الآية القرآنية تشكل مرتكزات أساسية لتعارف أتباع الديانات والحضارات المختلفة. ويمكن الكشف عن هذه المرتكزات الأساسية والمبادئ الإنسانية الكلية في هذه الآية وفق ما يلي:

1- إن نداء الآية خطاب إلى الناس كافة، وإذا كانت سورة الحجرات من السور المدنية التي يتوجه فيها الحديث من أولها إلى آخرها لجماعة المؤمنين بلسان (يا أيها الذين آمنوا) فإن هذا الحديث القرآني تغير في هذه الآية بشكل استثنائي ليتحول الخطاب إلى الناس كافة بلسان (يا أيها الناس).

2- يتوجه الخطاب في الآية الكريمة إلى جميع الناس بصرف النظر عن معتقداتهم ولغاتهم وأعراقهم وأجناسهم، فالآية تذكر بوحدة الأصل الإنساني للبشر (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وهو ما ينبغي وعيه من أجل أن ينظر الناس لأنفسهم على أنهم أسرة إنسانية واحدة توجب نبذ العصبية والأحقاد، فوحدة الأصل الإنساني في المفهوم القرآني لا تلغي التنوع والتعدد ولكنها توجب التعارف وعدم التقاطع، ويمثل هذا الأمر - بدون شك - أقوى سبيل أخلاقي للتخلص من نزوعات الكراهية والعنصرية ونبذ الآخر.

3- قوله تعالى (وجعلناكم شعوبا وقبائل) فيه إقرار بالتنوع الثقافي والديني الذي ينبغي أن يكون محكوما بمبدأ التعارف والذي هو تعارف بين الجماعات والمجموعات البشرية، وهذا ما أثبتته تاريخ الاجتماع الإنساني في مختلف مراحل وأطواره ومحطاته الحضارية.

4- عبرت الآية بصيغة التفاعل (لتعارفوا) التي تشير إلى عملية التبادل والتواصل بين الجماعات من أجل تحقيق التعارف المتبادل، وهذا التعارف يقتضي التآلف كما جاء في الحديث النبوي: "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"².

2 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب: الأرواح جنود مجندة.

حوار وتعارف متبادل بين الإسلام والمسيحية

في إشارة ذكية إلى أول محطة شهدتها تاريخ الإسلام في التعارف بين الإسلام والمسيحية ذكر جلالة الملك حفظه الله في خطابه أمام بابا الفاتيكان قصة هجرة المسلمين إلى الحبشة قائلا: "وقد أردنا أن تتزامن زيارتكم للمغرب مع شهر رجب الذي شهد إحدى أكثر الحلقات رمزية في تاريخ الإسلام والمسيحية، عندما غادر المسلمون مكة المكرمة بأمر من النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولجأوا فرارا من الاضطهاد إلى النجاشي ملك الحبشة المسيحي، فكان ذلك أول استقبال وأول تعارف متبادل بين الديانتين الإسلامية والمسيحية وها نحن اليوم نخلد معا هذا الاعتراف المتبادل من أجل المستقبل والأجيال القادمة".

إن الذي ينبغي تأمله في قصة الهجرة إلى الحبشة ليس فقط ترحيب النجاشي بالمهاجرين المسلمين وما يعكسه من مودة وحماية وتوفير الأمان والسلام، وإنما كذلك موقف الرسول صلى الله عليه وسلم حينما لم يجد حرجا في أن يرسل أصحابه إلى ملك نصراني عادل لا يظلم عنده أحد، فالموقفان معا يعبران عن لحظة التعارف المتبادل بين الديانتين الإسلامية والمسيحية وهو ما لخصته مولانا أم سلمة (رضي الله عنها) عندما قالت: "نزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا ولم نخش منه ظلما".

وبمثل ما استقبل النجاشي وفد المهاجرين من الصحابة استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران في رحاب المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وقد قدموا برئاسة الأسقف أبو حارثة بن علقمة ليحاوروا النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الرسالة. وتذكر كتب السيرة أنه لما حان وقت صلاتهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إن هذا وقت صلاتنا وإننا نريد أن نؤديها. فقال لهم: "دونكم هذا الجانب من المسجد صلوا فيه"³. ولم يجد النبي عليه السلام ولا الصحابة أدنى حرج في أن يصلي المسيحيون في المسجد النبوي.

إن قضية الحوار بين الإسلام والمسيحية تعتبر من القضايا الجوهرية في علاقات الإسلام بباقي الديانات في عصرنا الراهن، وقد جاءت الدعوة إلى الحوار مع أهل الكتاب في القرآن الكريم من خلال المبادرة إليه من جانب المسلمين مما يعني أنه يجب على المسلم أن يكون أكثر حرصا عليها من

3 - سيرة ابن هشام: 120/3.

الآخر، قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾⁽⁴⁾.

وبصفته أميراً للمؤمنين فقد حرص جلالة الملك حفظه الله أثناء لقائه بقداسة البابا يوحنا بولس الثاني⁽⁵⁾ بحاضرة الفاتيكان على إثارة موضوع الحوار الإسلامي-المسيحي في واقعه الراهن وما يتطلبه تفعيله وتعزيز آلياته من حرص أكيد من الطرفين الإسلامي والمسيحي على الانتصار للقيم الدينية النبيلة التي تشترك الديانتان السماويتان في الدعوة إليها وحماتها، يقول جلالته: "وقد حرصنا خلال لقائنا بقداسة البابا يوحنا بولس الثاني على تأكيد إرادتنا الراسخة كأمر للمؤمنين في العمل سوياً مع قداسته من أجل تعايش الديانات السماوية والحوار المثمر بين الإسلام والمسيحية ضمن كلمة سواء لا نعبد فيها إلا الله ونتنصر فيها لقيمها النبيلة القائمة على الحرية والسلام والعدل والفضيلة".

إن الإشارة الملكية السامية إلى الحوار المثمر بين الإسلام والمسيحية ضمن كلمة سواء يفهم منها أن بدء الحديث والحوار بمواطن الاتفاق طريق إلى كسب الثقة وفشو روح التفاهم والتعاون. وإذا كان الغرب المسيحي الذي هو طرف في الحوار مع الإسلام كدين وحضارة يرتكز على رصيد ديني من أصول وتعاليم النصرانية فإن الاهتمام بنقاط الاتفاق وتقريرها يفتح آفاقاً من التلاقي والقبول والإقبال، وقد كان الإسلام سباقاً إلى تقرير هذا الأسلوب من الحوار مع الآخر، إنه أسلوب قرآني يتحدد على وجه الخصوص في حوار أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قال تعالى: (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون)⁽⁶⁾.

وللإشارة فإن اجتماعات المجمع الفاتيكاني الثاني ما بين 1962م و1965م قد نجم عنها توجه جديد لدى الكنيسة الكاثوليكية في العلاقات مع الإسلام، وكان للمقررات التي أصدرها هذا المجمع الأثر الحاسم في إيضاح موقف الكنيسة من الإسلام والمسلمين حيث جاء فيها ما يلي: "تنظر الكنيسة باحترام شديد إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد، وهم يسعون جهدهم في الالتزام

4 - آل عمران: 63.

5 - كان ذلك يوم الخميس 13 أبريل 2000م، وبعد سبعة أشهر من ذلك (11 نونبر 2000) بعث جلالته حفظه الله برسالة خطية إلى قداسة البابا وكل هذا يدل دلالة قوية على مستوى اهتمام جلالته بقضايا الحوار الإسلامي-المسيحي.

6 - العنكبوت: 46.

بنصائحه ووصاياه والخضوع لها... إلا أنه وبعد حدوث خلافات على مر العصور الماضية بين المسيحيين والمسلمين فإن المجمع المقدس يهيب بالجميع ترك الماضي جانبا، ويحثهم على بذل الجهود للمزيد من التفاهم والعمل المشترك من أجل حماية التقدم والعدالة الاجتماعية والقيم الأخلاقية⁷.

تعزيز سبل التعارف

ضمن جلالة الملك حفظه الله في رسالته السامية يوم 30 شتنبر 2013م إلى المشاركين في الندوة الدولية بفاس حول تعزيز الحوار بين الحضارات واحترام التنوع الثقافي مجموعة من الأفكار الهادفة والتوجيهات النيرة في مجال البحث عن سبل تعزيز الحوار بين أتباع الديانات، من ذلك تأكيده حفظه الله على أهمية العمل على تعزيز سبل التعارف والتفاهم والتواصل بين الشعوب، حيث قال جلالتة: "... لذا فإن الواجب الأخلاقي يقتضي العمل على تعزيز سبل التعارف والتفاهم والتواصل بين الشعوب واستثمار التنوع الثقافي كرافعة لإغناء الحضارة الإنسانية بدل جعله سببا للتنافر والكراهية، فنجاح أي مبادرة للحوار الحضاري يظل رهينا بهذا الشرط الأساسي".

إن تأكيد جلالتة حفظه الله على أهمية تعزيز سبل التعارف والتواصل بين الشعوب قبل عقد جلسات الحوار الحضاري ينطلق من خبرة عميقة بقضايا الحوار الحضاري في عصرنا الحاضر يستنتج منها أن الدعوات إلى حوار حضاري لم تؤت أكلها الكامل ولم تنجم عنها نتائج ملموسة وواقعية على كافة المستويات، وذلك راجع بالأساس إلى عدم اكتشاف خصائص ومميزات وقيم الحضارات الأخرى وخاصة من جانب الحضارة الغربية تجاه الحضارات الأخرى ومنها الحضارة الإسلامية التي يكاد يُجهل عنها كل ما يرتبط بتعاليم ومبادئ الإسلام السمحة وقيمه ومثله السامية التي تمثلها النسبة الغالبة من المسلمين في كل أرجاء العالم التواقعة إلى السلم والأمان والتعايش مع الآخرين وتبادل المصالح والمنافع في أخذ وعطاء دائمين. لذلك فإن كل انفتاح حضاري لابد أن يرتبط بضرورة ربط أواصر التعارف المتبادل كما دعا إلى ذلك جلالة الملك حفظه الله، فبسبب التعارف لا يبقى الآخر مجهولا ومن ثم مصدرا مسببا للخوف. فنحن نخشى الآخر ما دمنا نجهله فإذا ما عرفناه لم يعد كذلك، وإذا تحررنا من عقدة الخوف من الآخر أمكننا تقبل وجوده بل قبول التعايش معه.

إن مصطلح "حوار الحضارات" يكاد يفرغ من مضمونه ومحتواه الصحيح لأنه يقوم في أغلب الأحيان على أساس من التعارف المسبق الكفيل بانفتاح كل طرف على الآخر، فنجاح أي مبادرة

7 - Michel Lelong : Deux fidélités, une espérance, chrétiens et Musulmans aujourd'hui- Paris 1979 p 140.

للحوار الحضاري يظل - كما يقول جلالة الملك حفظه الله - رهينا بشرط التعارف المسبق. وباحترام هذا الشرط يمكن فتح نوافذ التعارف بهدف تقريب الشقة بين مختلف الحضارات والثقافات وجعلها ينفتح بعضها على بعض في سعي حثيث نحو تلاقح متميز وتفاهم مفيد ومثاقفة مجدية وفعالة. كل ذلك مع الاعتراف بوجود مساحات الاختلاف بين جميع الحضارات والأديان وتمتع كل واحدة بخصوصياتها ومميزاتها مما لا يسمح بأدنى محاولات الاختراق الدينية.

إن كثيرا ممن يجلسون إلى طاولة الحوار الحضاري يعبرون عن ضعف فهم وقلة تمثل حقيقي لمبادئ الإسلام وقيمه وهذا ما يجعل عقلاءهم في لقاءات حوارية متعددة يعترفون في كثير من الأحيان عندما تتبين لهم حقائق الأمور بأنهم يجهلون الشيء الكثير عن حضارة الإسلام ومثله مما يستلزمهم التعرف أكثر على مبادئ الإسلام الصحيحة وتعاليمه الروحية وحضارته الإنسانية القيمة، ولعل هذا ما جعل جلالة الملك حفظه الله يؤكد في خطابه أمام البابا هذه الحقيقة المؤسفة بقوله: "إنه من الواضح أن الحوار بين الديانات السماوية يبقى غير كاف في واقعنا اليوم، ففي الوقت الذي تشهد فيه أنماط العيش تحولات كبرى في كل مكان وبخصوص كل المجالات فإنه ينبغي للحوار بين الأديان أن يتطور ويتجدد كذلك. لقد استغرق الحوار القائم على (التسامح) وقتا ليس بيسير دون أن يحقق أهدافه".

إن الدعوة المولوية لتطوير آليات الحوار الحضاري تعكس نضجا بالغا وبعد نظر عميق، إذ لا يخفى أن العقود الأخيرة شهدت عددا كبيرا من ملتقيات الحوار الحضاري وسبق أن أعلن عام 2001م عاما للحوار بين الحضارات من طرف منظمة الأمم المتحدة وانبرى أنصار الحوار الحضاري لتكثيف الجهود وتسريع وتيرة اللقاءات من أجل التصدي لدعوات "صدام الحضارات". ورغم ذلك لم تراوح جلسات الحوار مكانها وتنتج عن ذلك انطباع واسع بأن مفهوم "حوار الحضارات" بحاجة إلى تطوير وتجديد كما دعا إلى ذلك جلالة الملك حفظه الله.

وإذا كان الحوار القائم على "التسامح" قد استغرق وقتا ليس بيسير دون أن يحقق أهدافه كما جاء في الخطاب الملكي السامي، فذلك لأن مفهوم "التسامح" Tolérance قد أضحي ذا حمولة ضعيفة تعني التساهل والصفح كما تعني استعداد المرء لأن يترك للآخر حرية التعبير عن رأيه ولو كان مخالفا، فالإنسان لا يتسامح إلا مع من بمقدوره أن يمنعه، إنه باختصار السباح المعطى من قبل أناس لأناس آخرين، ولعل هذه الحمولة الضعيفة التي يحملها مفهوم "التسامح" هي التي دفعت

الكثير من العلماء والفلاسفة والمفكرين إلى استبدالها بمصطلح "الاحترام" Respect . ورغم ذلك ينبغي الاعتراف بأن مصطلح "التسامح" يبقى استعماله سائدا نظرا لعادة الاستعمال وجريان توظيفه للتعبير عن الفضيلة التي تناقض التعصب وضيق التفكير واللاتسامح.

التعارف المتبادل رفض للتطرف

يؤكد جلالة الملك حفظه الله في خطابه السامي على أن التطرف سواء كان دينيا أو غير ذلك يبقى مصدره انعدام التعارف المتبادل والجهل بالآخر.

ولاشك أن التعارف كمبدأ إنساني حضاري سام له أكبر الدور في منع التشدد وجميع أشكال التطرف، فهو يقرب الأفكار والمسافات وينسج أواصر التعاون والتفاهم ويلغي بذلك المواقف المتطرفة التي من شأنها أن تخاصم الآخر وتعاديه وتقصيه. فالتعارف المتبادل الذي يحفظ مستويات الجهل بالآخر يحول دون حصول نزعات التطرف والتشدد، فالدعوة إلى التعارف والتواصل والانفتاح على الآخر ومد الجسور معه ترمي إلى تحقيق النزعة الإنسانية والأخلاقية التي ترفض النظر للآخر من خلال معايير الدين أو اللون أو العرق أو اللسان، كما تهدف إلى إزالة الأحقاد والعصبية ومحو كل أصناف التطرف والعنصرية والكراهية مما يكفل المجال الواسع للتفاهم خاصة وأننا نعيش عصر ثورة المعلومات والتقدم المذهل في وسائل الاتصال الذي يجعل العالم بمختلف ثقافته وحضاراته قرية كونية صغيرة من المفروض أن يتعارف سكانها ويفتحوا فيما بينهم نوافذ التفاهم والتقارب على أساس من احترام الخصوصيات الدينية والثقافية لكل الحضارات والشعوب.

إن الإسلام يدعو أتباع الحضارات والثقافات إلى أن يتعاملوا فيما بينهم على أساس الانتماء إلى أسرة إنسانية مشتركة تتفاعل في إطارها مختلف الروابط الحضارية بين الأمم والشعوب وهو أمر كفيل - كما يقول جلالة الملك حفظه الله - بتجنب مخاطر التطرف والسقوط في نزوعات العنف الناتجة عن جهل بحقائق الدين وقيمه المثلى "فليس الدين - كما يقول جلالته - هو ما يجمع بين الإرهابيين بل يجمعهم الجهل بالدين". فالجهل بالدين يؤدي حتما إلى الجهل بالقيم الإنسانية المشتركة التي تجمع بين الجميع، والتي يكون الاقتناع بها واستيعاب مقتضياتها مدعاة لنسج جسور التواصل والتفاهم والتعاون ونزع فتيل الأحقاد والكراهيات والعصبية المتطرفة التي طالما أنهكت الإنسانية. وهو ما يقتضي مواجهة التهديد للسلم والاستقرار العالميين الذي يشكله التطرف بتقوية الفهم المتبادل والاحترام وتعزيز القيم المشتركة بين الشعوب والثقافات والحضارات المختلفة.

من أجل تكريس مفهوم تعارف الحضارات.

لا شك أن ورود مصطلح "التعارف المتبادل" ست مرات في خطاب جلالة الملك حفظه الله يدل دلالة واضحة على اقتناع تام من جلالته بأهمية المفهوم والأبعاد التي يرمي إليها المصطلح في السياق الحضاري الراهن فضلا عن أهميته في تأصيل مفهوم الأسرة الإنسانية الواحدة ذات الأصل الإنساني الواحد، وهو المفهوم الذي رمت إليه آية التعارف عندما دعت الجميع إلى التأمل في الأصل الإنساني والتفكير في دعم أسس التعارف والتفاهم بين مختلف الشعوب والحضارات في إطار الجماعة الإنسانية الواحدة التي قد تختلف مشاربها الدينية والإثنية والحضارية، ولكنها محكومة بضرورة التعامل فيما بينها بمنطق الأسرة الواحدة ذات الأصل الواحد.

وإذا كانت الدعوة إلى حوار الحضارات التي تعتبر من الخصائص المميزة للعقود الأخيرة من هذا القرن لم تؤت أكلها الكامل ولم تنجم عنها نتائج ملموسة وواقعية على كافة المستويات فإنما ذلك راجع بالأساس إلى عدم اكتشاف خصائص الحضارات الأخرى ومميزاتها وقيمها، وخاصة من جانب الحضارة الغربية التي ما فتئت تضمّر الخوف والتوجس تجاه الحضارات الأخرى غير مكترثة بما تكتنزه تلك الحضارات من قيم ومثل وعناصر القوة والاستمرارية، ولعل هذا ما جعل جهات غربية كثيرة - إعلامية منها على وجه الخصوص - تعادي وتناوئ الإسلام وحضارته متجاهلة مقومات الإسلام الحضارية وقيمه ومثله العليا وروحه السمحة ودعوته السلمية.

إن كثيرا من الغربيين قد باتوا يجهلون عن الإسلام أبسط مبادئه وأدنى مرتكزاته الحضارية. من هنا تأتي ضرورة تعرف الطرف الآخر على منظومة الإسلام وحضارته في أزهى صورها وأنصعها وذلك قصد تمهيد السبيل للحوار والتلاقي والتفاهم، فالتعارف أساس وشرط كل مبادرة للحوار، إذ من مستلزمات نجاح لقاءات الحوار وشروطه إقامة جسور التعارف مسبقا وإطلاع كل طرف على ما تحتزنه حضارة الآخر في كل أبعادها الدينية والثقافية والفكرية قصد استيعابها وتمثلها جيدا من أجل الاتفاق على مواطن التلاقي وتعزيز القيم الإنسانية المشتركة والتحاور في مواطن الاختلاف والتنوع لأن من الخصائص الذاتية لأي حضارة إنسانية القابلية للتناغم والتفاعل والتقارب مع الحضارات الأخرى.

إن تجديد البناء الحضاري للعالم أجمع بالتعارف بين الديانات والحضارات وبالتعاون المثمر بين الأمم والشعوب على هدي التعاليم الدينية والمبادئ الإنسانية يعتبر المهمة الرئيسة لأولي الحكمة

والتبصر وذوي الإرادات الخيرة والعقول النيرة من جميع الحضارات وذلك من أجل بناء مستقبل آمن ومزدهر من أجل الأجيال الصاعدة.

وهذا ما أكد عليه جلالة الملك حفظه الله عندما قال في ختام خطابه: "وبصفتنا أمير المؤمنين والخبير الأعظم، فإننا مدعوون لأن نكون في نفس الوقت مثاليين وعمليين، واقعيين ونموذجيين، فرساننا تتسم بطابعها الراهن والأبدي في آن واحد، وهي تدعو الشعوب إلى الالتزام بقيم الاعتدال وتحقيق مطلب التعارف المتبادل وتعزيز الوعي باختلاف الآخر".

إنها دعوة قوية وصادقة تلك التي وجهها أمير المؤمنين حفظه الله أمام ضيفه الكبير إلى ضرورة التزام الشعوب جماعات وأفرادا بقيم الاعتدال ومواقف الحكمة الراضية لجميع أشكال التشدد والتطرف التي تعكس الجهل بالآخر وتسعى إلى رفضه ومعاداته. بالمقابل يبقى تعزيز الوعي باختلاف الآخر أمرا واجبا وملحا، فبدون التعرف على الآخر والاعتراف به واحترامه في اختلافه لن يكون لقيم كالسلام والعدل والكرامة الإنسانية والتسامح والمحبة أي معنى، فثقافة السلام- مثلا- التي أحوج ما يكون العالم إليها اليوم بعد المستجدات العالمية الأخيرة تستوجب مبدئيا الإقرار بمشروعية الاختلاف واعتباره أمرا طبيعيا بين الناس ودليلا على التنوع الثقافي والحضاري، كما تستوجب الإقرار أيضا بالتعددية في المعتقدات الدينية والهويات الثقافية. ولا شك أن أول ما يترتب عن الإقرار بمشروعية الاختلاف والتعدد الثقافي السعي إلى بناء جسور التعارف والتعاون والتواصل.

ختاما يتضح أن مفهوم "تعارف الحضارات" أوسع وأعمق من مفهوم "حوار الحضارات" لأنه ينطلق من أرضية تكوين المعرفة والتأسيس عليها، إذ التعارف المتبادل هو الذي يرسم شكل العلاقات وحجمها ومستوياتها وآفاق تطویرها، فالمشكلة إذن بين أتباع الديانات والحضارات ليس في عدم وجود قنوات الحوار فيما بينهم وإنما- كما أكد جلالة الملك حفظه الله- في عدم التعارف وسيادة الجهل وانعدام الوعي باختلاف الآخر.

إن العالم اليوم في أمس الحاجة إلى المساعي النبيلة والجهود المبذولة هنا وهناك من أجل اللقاء بين الزعامات الدينية المرموقة قصد تأسيس ثقافة التعارف المفضية إلى بناء ركائز التفاهم والوفاق على القواسم والمبادئ المشتركة في سبيل مواجهة مختلف التحديات الراهنة على المستوى الحضاري ومخاطرها وتطويق آثارها وانعكاساتها السلبية.

عيد العرش المجيد تاج أعياد المغاربة بيعة شرعية وعهود مرعية

ذ. محمد مشان

رئيس المجلس العلمي المحلي لعمالة مقاطعات
الفداء مرس السلطان.

يُقْبَلُ شهرُ يوليوز مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، ويحمل معه وفي طياته بالنسبة للمغرب والمغاربة مناسبة وطنية عزيزة، وذكرى جليلة خالدة تُعَدُّ من أبرز الذكريات، ومن أجَلِ المناسبات الوطنية المجيدة، إنها ذكرى اعتلاء مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس عرش أسلافه المنعمين.

تحل هذه الذكرى الطيبة الحبيبة، ويستحضرها المغاربة قاطبة، ويخلدونها بمنتهى الاعتزاز والفخر، وكامل المسرة والابتهاج، فهو تاج الأعياد الوطنية، ومن ثم كانت لعيد العرش المجيد مكانته الرفيعة بين الأعياد الوطنية المغربية، وكانت له خصوصيته الذاتية، ومنزلته المتميزة بين الذكريات الخالدة حيث دأب العرش المغربي وشعبه الوفي على الاحتفاء به على مدى عقود.

فمنذ عهد الدولة الإدريسية، أسست هذه المملكة الشريفة على تقوى من الله عز وجل، فجمعت أفراد المجتمع، وصانت الحدود، ووحدت الشعب، وجعلته متآخيا متراسا كالجسد الواحد، وكالبنيان يشد بعضه بعضا.

ومنذ أن اعتلى عرش المغرب مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس، وتسلم مقاليد الأمة المغربية، وهو يواصل المسيرة الإنمائية العظيمة على نهج وسُنن أسلافه. إنه الثمرة الطيبة للشجرة الطيبة.

إن بلادنا والحمد لله تنعم بإمارة المؤمنين، والعلاقة التي تربط الشعب بملك البلاد هي علاقة شرعية مؤسسة على البيعة الشرعية وهي: «العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يُسَلِّمَ

له النظر في أمور نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع¹.

قال الإمام الماوردي (450هـ) رحمه الله: "الإمامة: مَوْضُوعَةٌ لِحِلَافَةِ النُّبُوَّةِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا، وَعَقْدُهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا فِي الْأُمَّةِ وَاجِبٌ بِالْإِجْمَاعِ لِمَا فِي طِبَاعِ الْعُقَلَاءِ مِنَ التَّسْلِيمِ لِزَعِيمٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ التَّظَلُّمِ وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ فِي التَّنَازُعِ وَالتَّخَاصُمِ، وَلَوْ لَا الْوُلَاةُ لَكَانُوا فَوْضَى مُهْمَلِينَ، وَهَمَجًا مُضَاعِينَ، وَقَدْ قَالَ الْأَفْوَهُ الْأَوْدِيُّ وَهُوَ شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ *** وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهِلَتْ سَادُوا"²

وقال الإمام الغزالي (505هـ) رحمه الله: "...أن الدنيا والأمن على الأنفس والأموال لا ينتظم إلا بسلطان مطاع، فتشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السلاطين والأئمة، وأن ذلك لو دام ولم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع.. دام المهرج وعم السيف، وشمل القحط وهلكت المواشي، وبطلت الصناعات، وكان كُلُّ مَنْ غَلَبَ سَلَبَ، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم إن بقي حيا، والأكثر يهلكون تحت ظلال السيوف! ولهذا قيل: الدين والسلطان توأمان، فالدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهذوم وما لا حارس له فضائع"³

ومن أعظم الأدلة على وجوب نصب الإمام الأعظم وبذل البيعة له قوله صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامٌ جَمَاعَةٌ فَإِنْ مَوْتَهُ مَوْتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»⁴، وقوله صلى الله عليه وسلم «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»⁵

1 - مقدمة ابن خلدون، ص: 209.

2 - الأحكام السلطانية للماوردي، ص: 15.

3 - الاقتصاد في الاعتقاد، ص: 292-293.

4 - أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين - كِتَابُ الْإِيمَانِ - من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه حتى يراجع.

5 - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الإمامة - باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن؛ والإمام البيهقي في السنن الكبرى - كِتَابُ قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ - جَمَاعَةُ أَبْوَابِ الرُّعَاةِ - بَابُ التَّرْغِيبِ فِي لُزُومِ الْجَمَاعَةِ وَالتَّشْدِيدِ عَلَى مَنْ نَزَعَ يَدَهُ مِنَ الطَّاعَةِ.

وذلك أن أهل الجاهلية لم يكن لهم إمامٌ يجمعهم على دينٍ ويتألفهم على رأيٍ واحدٍ، بل كانوا طوائفَ شتى وفرقا مختلفين، آراؤهم متناقضةٌ وأديانهم متباينةٌ، وذلك الذي دعا كثيرا منهم إلى عبادة الأصنام وطاعة الأزلام؛ ولأنَّ المقصود من نصب الإمام الأعظم هو اجتماع الكلمة ولمُ الشمل، وإقامة الدين وتنفيذ أحكام الله تعالى، ورفع الظلم ونشر العدل، وصيانة الأعراض واستتباب الأمن، وفُضُّ المنازعات، والأخذ على يد الظالم وإنصاف المظلوم، وجهاد أعداء الإسلام، وحماية حوزة البلاد وحفظ بيضة المسلمين، وقمع الشرِّ والفساد، وأخذ الحقوق الواجبة على ما اقتضاه الشرع، ووضعها في مواضعها الشرعية.

قال إمام الحرمين الجويني في (غياث الأمم): "وَلَا يَرْتَابُ مَنْ مَعَهُ مُسْكَةٌ مِنْ عَقْلٍ أَنَّ الدَّبَّ عَنِ الْخُورَةِ، وَالنِّصَالِ دُونَ حِفْظِ الْبَيْضَةِ مَحْتَوَمٌ شَرْعًا، وَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ فَوْضَى لَا يَجْمَعُهُمْ عَلَى الْحَقِّ جَامِعٌ، وَلَا يَزَعُهُمْ وَازِعٌ، وَلَا يَرُدُّهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ رَادِعٌ، مَعَ تَفَنُّنِ الْأَرَاءِ، وَتَفَرُّقِ الْأَهْوَاءِ لَا تَنْتَشِرُ النُّظَامُ، وَهَلَكَ الْعِظَامُ، وَتَوَثَّبَتِ الطَّغَامُ وَالْعَوَامُ، وَتَحَزَّبَتِ الْأَرَاءُ الْمُتَنَاقِضَةُ، وَتَفَرَّقَتِ الْإِرَادَاتُ الْمُتَعَارِضَةُ، وَمَلَكَ الْأَرْدُلُونَ سَرَاةَ النَّاسِ، وَفُضِّتِ الْمَجَامِعُ، وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ، وَفَشَّتِ الْخُصُومَاتُ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَى أَهْلِ الدِّينِ ذُوو الْعَرَامَاتِ، وَتَبَدَّدَتِ الْجَمَاعَاتُ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْإِطْنَابِ بَعْدَ حُصُولِ الْبَيَانِ، وَمَا يَزَعُ اللَّهُ بِالسُّلْطَانِ أَكْثَرَ مِمَّا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ"⁶.

ودور إمارة المؤمنين في استقرار الأمة المغربية وتحصين الشباب من فكر التكفير والغلو والتطرف، وإسهامها الكبير في نشر فكر الوسطية والاعتدال واضحان بارزان للعيان، فقد جعلها الله (أي إمارة المؤمنين) عروة وثقى ليظل بلدنا المغرب بفضلها محافظا على دينه وأصالته، متشبها بمقومات شخصيته وهويته.

فانتقل بلدنا إلى مصاف الدول الرائدة والمتقدمة في شتى المجالات؛ وذلك بفضل حنكة مولانا أمير المؤمنين، وبفضل سديد رأيه، وبُعد نظره في كل المجالات: الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية والثقافية، والعلمية، مما تعجز هذه الكليات عن أن توفيه حقه، بل تعجز المجلدات الضخام عن عده وحصره، فبلدنا - والله الحمد والمنة - عرف تقدما ملحوظا في سائر المجالات وعلى جميع الأصعدة. ومما لا تخطئه عين الناظر تلکم النقلة النوعية التي جعلت من بلادنا نموذجا يحتذى وقدوة يتأسى به الغير يحدو حدوه ويسير على نهجه.

6 - غياث الأمم لإمام الحرمين الجويني، ص: 218.

وقطرة من بحر منجزات مولانا أمير المؤمنين نصره الله وأيد جهوده في الشأن الديني، للرفع من مستوى تدين المغاربة؛ ولتطوير الخطاب الديني بما يلائم العصر. فانخرط علماء المملكة المغربية الشريفة في نموذج مبتكر تَفَتَّقَتْ عنه عبقرية أمير المؤمنين، الذي جعل من بلادنا نموذجا يحتذى، ومثالا يقتبس من أنواره، معترزين بما يوليه جلالته لقضايا الدين من صنوف الرعاية والعناية بما لا يحيط به عد ولا حصر، فخورين بما تم تحقيقه وإنجازه في عهده الميمون الزاهر، وما يقوم به من مبادرات للرفقي بالبعد الروحي بكل مستوياته، ثقافيا ودينيا، وذلك من خلال الإصلاحات العميقة، التي تشمل مختلف الهيآت والمؤسسات ذات الصلة بالشأن الديني.

وبالرعاية السامية التي أحاطت بها جلالته مؤسسة العلماء، التي يرأس مجلسها الأعلى، والتي أصبحت حاضرة في كل إقليم وعمالة من المملكة، بل تجاوزت حدود الوطن لتشمل الجالية المغربية بالمهجر.

وخدمة لكتاب الله ونشرا للمعرفة الدينية المعتدلة الوسطية، أعطى مولانا أمير المؤمنين أوامره السامية لإنشاء قناة محمد السادس للقرآن الكريم وإذاعة محمد السادس للقرآن الكريم.

لقد خطت المملكة المغربية خطوات كبيرة في هيكلية الحقل العلمي والديني، وحققت في ذلك مكاسب ثمينة، ونتائج مُرضية. وكان من ملامح هذه الخطوات المباركة: تأسيس معهد محمد السادس لتكوين وتأهيل الأئمة.

وبفضل عبقرية مولانا أمير المؤمنين وسداد رأيه أصبح بلدنا قبلة لأهل العلم ومنارة علمية يسترشد بها، فهي نموذج لترسيخ العلم الشرعي الصحيح، ونشر قيم المحبة والسلام، ومحاربة كل أشكال الغلو والتطرف.

إن اهتمامه الكبير بشؤون المرأة وقضاياها وحقوقها، وحرصه على تبويها المكانة اللائقة في الأسرة، وما يبذله من جهود لإنصافها، وإعطائها حقوقها كاملة غير منقوصة، ورفع كل أشكال الحيف عنها، كل ذلك جعله نصيرا للمرأة مدافعا عن حقوقها، فقد فتح -أيده الله ونصره- في وجهها باب المشاركة في المجلس العلمي الأعلى، والمجالس العلمية المحلية، بوصفها عضوا كامل العضوية في المؤسسة العلمية، وبموازاة ذلك فتح أمامها باب المشاركة في الدروس الحسنية الرمضانية، إلى جانب إخوانها العلماء. فظهر للجميع أنها قمينة وجديرة بتلك المكانة السامية التي بوأها إياها مولانا أمير المؤمنين نصره الله وأيده.

ووعيا من جلالته الشريفة بأهمية الروابط الدينية والتاريخية والثقافية التي تجمع المغرب بإفريقيا باعتباره جزءا لا يتجزأ منها؛ وسعيا من جلالته لتوحيد جهود علماء المغرب وباقي الدول الإفريقية لخدمة مصالح الدين؛ أصدر أمره المطاع بإحداث مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة وهي مكرمة أخرى تضاف إلى مكرماته، اذخرها الله لمولانا أمير المؤمنين فجمع شمل علماء إفريقيا من أجل توحيد وتنسيق جهود العلماء بكل من المغرب وإفريقيا للتعريف بقيم الإسلام السمحة ونشرها وترسيخها، وتوطيد العلاقات التاريخية التي تجمع المغرب بدول إفريقيا والعمل على تطويرها وإحياء التراث الثقافي الإفريقي المشترك.

وحرصا من جلالته الشريفة على أن تستعيد جامعة القرويين إشعاعها العلمي والمعرفي والديني والوطني خدمة لعلوم الشريعة الإسلامية، وحفاظا على التراث الثقافي الإسلامي، أصدر أوامره السامية لإعادة تنظيم جامعة القرويين، إلى غيرها من مشاريع دينية وعلمية وثقافية واجتماعية تخرج عن العد والحصر.

لقد وطد الله أساس ملك مولانا أمير المؤمنين، وثبت قواعده وشد أركانه بإعلائه لشرع الله سبحانه وتعالى، وبذبه عن سنة جده المصطفى صلى الله عليه وسلم.

لقد بنى - حفظه الله - للمغرب مجدا مؤثلا؛ فتسنى ذرى العز والشرف، وأصبح عزيز الجانب منيع الحوزة، وثبت الله به أساس الدين، ووطد قواعده وأركانه، حتى سطع نوره وأشرقت بهجته.

فلا زال النصر يمتد لآرائه والظفر لراياته، والسعد والتوفيق يقترن بكل جهوده، والنجاح يحالفه في كل حركاته وسكناته.

فبمولانا أمير المؤمنين انتظمت مصالحنا، واجتمعت كلمتنا، وأمنت سبلنا، وبفضل حكمته، وحصافة رأيه، وتوجيهاته السديدة جعل من بلدنا نموذجا يحتذى ومثالا يقتفى؛ تتشوف الدول لبلوغ ودرك مكانته، وتتطلع إلى الاقتباس من أنوار تجربته الفريدة المبنية على الوسطية والاعتدال، وقيم التسامح، والانفتاح على الآخر. كل ذلك من أجل تحقيق أمنهم الروحي والمذهبي، وتحصين معتقداتهم، دحضا للشبهات والأباطيل ووقوفاً في وجه التطرف والغلو والانغلاق، في إطار المذهب السني المالكي، وفي ظل الإمامة العظمى، القائمة على البيعة المتبادلة، والميثاق الراسخ بين الراعي والرعية.

إن إمارة المؤمنين دوحة وارفة يتفياً المغاربة ظلالتها، إنها نعمة كبرى حباها الله لهذه الأمة المغربية، فاللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال وصلها على التوال.

لذا فنحن ندعو الله لمولانا أمير المؤمنين كفاء ما بذل من جهد، وما حقق من مشاريع البر والخير، فقد جمع الله له المآثر الزكية، وخصه بالأخلاق الرضية، والشيم السنية، ولا زالت أفعاله بالجميل مذكورة، وآراؤه بالتوفيق منصوره، ومساعيه بالخير مشكورة، ومحامده مشهورة.

فنسأل الله أن يرحم الملكين المجاهدين مولانا محمد الخامس والملك الباني مولانا الحسن الثاني وأن يطيب ثراهما وأن يجعلهما في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

كما نسأل المولى عز وجل أن يعين مولانا أمير المؤمنين على ما ناطه به، ووكله إليه من تدبير أمور هذا البلد الأمين، والذب عن حياض الدين، وأن يديم عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يبقيه مفخرة لشعبه، سني المفاخر شريف المناقب، سائرا على نهج أسلافه المنعمين في بناء ذرى المجد، وإرساء دعائم حضارة أمتنا، وإعلاء راية وطننا خفاقة.

كما نسأله - سبحانه - أن يقر عينه بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل مولاي الحسن، وأن ينبت النبت الحسن، وأن يشد عضده بصنوه السعيد صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، وكافة أفراد الأسرة الملكية الشريفة. إنه ولي ذلك والقادر عليه. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

إمارة المؤمنين ورعاية الوحدة الوطنية في ظل حماية الدين

د. سعاد رحائم
كلية الآداب - الجديدة.

إن المملكة المغربية تحت القيادة الرشيدة لمولانا أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله قامت من خلال العديد من المؤسسات العلمية ببناء صرح الوعي الديني الشامل لدى المواطنين المغاربة على كافة مستوياتهم، وبتأهيل الوعي الديني في مدارج أعلى المقامات العلمية والروحية حتى غدت نموذجا رائعا ورائدا يحتذى به.

وتجلت الأدوار الطلائعية التي قامت بها العديد من المؤسسات المغربية في رفع مستوى وعي المواطن المغربي في مجال العبادات والمعاملات، وأيضا إدراك الحقوق والواجبات المتبادلة بين الوطن والمواطن، حتى أصبح ذلك رافدا قويا في دعم وتثبيت الوحدة الوطنية في ظل إمارة المؤمنين.

لذلك سنخصص الحديث في هذا الموضوع عن قواعد الوحدة الوطنية من خلال دعامة إمارة المؤمنين في الإشراف الفعلي على أداء هذه المؤسسات، من أجل إعداد مواطن واع بحقوقه وواجباته، معترزا بالانتماء إلى وطنه اعتقادا وسلوكا داخل الوطن وخارجه. وتتجلى أبعاد المواطنة الفاعلة في قول أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله: "إن المواطنة التي نريدها لا ينبغي أن تختزل في مجرد التوفر الشكلي على بطاقة تعريف أو جواز سفر، وإنما يجب أن تجسد في الغيرة على الوطن، والاعتزاز بالانتماء إليه، والمشاركة الفاعلة في مختلف أورش التنمية، التي فتحناها، وطنية كانت أو جهوية أو محلية، وتوسيع إشعاعه العالمي".

ولعل الاهتمام بالمؤسسات العلمية التي ترعى التاريخ الحضاري للمملكة المغربية، والتي تحفظ الهوية الدينية والوطنية للمغاربة انبعثت آفاقها وجذورها المبكرة من خلال مؤسسات راسخة القدم في العطاء والتدبير.

وسنركز الحديث في هذا الموضوع من خلال نتاج حضاري متميز لمؤسسات راسخة القدم في العطاء والتدبير، كجامعة القرويين، والأمانة العامة للمجلس العلمي الأعلى، ومعهد محمد السادس للأئمة المرشدين والمرشحات، ومؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، والدور الريادي الذي حققته هذه المؤسسات في بناء الوحدة الدينية والوحدة الوطنية.

أولاً: جامعة القرويين بفاس:

تعتبر جامعة القرويين أول جامعة علمية عالمية حج إليها رواد المعرفة والفكر من جميع أنحاء المعمور.

فمنذ أن تأسست هذه الجامعة في العهد الإدريسي على يد "فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري"، وهي تحظى بالرعاية الكافية لتكون درعا صامدا من دروع الحصانة الفكرية والعقدية، تصارع الجهل والتأخر والجمود، حتى أصبحت ركنا مؤسساتيا من صروح التألق العلمي والحضاري، وقلعة حصينة للعلم والمعرفة. فلم يكد يمر على الفتح الإسلامي بضعة عقود، حتى تأسست جامعة القرويين في مدينة فاس (245هـ/859م).

وقد حافظت منذ تأسيسها على الوعي الثقافي والفكري في مجال علوم الشريعة والفكر الإسلامي وكذلك علوم العربية، وسائر العلوم الإنسانية.

مما عمل على إغناء الفكر الإنساني، وإثراء الحياة الثقافية لدى الناس، فكانت بذلك صرحا علميا شد الرحال إليها رجال الفكر والعلم من مختلف أقطار الدول العربية، والعالم الإسلامي، لما وجدوا في تربتها العلمية الخصبة تفجيراً لمواهبهم، واستفراغاً للجهود في علومهم ومعارفهم، فبرزوا بشكل لافت، وبرزت معها العاصمة العلمية فاس، حتى اشتهر المغرب في مقدمة الدول الإسلامية الأصيلية التي تعزز بعقيدتها ودينها الإسلامي، ووحدتها الوطنية.

فكانت بذلك مشعلا مضيئا لرفع قواعد الحضارة العربية الإسلامية. هذه الحضارة التي فاقت غيرها من الحضارات بكثير من الخصائص والمميزات.

وجامعة القرويين تعتبر منذ الزمن البعيد منطلقا للإشعاع الفكري والعلمي، ومصدرا للانبعاث الثقافي والحضاري. بالحفاظ على اللغة العربية لغة رسمية لتدريس العلوم ونشر الثقافة الإسلامية.

فاستطاعت الجامعة أن تتكيف وتتفاعل تفاعلا إيجابيا مع مختلف المؤثرات الحضارية ومستجداتها النافعة؛ دون التخلي عن القيم الحضارية في ثوابتها الدينية والوطنية، التي بصمت التاريخ الديني للمغاربة بالوسطية والاعتدال والتسامح، بنهج سنة النبي الأعظم محمد رسول صلى الله عليه وسلم. مما أنتج عطاء علميا وازنا، وإشعاعا إسلاميا وثقافيا وفكريا متميزا، وتأثيرا عميقا في مختلف الأجيال.

ومن هذا المنطلق، تكون جامعة القرويين قد أدت رسالتها العلمية وقامت بدورها الرائد، وحققت الدور المنشود، فقدمت خدمات جليلة في تطوير العلوم الدينية، وتوسيع مدارك العقل والحفاظ على التراث المغربي الأصيل. كما أنتجت حركة فكرية رصينة في مجال التأليف والإنتاج العلمي، حتى أضحت مقصدا لطلبة العلم ورواد المعرفة من كل الأقطار العربية والإسلامية. كما لعبت دورا متميزا في الكفاح الوطني والذود عن حرمانه ضد الاستعمار الغاشم.

وهكذا يتجلى واضحا مدى الدور الفعال الذي تقوم به هذه المؤسسة الجامعية، تحت القيادة الرشيدة لمولانا السلطان أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله، في جمع كلمة العلماء على عقيدة واحدة تحفظ التراث الإسلامي، وتدعو إلى مواجهة الأفكار المتطرفة والتيارات المعادية للإسلام؛ وعلى مذهب سني مالكي يقف على حصون الممانعة لأي مذهب من المذاهب الخارجية.

وسعيا لتطوير أداء هذه المنارة العلمية الشاخنة، والعناية بالعلم والعلماء، تفضل أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس أعزه الله بإصدار ظهير شريف رقم 1.15.71 بتاريخ 07 رمضان 1436 هـ (24 يونيو 2015 م) بشأن إعادة تنظيم جامعة القرويين من أجل جعلها مؤسسة علمية رائدة في مجال العلم والمعرفة، في علوم الشريعة، وفي تاريخ الفكر والحضارة الإسلامية. وبموجب الظهير الشريف المنظم لها أصبحت تضم كلاً من مؤسسة دار الحديث الحسنية، ومعهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية، ومعهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات، والمعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب.

فمن خلال المهام المنوطة بجامعة القرويين أضحت المؤسسات التابعة لها تشكل دورا رئيسا في تخريج رواد الفكر الإصلاحي، الذي ينهل من ثوابت دينية سمحة، نبراسها الهدي النبوي الكريم في

مجال حفظ الأمن الروحي للمواطنين، وبالتالي الحفاظ على كيان الوحدة الوطنية من كل غلو فكري متطرف يتغدى من مشاتل العداء لوحدتنا الوطنية.

ثانيا: الأمانة العامة للمجلس العلمي الأعلى:

تعتبر الأمانة العامة للمجلس العلمي الأعلى المؤسسة الأولى التي ترفع الشأن الديني ببلادنا، هذه المؤسسة الشاخصة ببرامجها وأهدافها، والتي يرأسها أمير المؤمنين محمد السادس حفظه الله حامي همى الملة والدين.

وتسعى مؤسسة المجلس العلمي الأعلى إلى ضمان الأمن الروحي للمغاربة، وحراسة الثوابت الدينية للأمة والمتمثلة في: العقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي، والتصوف السني.. وتعمل من خلال المجالس العلمية المحلية على تنشيط الحياة الدينية للناس، وفق برامج محددة ومتكاملة، ولهذه الغاية حدد ظهير أبريل 2004م لهذه المؤسسة معالم نشاطها، منها على سبيل المثال:

- دراسة القضايا التي يعرضها عليها رئيس المجلس العلمي الأعلى، أمير المؤمنين جلالة الملك أعز الله أمره؛

- إعداد برنامج عمل سنوي يتضمن الأنشطة المقترحة القيام بها من قبل المجالس العلمية المحلية؛

- الإشراف على عمل المجالس العلمية المحلية، وتنسيق أنشطتها، وإصدار التوجيهات والتوصيات الرامية إلى ترشيد سيرها وتفعيل دورها في تأطير الحياة الدينية؛

- إقامة علاقات تعاون علمي مع الهيئات والمنظمات الإسلامية ذات الاهتمام المشترك.

وإن أهم ما يميز هيكله الحقل الديني في ظهير أبريل 2004م، هو إشراك المرأة العاملة في تدبير الشأن الديني للمواطنين، ضمن أعضاء المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية. إنصافا للمرأة العاملة، واعترافا بدورها وإقرارا لمكانتها العلمية. وهي مبادرة ملكية عززت عطاء مؤسسة العلماء. حتى أضحت بمشاركة النساء العالمات تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من خلال مجالات عمل رائدة ومثمرة.

وبموجب الظهير الشريف المنظم لعمل المجالس العلمية، حددت المادة 13 منه محاور البرنامج السنوي والتي ورد فيها: "تضطلع المجالس العلمية المحلية بمهمة نشر مبادئ الدين الإسلامي الحنيف وترسيخ قيمه السامية وتعاليمه السمحة، في إطار التمسك بكتاب الله وسنة رسوله والحفاظ على وحدة البلاد والعقيدة والمذهب.

وتعمل أيضا على صيانة مقومات الشخصية المغربية والإسهام في تحصينها.

ولهذه الغاية، تناط بالمجالس العلمية المحلية في حدود دائرة نفوذها الترابي، وفق توصيات وتوجيهات المجلس العلمي الأعلى وتحت إشرافه ومراقبته وبتنسيق مع وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية أو ممثليه الجهويين، المهام التالية:

- الإشراف على كراسي الوعظ والإرشاد والثقافة الإسلامية؛

- تنظيم حلقات خاصة للتوعية والتوجيه الديني لفائدة المرأة المسلمة توطئها بصفة خاصة شخصيات علمية نسائية؛

- الإشراف على تهيئ مسابقات دورية لحفظ القرآن وتجويده؛

- الإسهام في تأطير حملات محو الأمية بسائر مساجد المملكة؛

- الاضطلاع بمهمة إرشاد المواطنين والمواطنات المغاربة من المسلمين في أمور دينهم، ولا سيما تسير سبل اطلاعهم على معرفة أحكام الشرع المتعلقة بحياتهم الخاصة؛

- تنظيم ندوات علمية وموائد مستديرة لدراسة قضايا الفكر الإسلامي المعاصر والإسهام في نشر الوعي الإسلامي الصحيح؛

- الإشراف على عمليات اختيار القيمين الدينيين واختبار قدراتهم العلمية والفقهية لشغل مهام الإمامة والخطابة والوعظ والإرشاد بمختلف مساجد المملكة؛

- تنظيم دورات للتكوين الأساسي والتكوين المستمر لفائدة القيمين الدينيين بصفة منتظمة قصد تأهيلهم والرفع من مستوى أدائهم".

ويتجلى أيضا عمل المجالس العلمية في التكوين الجيد للقيمين الدينيين في إعلان برنامج ميثاق العلماء، وإصدار دليل الواعظ والمرشد.

1 - برنامج ميثاق العلماء:

لقد تم الإعلان عن خطة ميثاق العلماء من لدن أمير المؤمنين الملك محمد السادس إبان افتتاح الدورة السابعة للمجلس العلمي الأعلى في ليلة 27 رمضان 1429هـ الموافق لـ 28 شتنبر 2008م بتطوان.

ففي خطاب جلالته المعلن عن مشروع ميثاق العلماء، حدد أمير المؤمنين الملك محمد السادس ماهية ومضمون هذا الميثاق، في قيام العلماء بمهامهم باعتبارهم أئمة يهدون بأمر الله، قصد غاية تأهيل أئمة المساجد، ونشر التوعية الدينية العامة لسائر المواطنين وفق مبادئ "الإسلام الوسطي السمح" وذلك بقوله السامي: (... وفي هذا الصدد، قررنا تدشين مرحلة جديدة من الإصلاح الديني، بإطلاق خطة رائدة، هي "ميثاق العلماء"، باعتبارها برنامجاً نموذجياً للتوعية والتنوير، يقوم على حسن أدائكم لأمانة الإرشاد والتفقيه في الدين عن قرب، وهو ما يقتضي من العلماء الانكباب على تأهيل أئمة المساجد، فضلاً عن الانتشار في البوادي والمدن، لتوعية عامة الناس وتوجيههم ومحاربة وتفنيد أباطيل التطرف".

ومن ثم جاءت هذه الخطة الدينية الرائدة لتعبر عن إرادة المملكة المغربية في تجديد وظيفة العلماء، من خلال توجيه وتعبئة جهودهم الفكرية والتعليمية للإشراف على التكوين العقدي والمذهبي والسياسي للأئمة والقيمين الدينيين بالمساجد، بما ينسجم مع مبادئ الإسلام السني الوسطي. المرتكز على: العقيدة الأشعرية والفقه المالكي والتصوف وإمارة المؤمنين، ويسهم في الآن نفسه في تحصين الحقل الديني من الاختراقات الخارجية عن عقيدة أهل السنة والجماعة، والتي ظهرت في تجليات متعددة منها: الغلو في الدين، والتطرف والإرهاب والتشيع والتنصير والوهابية والإلحاد، وفرق عقدية أخرى تعادي كلمة السواء في التدين الصحيح للأئمة.

ومنذ ذلك الحين والمؤسسة العلمية تنكب على تسطير برنامج التأطير وإعداد مادته، وتوجت جهودها في هذا المجال بإصدار دليل خطة الميثاق، يكون مرجعاً مرشداً يعين المؤطرين على النهوض برسالتهم في تكوين أئمة المساجد، والارتقاء بمستواهم المعرفي والعلمي، وتعزيز توحدهم حول الثوابت الوطنية للأئمة واختياراتها عقيدة ومذهبا وسلوكا، وتمكينهم من استعادة دورهم الريادي في المسجد والمجتمع.

2 - دليل الإمام والخطيب والواعظ:

وفي ذات السياق وصيانة للثوابت الدينية والوطنية، أصدرت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية "دليل الإمام والخطيب والواعظ" ليكون رهن إشارة الأئمة والخطباء والواعظ مرجعا في أدب ما هو مطلوب منهم في مهمتهم، من قبيل التذكير وتوحيد الرؤية وبيان التأصيل.

فمهمة القيمين الدينيين، الأئمة والواعظ والخطباء، هي حماية الوحدة العقدية والمذهبية للمملكة. فجاء هذا الدليل قصد التذكير بالثوابت الملزم بها، مع ما يقتضيه الأمر من تطوير وظيفة القيم الديني وتشجيعه على تعميق معارفه وإتقان أدائه، انطلاقا من اعتبار وظيفته هي من وظائف الأمة الممثلة في الإمامة العظمى إمارة المؤمنين.

فالهدف من هذه الأداة التربوية هو تعميق شعور القيم الديني بمسؤوليته، وإعانتة على تطبيق منهجية موحدة في منطلقاتها وأهدافها في محله وبيئته ومحيطه.

ولهذه الغاية جاء الدليل متضمنا لخلاصات في موضوع العقيدة والمذهب والتصوف، كما جاء متضمنا لأحكام أساسية في مجال فقه العبادات، مما جرى به العمل في المغرب.

وقد ورد في مقدمة هذا الدليل كلمة جامعة مانعة توجيهية في أداء مهمة المؤطر الديني للسيد معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية أحمد التوفيق، نجتزئ منها ما يلي: "وضع علماء المسلمين تأليف في أدب العلماء، وأدب أئمة المساجد وخطبائها، وأدب المفتين والمستفتين، وأدب القضاة والحكام وأهل الحسبة؛ تأليف ترشد وتقيد وتبين أصول تلك التوجيهات في الوحي وفي الهدى النبوي، وحكمة الحكماء؛ تأليف تنبه إلى خطورة هذه الوظائف، وعظمة النفع المرجو منها إذا أداها القيمون عليها حق أدائها.

ففي ثانيا مواد هذا الدليل عناصر من ذلك الأدب، في ما يتعلق بالإمام والخطيب والواعظ بمساجد المملكة المغربية، عناصر تذكير بما هو مؤصل في الدين وما جرى عليه عمل أسلاف المغاربة الذين وفوا لهذا الدين وخبروا جوانب مقاصده ومصالحه في بيئة بلد أسهم في التاريخ الغني للأمة الإسلامية، فوجب أن يعرف إسهامه ويحفظ له.

وقد دعت الضرورة في هذا العصر إلى الانتقال بهذه الأخلاق الموروثة من صيغة الاقتراح الإرشادي إلى صيغة التقنين التعاقدي، عمل تحيين يقوّي جانب الأئمة والخطباء والواعظ، ويحمي المساجد من التشويش الذي ينافي الطمأنينة التي يتطلبها عامة الناس.

فالأئمة والخطباء والوعاظ أهل وفاء وصفاء في هذه الأمة المغربية، والشكر لله على ذلك، وهم أهل التربية العظمى، التربية على الوحدة والوسع الفكري والأخوة الإيمانية والحس السياسي المنطلق من الأخلاق والثوابت في الدين.

فعسى أن يعم النفع بهذا الدليل وتتقوى بتذكيراته وإشارات همة الأئمة والخطباء والوعاظ، وهم يجتهدون في مهمتهم النبيلة".

ثالثا: معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات:

ووعيا من أمير المؤمنين محمد السادس حفظه الله بنبل وشرف المهام الدينية ومقاصدها الشرعية في حفظ الأمن الروحي للمواطنين، والحفاظ على الهوية الوطنية والدينية للمملكة، وترسيخ قيم الإسلام السمحة الداعية إلى الوسطية والاعتدال، وأثرها في بناء المجتمع. وإدراكا من جلالاته بالدور الذي يقوم به الأئمة والمرشدون والمرشدات في التوعية الدينية للناس، والحاجة إلى تطوير أدائهم. وسعيا إلى فسخ المجال للدول الصديقة والشقيقة في الاستفادة من التجربة المغربية، في مجال تأهيل وتكوين واستكمال التكوين للقيمين الدينيين، أصدر أمير المؤمنين أعزه الله الظهير الشريف رقم 103-14-1 بتاريخ 20 من رجب 1435هـ/ ماي 2014م في شأن إحداث معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات (الجريدة الرسمية: عدد 6286 بتاريخ 26 يونيو 2014م).

ويعهد إلى المعهد تكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات تكوينا يؤهلهم للقيام بمهمة التبليغ لأحكام الشريعة الإسلامية، وبيان مقاصدها وإبراز سماتها، ووسطيتها واعتدالها، والمساهمة في الحفاظ على الوحدة الدينية للمجتمع وتماسكه ضمن ثوابت الأمة، والمشاركة في الأنشطة الدينية والتربوية والثقافية.

والتجربة المغربية في هذا المجال تعد رائدة في مبادراتها حيث استطاعت أن تلفت إليها أنظار العديد من الدول الإسلامية، في إفريقيا تحديدا، من أجل الاستفادة منها وتأهيل أئمة يتبنون قيم الوسطية والاعتدال، ويشيعونها بين الناس في وقت تعرف فيه المنطقة تنامي التطرف والتشدد والغلو في الدين، وما لذلك من آثار سلبية على الأمن والاستقرار. وتعتبر مالي من أولى الدول التي استفادت من التجربة المغربية في هذا المجال، ثم تلتها العديد من الدول الإفريقية الصديقة.

ويرتكز تأهيل المغرب للأئمة والمرشدين الدينيين، وفق الرؤية الرشيدة لأمير المؤمنين الملك محمد السادس، على "توفير تكوين علمي وديني متنور، متشبع بقيم الوسطية والاعتدال، وبالتلازم بين الحفاظ على الثوابت الإسلامية، ونهج الاجتهاد والانفتاح، بما يجعل قيم ديننا الحنيف، في انسجام مع اختياراتنا الوطنية، ومع توجهات العصر.

وهو ما جعل النموذج المغربي في تدبير الشأن الديني يحظى بالتقدير والاهتمام، على المستوى القاري والدولي".

وكذلك اقتسام المغرب تجربته مع البلدان الراغبة في الاستفادة منها، كما جاء به التأكيد في الخطاب الملكي السامي بالمناسبة: "فإننا حريصون على وضع التجربة المغربية رهن إشارة الدول الشقيقة التي تتقاسم مع المغرب التشبث بنفس المبادئ والقيم الروحية، والتي عبرت عن رغبتها في الاستفادة من النموذج المغربي، كما هو الشأن بالنسبة للتعاون في مجال تكوين الأئمة".

رابعا: مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

لقد أصدر مولانا السلطان أعزه الله ظهيرا شريفا رقم 1.15.75 صادرا في 07 رمضان 1436هـ/ 24 يونيو 2015م يتعلق بإحداث مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

وقد اشتمل هذا الظهير الشريف على ستة أبواب وثلاثة وثلاثين مادة تنظيمية: تناول الباب الأول منها أحكام عامة، ومن أبرزها تحديد مقر المؤسسة بمدينة فاس. الباب الثاني يشمل أهداف المؤسسة. الباب الثالث يتحدث عن العضوية في المؤسسة. الباب الرابع يتحدث عن أجهزة المؤسسة وعن مهام المجلس الأعلى للمؤسسة، وبرنامج عمله السنوي. الباب الخامس يوضح التنظيم المالي للمؤسسة. الباب السادس والأخير يتضمن أحكام عامة.

وهذا ذكر لأهداف مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة:

ويشملها الباب الثاني من الظهير الشريف المنظم لعمل المؤسسة وتتمثل في الأهداف الآتية:

- توحيد وتنسيق جهود العلماء المسلمين، بكل من المغرب وباقي الدول الإفريقية، للتعريف بقيم الإسلام السمحة ونشرها وترسيخها.
- القيام بمبادرات في إطار كل ما من شأنه تفعيل قيم الدين السمحة في كل إصلاح تتوقف عليه عملية التنمية في إفريقيا سواء على مستوى القارة أو على صعيد كل بلد.

- تنشيط الحركة الفكرية والعلمية والثقافية في المجال الإسلامي.
- توطيد العلاقات التاريخية التي تجمع المغرب وباقي دول إفريقيا والعمل على تطويرها.
- التشجيع على إقامة المراكز والمؤسسات الدينية والعلمية والثقافية.
- إحياء التراث الثقافي الإفريقي الإسلامي المشترك من خلال التعريف به ونشره والعمل على حفظه وصيانه.

- ربط الصلات وإقامة علاقات التعاون مع الجمعيات والهيئات ذات الاهتمام المشترك.

وتعد مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة صرحاً جديداً في رفع القواعد الأساسية لصرح الأمة الإسلامية في العديد من البلدان الإفريقية، وقد جاءت هذه المبادرة الملكية لتعزيز مبادرات سابقة والتي باشرها أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله خلال العقود الأخيرة، والتي تؤكد على العزم الصادق والالتزام الموصول لأمير المؤمنين من أجل النهوض بقيم الإسلام السمحة، ويتجلى ذلك على الخصوص في بناء العديد من المساجد بعدد من الدول الإفريقية، والحضور المنتظم للعلماء الأفارقة في الدروس الحسنية الرمضانية، وإحداث رابطة علماء المغرب والسنغال، وإحداث معهد الدراسات الإفريقية، وتنظيم ندوات حول الطرق الصوفية، ومنح عدد من الدول الإفريقية نسخاً من المصحف المحمدي الشريف. هذا بالإضافة إلى العديد من المبادرات الإنسانية القوية التي تؤكد مدى قيمة الروابط التاريخية والروحية التي تجمع المملكة المغربية وباقي الدول الإفريقية.

خامساً: تجليات دور المؤسسات المغربية في دعم وتثبيت سيادة الوحدة الدينية والوطنية

إن العلاقة الوطيدة بين الأمن الروحي وبين سيادة الوحدة الوطنية للمملكة المغربية، هي علاقة وثيقة ومتلازمة. فإذا كان المقصود بالأمن الروحي هو الحفاظ على الثوابت الدينية، مما قد يعترضها من أخطار تأتي من الداخل أو من الخارج، وصون الهوية الدينية من الآفات والمنزلات والتحريفات، فإن سيادة الوحدة الوطنية هو حماية الاختيارات الديمقراطية، من التشويش على تماسك نسيج المجتمع المغربي والحفاظ على مكتسباته التاريخية والمشروعة بما يكفله دستور المملكة المغربية في ظل رعاية إمارة المؤمنين.

وبما ورد أيضاً في ديباجة الدستور: بأن الدين الرسمي للدولة هو الدين الإسلامي. والذي يشكل مصدراً للوقاية ضد الأخطار التي تهدد الوحدة الوطنية، والمناعة ضد كل ما من شأنه أن يضعف كيان الدولة، ويمزق النسيج الوطني، ويتسبب في فتنة الناس في دينهم، ويؤدي إلى الفوضى

العارمة التي تفضي إلى الفساد في الاعتقاد، والفساد في الفهم، والفساد في السلوك، والفساد في الأرض بوجه عام.

وتقوم السيادة المذهبية على قاعدة الأمن الروحي، بل هي تجسيداً للأمن الروحي نفسه. ولذلك فإن حماية السيادة المذهبية هي عين الحفاظ على السيادة الوطنية وجوهرها. ومن أجل ذلك، فإن أمير المؤمنين محمد السادس حفظه الله سلك طريقاً قويا في تعزيز الحفاظ على الأمن الروحي للمواطنين بإنشاء المؤسسات العلمية والدينية رعاية للوحدة الوطنية عن طريق رعاية الوحدة الفكرية والمذهبية للمغاربة.

فكان من ضرورات صيانة الوحدة الوطنية صيانة الأمن الروحي في مجال التصدي لكل الانحرافات الضالة والمعتقدات الفاسدة والتأويلات المغرضة والتفسيرات الخاطئة التي تثير الفتنة الدينية، والتي تؤدي إلى تمزق النسيج الروحي والفكري ومنه إلى النسيج الوطني، بشتى الأساليب وكافة المناهج المغرضة، مما يقتضي مواجهة الفكر المنحرف والضال داخل الوطن وخارجه بنشر الأفكار السوية، والتصدي للتطرف والغلو والتشدد بالاعتدال والوسطية.

لذلك ومنذ اعتلاء أمير المؤمنين الملك محمد السادس العرش في 30 يوليوز 1999م وهو يولي عنايته الفائقة ورعايته الكبيرة لمشروع تأهيل الحقل الديني بالمغرب.

وكما سلف بيانه، فقد أعيدت هيكلة هذه المؤسسات جميعها مركزيا وجهويا وإقليميا، وتمت تقويتها بشريا وماديا لمواكبة كل التغيرات والتطورات، وذلك بما يضمن صحة التدين في العبادات والمعاملات، وكذلك صون حرمة بيوت الله من كل زيغ في الدين من لدن شرذمة المتطرفين والغلاة ودعاة الفتنة، وبالتالي صون حرمة الوطن والمواطنين.

ففي ظل تنامي ظاهرة التطرف الديني، وكثرة فصائل السلفية الوهابية أو الجهادية، والانتشار الخطير لمنابر الفتاوى الشاذة... تنوعت مجالات تأهيل الحقل الديني بالمملكة من لدن جلالته من أجل تنزيل الرؤية الملكية للحقل الديني بالمغرب.

فشكلت بذلك المؤسسات الدينية وخاصة المجالس العلمية المكلفة بضبط الخطاب الديني وتوحيده وفق الثوابت الدينية للمملكة عقيدة وفقها وسلوكا حصونا منيعة للتأطير الديني للمواطنين. وكذا الرابطة المحمدية للعلماء ومؤسسة دار الحديث الحسنية ومعهد محمد السادس

لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشحات، بالإضافة إلى مؤسسة محمد السادس لطبع المصحف الشريف ومؤسسة محمد السادس للنهوض بالأعمال الاجتماعية للقيمين الدينيين، ناهيك عن مديرية التعليم العتيق ومديرية المساجد ودورها الكبير في إشعاع ثقافة التسامح والحوار الحضاري.

ويعتبر الإعلام الديني في المغرب، إحدى الروافد الكبرى للتواصل مع الناس في قضايا دينهم ومعارفهم العلمية والروحية. ويتجلى ذلك خاصة في إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم؛ هذه الإذاعة التي حازت الرقم الأول لدى المستمع المغربي. وأيضاً قناة محمد السادس للقرآن الكريم والدور الكبير الذي تقوم به في التعريف بالإسلام الوسطي، وكذلك تعريف الناس بعقيدتهم، وتكوينهم في التفقه في الدين في مجال العبادات والمعاملات. وأيضاً توعية الناس بالمرتكبات البانية للوحدة الوطنية. ويعد هذا الإعلام أيضاً سبيلاً لنشر ثقافة السلم والتعايش بين الثقافات والحضارات والأديان داخل المملكة.

كما لا يفوتني التذكير بالاهتمام الكبير الذي أولاه أمير المؤمنين لمادة التربية الدينية بالمدرسة المغربية في التعليم العمومي والتعليم الخاص والتعليم العتيق، في اتخاذ العديد من التدابير المستعجلة والمهيكلية، تتوخى ضمان جودة التعليم الديني، ومراجعة مقررات تدريس مادة التربية الدينية في مجال إنجاز مقررات تروم التربية على القيم السمحة وفي صلبها المذهب المالكي السني الداعي إلى الوسطية والاعتدال، وإلى التسامح والتعايش مع مختلف الثقافات والحضارات الإنسانية. وأن تركز هذه المقررات على القيم الأصيلة للشعب المغربي، وعلى عاداته وتقاليده العريقة القائمة على التثبث بمقومات الهوية الوطنية الموحدة، الغنية بتعدد مكوناتها، وعلى التفاعل الإيجابي والانفتاح على مجتمع المعرفة وعلى مستجدات العصر.

وفي الختام:

فإن آليات الحفاظ على الوحدة الوطنية متعددة ومتنوعة وهي رهينة على الخصوص برعاية الشأن الديني للمواطنين، السبيل الأمثل لتحصين العقول والأفئدة من كل الشوائب المضلة للعقل البشري. سيرا على النهج النبوي الكبير الذي شيد صرح الدولة الإسلامية في البناء الروحي للأمة، ومنه البناء الأخوي للوحدة الوطنية، واتضحت معالم ذلك بعد الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية، ومنطلق الأخوة في الدين بين مكونات المجتمع الإسلامي مهاجريه

وأنصاره امتثالا لقوله تعالى : "إنما المومنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون"¹.

ولعل العمل في مجال الاشتغال بأمور الدين يعد من روائع السياسة المغربية في توحيد جهود العلماء في العطاء والتدبير، وفي مجال التأطير والتكوين لمجتمع سليم الفكر، مشبع بالغيرة على وحدته الوطنية من كل سالب لكرامتها أو كينونتها. كما يعتبر العمل ضمن المؤسسات الراعية لشؤون المواطنين في أمور الدين سدا منيعا أمام تشويش الغالين وانتحال المبطلين.

وها هو المغرب يواصل اقتسام رصيده الثقافي والروحي من خلال مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة مع العديد من الدول الإفريقية الشقيقة من خلال الدورات المنعقدة في مجال التواصل الأخوي والروحي، خاصة في التعريف بالإسلام الأشعري عقيدة والمالكي مذهباً والسني سلوكاً. بالإضافة إلى الارتباط الوثيق بعقد البيعة الشرعية بين المؤمنين في هذه الدول وإمارة المؤمنين بالمغرب، تحقيقاً لأمر الله عز وجل الذي أمر بالاعتصام بحبل الله من خلال البيعة الشرعية. ومن هنا يتضح جلياً، بأن إمارة المؤمنين تعد رافداً قوياً في نشر كلمة السواء والسهر على حماية الشأن الديني من كل كيان هادم ومغرض. وهو الدرع الحصينة الذي به تصان الوحدة الوطنية للمملكة المغربية الشريفة داخل الوطن وخارجه.

1 - سورة الحجرات: الآية 10.

مفالات عامة

الدلالة الرمزية لمبدأي الإذن والعهد في علاقة الشيخ بالمريد الزاوية القادرية البودشيشية نموذجاً

د. نور الدين بلغازي
أستاذ باحث

يعتمد منهج التأطير والتأهيل والبناء في الزاوية البودشيشية على مبدأين أساسيين هما: الإذن والعهد. فهما يتميزان بدلالات رمزية دينية كبرى، يتحدد من خلالها فهم مجتمع الزاوية وبنائه وهيكله، والرباط الإيماني والوجداني في علاقة الشيخ بالمريد، وفي العلاقات الأفقية للذات التنظيمية للزاوية (علاقات «الفُقَرَا» فيما بينهم). كما يشكلان مادة التلحيم والرباط الروحي في هذه العلاقات، كمادة غير قابلة للانقطاع، وبعيدة عن كل المناحي المادية بالأساس¹.

نتناول في هذه الدراسة موضوع الانتساب إلى الطريقة القادرية البودشيشية، اعتماداً على هذين الركنين الأساسيين، في بناء وتحصين العلاقة بين الشيخ ومريديه من فقرا الطريقة، باعتبارهما آليتين فعاليتين في التأثير على «الفُقَرَا»، وتسهيل عملية جذبهم وإدماجهم في هوية الطريقة والانخراط فيها، ولمعرفة تدابير الإدماج سنسلط الضوء عليهما من خلال محورين اثنين:

المحور الأول: العهد والإذن ركيزتان لشرعنة سلطة الشيخ في التربية الصوفية،

لا يمكن الخوض في تحليل مفهوم العهد عند الصوفية عموماً، وعند الزاوية القادرية البودشيشية خصوصاً، دون التطرق إلى مفهوم آخر له من الأهمية ما يسمح بتعميق الفهم في الدور الذي يقوم به العهد في حياة الفقير، باعتباره أحد أشكال التعاقد أو الرباط الذي يجمعه بشيخ الطريقة، وكذلك باعتباره يمثل بداية خضوعه لوسائل الضبط الاجتماعي، بما يفرضه عليه من واجبات اتجاه الشيخ وفقرا الطريقة والزاوية، نخص بالذكر مفهوم الإذن، الذي سيساعدنا على فهم القواعد الحاكمة بين الشيخ

1 - جعفر سعيد، الزاوية والحزب بالمغرب: أصول الاستبداد السياسي، منشورات فكر، سلسلة دراسات وأبحاث، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2014م، ص 105-110.

والمريد قبل إعطائه العهد، ولتعميق المعرفة بهذا المفهوم وتفسيره، سنحاول ربطه بمفهوم الإرادة، لما يثيره من جدل عند الحديث عن العلاقة التي تربط الشيخ بالمريد، ما يجعلنا نتساءل عن دلالة المفهومين لدى الصوفية وعند «الفُقَرَا» البودشيشيين، ومدى تأثيرهما فيهم.

إننا نبحث في هذا المحور عن معنى الإذن في اللغة وعند الصوفية، ونرصد تمثل فقرا الطريقة القادرية البودشيشية للإذن. كذلك نحاول تسليط الضوء على مفهوم الإرادة عند الصوفية، لإبراز العلاقة التي تربط المفهومين ببعضهما، كما نتطرق إلى دور الإذن في عملية انتساب الفقير إلى الطريقة/ الزاوية، أيضاً نعرض لأهمية إذن الشيخ في الطريقة، ويكون ذلك من خلال الإجابة عن سؤال: كيف يتمثل الصوفية مفهوم الإرادة؟، وهل لمريدي الطريقة القادرية البودشيشية إرادة؟، ما سيفسر بعض الممارسات التي يقوم بها «الفُقَرَا» بعد أخذ العهد.

1 - تعريف الإذن

من معاني الإذن في اللغة إطلاق الفعل والإباحة²، فيقال: أذنت له في الشيء إذا أبحت له، وسمحت له بفعله. وقال ابن الكمال: الإذن هو فكّ الحجر وإطلاق التصرف لمن كان ممنوعاً شرعاً³. ولم يخرج الفقهاء في استعمالهم للإذن عن معناه اللغوي، قال الوحيد البهبهاني: "الإذن هو الرخصة، والرخصة رفع المانع من طرف الآذن"⁴. وقد ورد الإذن بمعنى التفويض: وهو لغة جعل الشيء إلى غيره، وعند الفقهاء أيضاً تصيير الأمر إلى غيره وجعله الحاكم فيه، كما يأتي بمعنى الإجازة، وتدلّ على الإعلام بإجازة الشيء والموافقة والرخصة فيه⁵.

ويأتي الإذن في الاصطلاح الصوفي بمعنى: "ألا يأتي المريد من أمر دينه ودينه شيئاً إلا بعد إذن شيخه له فيه"⁶. وهو ما يجعل للشيخ السلطة التامة على المريد.

2 - المصباح المنير، الجزء الأول، ص 9. في الموسوعة الفقهية، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، الجزء 8، ص 272. في موقع: <http://ar.lib.eshia.ir>. تمت مراجعة الموقع بتاريخ: 2017/10/11م.

3 - تاج العروس، الجزء التاسع، ص 119. نفس الموقع.

4 - البهبهاني الوحيد محمد باقر بن عبد الكريم، حاشية مجمع الفائدة والبرهان، تحقيق ونشر: مؤسسة العلامة المجدد الوحيد البهبهاني، الطبعة: الأولى 1417هـ، الجزء الأول، ص 226. PDF في موقع www.narjes-library.com. تمت مراجعة الموقع بتاريخ: 2017/11/12م.

5 - المبسوط، الجزء الثاني، ص 292. في الموسوعة الفقهية ...، ص 272. في موقع: <http://ar.lib.eshia.ir>. تمت مراجعة الموقع بتاريخ: 2017/10/11م.

6 - القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب-الرباط، الطبعة: الأولى - من سنة 1977م إلى 1986م، الجزء الأول، ص 96.

2 - مفهوم الإذن عند الطريقة القادرية البودشيشية

يقوم الطريق الصوفي على التربية والتلقين والإرشاد والتوجيه من قبل شيخ الطريقة، وعلى الطاعة والالتزام والأدب من قبل المريد، ولما كان سلك الطريق عند أهل التصوف يقوم على التربية والإرشاد، فينبغي للمريد أو السالك ألا يخوض في أمر، ولا يتقدم خطوة إلا بإشراف الشيخ الحي المربي المرشد، الذي توافرت فيه شروط التكليف الرباني بالتربية والتلقين.

ويعتبر أخذ الإذن من أهم ما أقره مشايخ الصوفية، من آداب وشروط يجب على المريد التحلي بها، إذ يعتبر تطبيقاً لكل الأخلاق والقيم الصوفية⁷ التي تلقاها عند سلكه الطريق، كما يعتبر أحد المؤشرات على ترسيخ قيم الطريقة لدى المريد، ومدى التزامه بها وخضوعه لمبادئها، فالعلاقة بين الشيخ والمريد تقوم أساساً على الحب والتسليم والطاعة والامتنان له والاعتقاد فيه.

إذا كان الإذن يحظى بأهمية قصوى عند الصوفية، فذلك راجع لكونه: يشكل بالنسبة لشيخ الزاوية المرجعية (السند) لنشر الطريقة، وأساس العلاقة التي تربط بين الشيخ والمريد، وأيضاً يعتبر الأداة التي تعضد بنية "العهد"، باعتباره العنصر الأساسي في عملية بناء وترسيخ سلطة الشيخ ونفوذه في الطريقة.

3 - الإذن: السند الروحي والمرجع الشرعي لنشر الطريقة

وحسب تعبير الصوفية⁸: الإذن "يأتي من الحضرتين: الأحدية والمحمدية" أي أنه يكون من الله ومن الرسول، وأيضاً من الشيخ المؤسس إلى شيخ آخر، أو أحد المريدين المفوض لهم بذلك، وهو ما

7 - الشاذلي عبد اللطيف، التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل، مطبعة سلا، 1989م، ص 144.

8 - سئل الشيخ الوزاني عمن ادعى أن الله ورسوله أذنا له في تربية الخلق، وأنه يتكلم في جميع أحواله بإذن الملك الحق، فأجاب رحمه الله: "أما دعوى الإذن من الله ورسوله في تربية الخلق فلا غرابة فيها إذا صدرت من أهلها وقضت القرائن الحالية والمقالية بصدقها، وقد ادعى ذلك غير واحد، كالجيلاني والشاذلي رضي الله عنهما وغيرهما من الأكابر المسلم لهم في علم الباطن والظاهر، وشواهد من الكتاب والسنة كثيرة مذكورة في كتب القوم، ويقول الإمام الشعراني: "ومن شروطهم أن لا يجلسوا في مقام المشيخة إلا إن أجلسهم أستاذهم أو نبيهم من طريق كشفهم الروحاني، أو يجلسهم ربهم بما ألقى إليهم في سرهم من طريق الإلهام الصحيح". ونصوص الصوفية في اشتراط الإذن كثيرة نظراً لخطورته فهو أي الإذن شهادة على أن الشخص مؤهل لسلك الإرشاد لا رغبة منه في التربع على ذلك المنصب استجابة لداعية هواه. في، "شروط الشيخ المربي عند الصوفية" موقع نفحات الطريق <http://www.nafahat-tarik.com/>، تمت مراجعة الموقع بتاريخ: 2017/02/12م.

يعبر عنه بالسر⁹. ويخول حصول الشيخ على الإذن بالتربية والتلقين إعطاء الإذن في سلك الطريق، وتلقين الأذكار والأوراد، أيضاً يخول له تفويض إعطائه في بعض الأذكار والأوراد العامة والخاصة لمقدمي الطريقة في فروعها، والإذن ليس مقصوراً على الحياة الروحية للمريد بإعطائه الأذكار والأوراد والتفويض فيها، بل يتعداها ليخص كل ما يرتبط بحياة المريد الدنيوية، حيث يمكن للشيخ التدخل حتى في أمور تتعلق بأسرة الفقير وأقاربه وجيرانه وأفراد مجتمعه¹⁰، وهو ما يفسر عظمة المسؤولية الملقاة على عاتق الشيخ المأذون، ولذلك يجعل أهل التصوف أمر تصدر المشيخة، مرهونا بحصول الإذن من طرف شيخ مأذون للدلالة على الله، وبسند متصل برسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

يتضح مما سبق الأهمية التي يحظى بها الإذن عند الصوفية، حيث لا يمكن تربية وإرشاد «الفُقَرَا» وتزكية نفوسهم دون الحصول عليه، وإلا فهناك خطر على الشيخ إن لم يكن مأذوناً وعلى مريديه، لأن هناك أذكارا تحتاج لإذن خاص بها، ويجب على من يعطيها بيان سنده المتصل بهذه الأذكار والأوراد. ومما تجدر الإشارة إليه، أن لكل ورد أو ذكر منافع وآثاراً خاصة به، تؤثر في قابلية المريد الذي قد تناسبه بعض الأوراد دون أخرى، كما أن بعض الأوراد أو الأذكار تكون علاجاً لداء بعينه من أمراض النفوس والقلوب، فلا تصلح لمن خلا منها.

وتعزيزاً لأهمية الإذن عند الصوفية، يماثل الشيخ و«الفُقَرَا» المسؤولين دائماً، بين وظيفة الشيخ بالنسبة للمريدين والطبيب، فالشيوخ الصوفية هم الذين اختصوا بمعالجة الأمراض القلبية والعلل النفسية وتطهير الروح، إنهم يعطون الدواء للمريدين حسب الداء، فلكل مريد داء ودواء. وهناك مؤلفات وتراجم عديدة مليئة بطرق وصيغ العلاج التي خص بها الشيوخ مريديهم، فقد وضع هؤلاء لكل صيغة تأثيراً قلبياً خاصاً، ومفعولاً نفسياً معيناً. فقد يأمر الشيخ مريده بلبس المرقع خاصة إن كان يعلم أن في المريد كبرياء واعتزازاً باللباس الفاخر، ويسمي الصوفية هذا بخرق

9 - "السر في مقامات السلوك الصوفي درجة تأتي بعد ثبات القلب [...] وهو من أسمى درجات الورع وأرقى مقامات المراقبة لله الذي يعلم السر وأخفى" سورة طه، الآية 7. ويقول الصوفية: فلان ذو سر أو صاحب سر، أي ذو إمدادات نورانية تليق بالقلوب القاسية، وتحمل السالكين والسائرين على حث المطايا، وإسراع الخطى. وفي الأثر: الإخلاص سر من أسرار أودعه قلب من أحببت من عبادي". في قسطاس أحمد، نبراس المريد في طريق التوحيد، منشورات مجلة المريد، مطبعة فضالة، 1415/1414 هـ. ص 32.

10 - جاد الله منال عبد المنعم السيد، أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية: دراسة أنثروبولوجية في مصر والمغرب، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، سنة 1990م، ص 175.

العادة، ومن الأدوية أيضاً، أن يأمره بالصوم والصمت والعزلة والسهر، والإكثار من الأذكار وقراءة القرآن، وغير ذلك من الرياضة والمجاهدة لتزكية النفوس وتطهيرها، وعلاجها من الأمراض القلبية والعلل النفسية. ولذلك لابد للمريد السالك أن يكون على صلة بشيخ خبير بعلوم طب النفوس، مأذون لذلك¹¹.

وتؤكد هذه الصورة في العلاقة بين الشيخ والمريد، "صورة الطبيب الذي يعالج ويعطي الدواء"، ذلك أن المتصوفة ينوعون من أساليبهم في التعبير والتصريح والكشف، باستعارتهم لمجموعة من المصطلحات تنتمي لحقول متعددة، لتفسير الرسالة وإيصالها إلى المتلقي، كما هو الشأن هنا حينما يستعان بمصطلحات الحقل الطبي (الطبيب، العلاج، الشفاء، الداء والدواء، المرض والعقاقير، الراديو، السكانير...). وهو ما يؤكد كون المصطلح الصوفي له وجهان: دلالة حرفية لغوية ظاهرية، ودلالة إيحائية رمزية قائمة على الانزياح والمجاز، وتستوجب هذه الدلالة الرمزية استخدام التأويل لشرح المعاني وتفكيكها¹².

من خلال الملاحظات والمقابلات التي أجريتها بالزاوية، يتضح أن الخطاب المتداول بين «الفُقَرَا»، يبنّي على قناعة تامة في كون الشيخ هو الطبيب المشافي، وأنه يملك من علوم تزكية النفوس الظاهرة والباطنة، ما يجعله على دراية ووعي باحتياجاتهم النفسية، وأنه يتمتع بإدراك حدسي وبصيرة عميقة لفهم النفسية الإنسانية. والحقيقة أن هناك تشابهاً كبيراً بين علاقة الشيخ والمريد "في التصوف"، وبين علاقة المحلل النفسي والمريض "في علم النفس"، من حيث التسليم والصراحة والطاعة التامة، وأيضاً من حيث الأدوات المستعملة (الصمت، والهدوء، وإغماض العينين، والسماع وحالات الجذب المرافقة له...). والذي يقابل استعمال الموسيقى الهادئة عند الطبيب النفسي...، حتى إنه من المفكرين الصوفية من أطلق على شيوخ الصوفية أطباء النفوس ومرشدي الأخلاق¹³.

11 - "صحبة الوارث المحمدي والمرشد الصادق تزايد المريد إيماناً وتقوى وأخلاقاً، ويشفى بملازمته وحضور مجالسه من أمراضه القلبية وعيوبه النفسية، وتتأثر شخصيته بشخصيته التي هي صورة الشخصية المثالية شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم." في، عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف...، ص 54. في موقع أريج: <http://www.arej.net>. تمت مراجعة الموقع بتاريخ 2017/07/17م.

12 - عزام محمد المصطفى، المصطلح الصوفي بين التجربة والتأويل، مطبعة ندا كوم، الطبعة الأولى، 1999م، ص: 140-141.

13 - صبحي أحمد محمود، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، دار المعارف، 1983م، ص 249-250.

يتحدث مقدم فرع الزاوية بمدينة المحمدية في مسألة الطبيب والدواء¹⁴، من خلال حوار معه: "يقول شيخنا رضي الله عنه، إن الأذكار كالدواء فلا يجوز التداخل بينها، فالطبيب يعطيك الدواء عندما تمرض، ولا يمكنك الشفاء إلا بتوقيف جميع الأدوية الأخرى التي تتناولها، والمحددة بوصفة طبيب آخر". وفي المجال الطبي يأمر الطبيب بعدم أخذ الدواء عن مريض يعاني نفس الأعراض، باعتبار أن نفس الأعراض لا تعني نفس الدواء، لكونه مرتبطاً بالسن والجنس والاستطاعة الجسمية وبمدة معينة. قياساً على ذلك، يأمر الشيخ «الفُقَرَا» بعدم إعطاء أورادهم لغيرهم دون إذن منه، وإن أخذ الفقير ذكراً خاصاً يكون قد أخذ إذناً مؤقتاً محدداً بالزمان، فلا تجوز المداومة عليه، لأن الأذكار والأوراد مرتبطة بالزمان والمكان، وهي أيضاً أذكار شخصية¹⁵، وذلك ما يوضح سر تكتم «الفُقَرَا» عن الإفصاح عن الأذكار أو الأوراد التي خصهم بها الشيخ، على اعتبار أنه ليس لهم الإذن بذلك.

4 - الإذن أداة تمتين العلاقة بين الشيخ والمريد:

تشكل عملية انتساب المريد إلى الطريقة/ الزاوية، إحدى المحطات الأساسية التي تجسد مدى أهمية الإذن في العلاقة التي تربط الشيخ بالمريد، حيث تظهر لنا أن الانتساب للزاوية وسلك الطريق لا يكون إلا بمشيئة ربانية وبإذن من الشيخ، وذلك ما سنوضحه فيما يلي:

إن مسألة الانتساب إلى الزاوية أو الطريقة القادرية البودشيشية ليست آلية (أوتوماتيكية)، وليست بالفكرة الذاتية الإرادية، أي الفكرة الاعباطية التي تأتي فجأة في لحظة كردة فعل على مسار دنيوي غير مرغوب فيه، فالأمر ليس كذلك بمقتضى الخطاب الذي يتداول داخل الزاوية بين «الفُقَرَا»، والذي يفيد أن المريد لا تتوفر لديه إرادة الانتساب إلى الطريقة. فحسب الساهرين على تسيير الزاوية وتأطير «الفُقَرَا» المنتسبين لها، ومن خلال المقابلات والملاحظات التي أجريتها، هناك اعتقاد راسخ لديهم، كون الانتساب إلى الطريقة القادرية البودشيشية نابع عن إرادة ربانية وإذن شيخ الزاوية، ويؤكد ذلك قول أحد «الفُقَرَا»: "الطريق عزيز لا يهتدي إليه سوى المختار". ويستخلص من ذلك أن مجيء المنتسب إلى الطريق لا يكون بالإرادة الشخصية للمريد، "إنها إرادة الشيخ

14 - يمكن مراجعة فيديو للشيخ حمزة يؤكد فيه أن "الشيخ طبيب لأفراض الباطن وأمراض النفس والقلوب". في : <https://youtu.be/KygW4gdbewI>. تم وضع الشريط بتاريخ 25 نونبر 2014م. تمت مراجعة الموقع بتاريخ 16 يونيو 2017م.

15 - في حديث مع مقدم فرع الزاوية بالمحمدية أثناء رحلة لزيارة الشيخ حمزة، يوم السبت 11 أبريل 2015م.

وإلهامه، وهمته هي التي تنقب عن ذوي النفوس الطاهرة، الذين يبحثون عن صحبة شيخ يسلكهم الطريق، يؤدب نفوسهم ويخلصهم من هواها، ويدلهم إلى الله¹⁶. ما يفيد، كون الشيخ هو الذي ينتقي أتباعه ممن يرغبون الدخول في الطريقة، ويأذن لهم بذلك إذا رأى فيهم الخير للطريقة. هذا الاعتقاد والخطاب لا تنفرد به الطريقة القادرية البودشيشية بل نجده كذلك لدى أتباع الطريقة الجازولية، حيث يؤكد أحدهم "أن شيخ الطريق يصطفي أتباعه ممن يرغبون الدخول" كما يؤكد أن انتماءه للزاوية هو شيء أزلي ومكتوب.

نستنتج مما سبق، أن إرادة المريد تنتفي ابتداء من لحظة الاختيار (اختيار الانتساب للطريقة)، لتفنى وتذوب في إرادة الشيخ، وكل ما سيأتي بعد هذا الحدث من تصرفات وأفعال وأقوال لن يكون إلا تعبيراً عن فكر الشيخ وإرادته، بل إن مفهوم الإرادة بالمعنى: الاصطلاحي الصوفي¹⁷ الذي يفيد: إرادة الله¹⁸ وإرادة العبد¹⁹ بالمعنى القرآني، ويعني "القصود والنية والعزم على الفعل. فمتى حصلت الإرادة صدر الفعل لا محالة"²⁰، كما جاء في قوله تعالى: «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً»²¹. وأيضا بمعناه الفلسفي، الذي يعرف بكونه "ملكة الاختيار

16 - في مذاكرة مع أحد أتباع الشيخ حمزة، وهو أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك، الدار البيضاء، طلب عدم الكشف عن هويته.

17 - يعتبر مصطلح الإرادة عنواناً لجدل كبير عرفه تاريخ الفكر الإسلامي بين علماء الكلام والفقهاء سال فيه من المداد أنهار وبحار، وما سياقنا للخوض فيه إلا محاولة منا، بشيء من الإيجاز، إبراز دوره وأهميته في فكر ومعتقد شيخ الطريقة والمنتسبين للزاوية لاعتباره من الدعائم الأساسية إلى جانب الإذن الذي يجب استحضاره لفهم أبعاد مفهوم العهد.

18 - الإرادة الإلهية بتعدد أبعادها كما جاء في قوله تعالى: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين" سورة البقرة، الآية 34. وقوله تعالى: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون" سورة يس، الآية 82.

19 - إرادة العبد، وهي وصف ذاتي للإنسان، ومصدر أول وأصيل لكل الحركات والسكنات، والرغبات والقصود، وجميع الاختيارات في أعمال القلوب والجوارح، قال أبو بكر الكلاباذي: (وأجمعوا أن الله خلق لهم الاختيار والاستحسان، والإرادة للإيمان، والبغض والكراهية والاستقباح للكفر). في: - التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 62؛ وانظر أيضاً للمقارنة، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبو طالب المكي محمد بن علي بن عطية الحارثي، تحقيق د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان، الطبعة الثانية، 1426هـ - 2005 م، الجزء الأول، ص 175.

20 - العسكري أبو هلال، الفروق اللغوية، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013 م، ص 35-36. في، الإرادة، رؤية مقارنة بين أهل السنة والصوفية، عبد العزيز الشامي، في، موقع الصوفية <http://www.alsoufia.com>. تمت مراجعة الموقع بتاريخ 2017/03/16 م.

21 - القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية 18-19.

والقدرة على اتخاذ القرار بكل حرية على الفعل أو الامتناع عنه²² ويفيد معنى الإرادة الحرة القصدية المخطط لها بشكل عقلي.

هذا المفهوم "الإرادة"، لا يبقى له نفس المعنى عندما يدخل الشخص الطريقة القادرية البودشيشية، إذ سيتغير المعنى لتصبح إرادة الفقير هي إرادة شيخه، يحب ما يحب شيخه ويكره ما يكرهه، لا يتوجه إلا لما أراده شيخه، وسيقتصر اعتقاده على معتقد شيخه. وهو تأكيد لما جاء على لسان القشيري في بيان ما يجب على المريد²³: "وأن لا يخالف شيخه في كل ما يشير عليه، لأن الخلاف للمريد في ابتداء حاله دليل على جميع عمره"، ويقول أيضاً: "ومن شروطه أن لا يكون بقلبه اعتراض على شيخه"²⁴.

ورغم أن فقرا الزاوية يرفضون كون الفقير مسلوب الإرادة في علاقته بشيخه، ويعتبرون أنفسهم أحراراً في اتخاذ قرارات تهم حياتهم في الطريق، إلا أن هذه الحرية، في اعتقادنا، في حقيقتها حرية مقنعة، إذ من الآداب والقواعد الأساسية في الطريق الصوفي فيما يتعلق بالعلاقة بالشيخ، أن الفقير لا يمكنه القيام بأي فعل داخل الطريق أو خارجه إلا بإذنه وتحت مشورته، وذلك ما عبر عنه السهروردي بأنه "لا بد أن يكون المريد مع شيخه مسلوب الاختيار في نفسه وماله"²⁵.

5 - أهمية إذن الشيخ في الطريقة القادرية البودشيشية:

تؤكد أهمية إذن الشيخ في الطريقة القادرية البودشيشية، في كون الانتساب إلى الطريقة لا يكون مباشرة، بمعنى أن الشخص عندما يريد الالتحاق بالطريقة، يذهب إلى الزاوية أو أحد فروعها،

22 - يعرف ديكارت الإرادة، بكونها "تلك القدرة القائمة على أنه باستطاعتنا القيام بالأفعال التي يعرضها الذهن علينا بكل حرية"، ويربطها بالحرية والعقل. وبناء على هذا المفهوم، فإن تخلف هاته الصفات حسب ديكارت تعطينا كائناً عبداً أو رضيعاً أو حجراً أو حيواناً... *نفس المعنى نجده عند إنجلز الذي يرى في الإرادة بأنها "لا تعني شيئاً إلا بالمقدرة على اتخاذ القرارات... فتتخذ القرار يعد فعلاً للإرادة" أي بمعنى أن الطابع الإرادي لفعل ما، يتمظهر حين يتطلب من الإنسان اتخاذ قرار بالتنفيذ واختيار وسائله الإجرائية.. في: الموسوعة الفلسفية، روزنتال (م) ويودين (ب)، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 5، بيروت، 1985م، ص 17.

23 - القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، دار النشر: مؤسسة دار الشعب - القاهرة، 1989م، ص 182.

24 - الصيادي أبو الهدى الرفاعي الخالدي محمد بن حسن وادي بن علي، قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980م، ص 278. انظر أيضاً، السعادة الأبدية فيما جاءت به النقشبندية، للعلامة محمد بن سليمان البغدادي الحنفي النقشبندي، مكتبة الحقيقة، طبعة جديدة، 2012م، ص 11.

25 - السهروردي شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد البكري القرشي، عوارف المعارف، تحقيق سمير شمس، دار صادر بيروت - لبنان، ص 364.

ليقدم للشيخ أو أحد مقدمي الزاوية طلب انتسابه، فيلبي طلبه بعد الاقتناع بشروط الانتساب. إذ أن الطريقة مسار يمر فيه الفقير بمراحل ومحطات لا يمكن خرقها، تبدأ بمجالسة «الفُقَرَا» في الزاوية، وحفظ الأذكار وترديدها جماعياً، وحضور المناسبات الخاصة بالطريقة، وهي فترة يحاول فيها الشيخ و«الفُقَرَا» المسؤولين التأكد من صدق وعزم طالب الانتساب، في انتظار 26 أن يؤذن له بأخذ العهد والالتحاق بالطريقة.

هذه الفترة مهمة بالنسبة للزاوية كتنظيم، إذ خلالها يتم البحث عن هوية وأحوال الشخص الذي يرغب في الانتساب لها²⁷: أين يعمل، حالته العائلية، نسبه، انتماءؤه؟ (بمعنى: هل كان منتسباً لزاوية أخرى؟)، وذلك يكون إما في إطار أسئلة مباشرة يقدمها المقدم أو أحد المسؤولين من «الفُقَرَا» في الزاوية، أو أثناء الحوارات التي تدور على مائدة (التريقة)²⁸، بعد الورد الذي يقام بعد صلاة العصر، أو على مائدة العشاء بعد الوظيفة.²⁹

نستنتج مما سبق أن الفقير وقبل أن يأخذ العهد، يتم ترسيخ الاعتقاد لديه من «الفُقَرَا» المسؤولين أو فقرا الطريقة القدامى، أن الشيخ اصطفاه وأذن له بدخول الطريقة، وأن وجوده بينهم لم

26 - تحرص بعض الطرق في إطار الجانب التنظيمي على وجود سجلات خاصة للضبط والتحقق من شخصية المريدين، وهناك من يشدد في عملية البحث في هوية من يريد الانتساب لطريقتهم، لدرجة الذهاب إلى الشرطة للبحث في سجلاتهم عنهم، مخافة أن يندس بينهم أشخاص غير مرغوب فيهم، من ذوي السوابق العدلية الاجتماعية السياسية، أو من لديهم مشاكل مع الجهات الرسمية. انظر، عبد الحكيم خليل سيد أحمد، المعتقدات الشعبية...، ص 53، 194.

27 - حث الشيخ حمزة (الفُقَرَا) على حسن اختيار المستقطبين للزاوية. وفي إحدى المذكرات بين «الفُقَرَا» سمعت أحدهم يقول بأن الشيخ لا يرغب في استقطاب من كان منتسباً لزاوية أخرى، لأن تطهير نفوسهم من معتقدات الطرق والتنظيمات الأخرى يستلزم وقتاً ومجهوداً.

28 - وجبة خفيفة، عبارة عن كأس شاي أو قهوة مع الخبز والزيت والعسل.

29 - "على مائدة العشاء التحق بنا المقدم سيدي أنس ومجموعة من «الفُقَرَا» بعضهم من قدماء «الفُقَرَا» وبعض مسئول الزاوية، سلمت على سيدي أنس بعد أن سألتني عن أحوالي، جلس إلى جانبي وقدمني إلى الجالسين وخاصة أحد «الفُقَرَا»، قدمني له على أنني أشتغل على دكتوراه موضوعها "البودشيشية". هذا الأخير قال له أنني أعرف الأستاذ لهلل (أستاذ جامعي من فقرا الزاوية)، بعدها سألتني مع من أشتغل، بمعنى من المشرف على موضوع الدكتوراه؟ قلت له الأساء والمكان، قال لي: لا أعرفهم. وبعدها ذكر لي مجموعة من أسماء الأساتذة الذين يشتغلون بالكلية التي أعمل بها وقال لي أنه يعرف حتى "المعلمة ديالكم"، يعني العميدة، وهو بذلك يريد أن يقول للحضور أنه يعرف أساتذة كثر، خلال الكلام سألته عن عمله، لم يجب عن سؤاله. اكتشفت فيما بعد، أنه فقير يعمل في مصلحة العمل الاجتماعي بالعمالة. لقد كان المقدم يلح في تعريفه بي وكأنه يريد أن يقول له أنني أنا الشخص الذي حدثه عني، أنا المنتمي الجديد للزاوية، وأنا الباحث المفترض، وأظن أن المقدم والخليفة المقربة منه، يبحثون عن هويتي وما هي الخلفيات التي تدفعني للزاوية، وبحكم القسم أو المصلحة التي يشتغل بها هذا الفقير والتي لها علاقات مع موظفي الداخلية من شيوخ ومقدمين، فانه يمكنه أن يقوم ببحث في شأني". مقطع من يومياتي في فرع الزاوية القادرية البودشيشية، هي ملاحظات دونتها عن الزاوية يوم الأربعاء 25 مارس 2017م.

يكن بإرادته بل هي بإرادة الشيخ وإرادة الله، لأن الشيخ اختاره في عالم الغيب، وهو ما يشير إلى أن هناك دلالة اعتقادية لدى أتباع الطريقة القادرية البودشيشية، في قدرات الشيخ في استكشاف عوالم الخلق وانتقاء أفضلهم ليكونوا من أتباع الطريقة، بما يكرس لديهم الشعور بأهمية طريقهم وطريقتهم التابعين لها، ويدفعهم للتشبث بها والالتزام بمبادئها وتعاليمها.

وتظهر أهمية الإذن أيضاً، في التزام «الفُقَرَا» بأخذ الإذن في كل ما يخص الحديث عن الزاوية وطريقتها، فأى شيء يهم الطريقة على المستوى التربوي الروحي أو التنظيمي أو التأطيري أو التواصل، يكون باستشارة الشيخ وبإذن منه، ومن المسؤولين المرخص لهم بذلك. ما يفسر الشعور لدى غير المتممين للطريقة، أن هناك تكتماً على إعطاء معلومات أو تجنب الخوض في بعض النقاشات من طرف «الفُقَرَا»، أو بعض المسؤولين بخصوص الطريقة، والسبب في ذلك، حسب ما توصلت إليه من ملاحظات، هو التزامهم بالإذن، كأحد مبادئ الطريقة، التي يتربى عليها الفقير، مهما كانت مكانته العلمية أو الاجتماعية، أو يتعلمها من أقرانه داخل الزاوية، وهو عدم إفشاء أسرارها، أو الوقوع في "آفة الإفشائية"³⁰؛ أضف إلى ذلك، كونهم غير مأذونين للحديث فيها³¹.

لجأت إلى فئة من «الفُقَرَا» تشكل النخبة المرموقة علمياً "النخبة العالمة"، تنتمي إلى حقل التعليم العالي، لكنني لم أتلق جواباً شافياً على أسئلتني، لكونهم غير مأذون لهم بالحديث أو الجواب عليها. فرغم أن الشيخ يقر بأن «الفُقَرَا» في الطريق وداخل الزاوية سواسية، يظهر الواقع أن هناك تراتبية ودرجات ومراتب في مجتمع الزاوية لا يمكن تجاهله³². لكن السؤال المطروح، والذي يظل عالماً ومحيراً هو: لماذا هذا الكتمان وعدم الرغبة في الإجابة؟ وما السر في ذلك؟

30 - معنى الإفشائية؟ الإفشاء يعنى هنا الصدع بـ "السر" حيث يجب أن يُكتم، وقد كان الصوفية دائماً يتحدثون عن ضرورة إخفاء السر عن غير أهله، حتى لا يتعرض لسوء الفهم حين "يفشى السر الصوفي" بين غير المؤهلين لتلقيه. انظر: "من أجل تجديد عمل الزوايا: رؤية استشرافية"، محمد التهامي الحراق. في موقع هسبريس:

<https://www.hespress.com/opinions/112481.html> . الأربعاء 22 يناير 2014م - 09:16. تمت مراجعة الموقع بتاريخ:

2017/12/14م.

31 - عندما أردت أن أجري بعض المقابلات مع فقراء الزاوية لأستفسر عن بعض النقاط التي تهم البحث، كنت أواجه بجواب، هل أخبرتك المقدم؟ هل أخذت الإذن لإجراء المقابلة؟ أيضاً عندما أردت أن أخذ صوراً للزاوية بمداغ أو النعيمة قال لي أحد «الفُقَرَا» المرافقين: إذا سألك أحد عما تفعله أخبره بأن لديك الإذن بذلك.

32 - في فكر الشيخ الناس متساوون أمامه وليس معناه متساوون فيما بينهم لأن الفكر الصوفي معروف بالتسلسل الهرمي مع الشيخ في القمة يتساوى الناس أمامه ولكنهم لا يتساوون فيما بينهم...

أول الأجوبة كان من خارج الزاوية، وهو أن «الفُقَرَا» يرفضون أن يكونوا موضوع بحث كيف ما كان نوعه، لذا تكون مشاركتهم في هذا الباب ضعيفة³³.

لكن الجواب الشافي، هو ذلك الذي توصلت إليه، عند دراسة مفهومي الإذن والعهد عند الصوفية عامة، والطريقة القادرية البودشيشية خاصة، لما يشكلانه من تأثير على بناء شخصية "الفقير" وتشكيلها، بما يتفق والبناء الفكري والاجتماعي للطريقة³⁴. حيث تتجلى مظاهر العلاقة بين الفقير وشيخه، ومدى القهر الذي تمارسه جماعة «الفُقَرَا» على الفقير المبتدئ بعد انتسابه للزاوية وحضوره داخل مجتمعها. ذلك أن الفقير في مساره الروحي لتزكية النفس وتطهيرها، مطالب بإبراز مدى تحليله (استيعاب وتملك) بالآداب الظاهرة والآداب الباطنة للطريقة، فهو ملزم بالظهور بنفس المظهر والأحوال وبالقيام بنفس السلوك، وأيضاً بالتعبير بنفس الأفكار.

ويقوم الامتثال والخضوع "التسليم التام" بدور أساسي في تلقين وتعليم قيم الطريقة ومبادئها، وفي ضبط العلاقة بين الفقير وشيخه. والالتزام بأهم مبادئ التصوف، وهو التسليم الكامل للشيخ مع عدم الاعتراض على أفعاله، والذي يعد من الضوابط الأساسية التي تبنى عليها الطريقة، كما تبنى عليه العلاقة بين المريد وشيخه، وهو ما يفسر سلوك وتصرفات هذه الفئة من «الفُقَرَا»، إن لم نقل كل المنتسبين للطريقة القادرية البودشيشية. فالامتثال والخضوع للشيخ وطريقته، مبدأ أساسي في الطريق، مما يشكل بالنسبة للفقير قوة ضاغطة توجه سلوكه وتصرفاته.

نستنتج مما سبق أن مبدأ الامتثال والانصياع إلى سلطة الشيخ، يجعل آراءه ومبادئ الطريقة فوق كل اعتبار، وغير خاضعة للنقاش، وهو ما يجعلنا نتساءل عن مدى التعارض بين سلطة الشيخ والقدرات النقدية والتقييمية للفقير (العالم أو العادي)، ومدى قدرته على الحفاظ على هذه القدرات إزاء سلطة الشيخ وطريقته ومنهجه خارج جماعة الزاوية، بمعنى آخر: أي سلطة يجب أن تحكم علاقة الفقير بشيخه وبالمجتمع، أهى سلطة الشيخ ومنهجه (الطريقة والمعرفة الروحية) أم سلطة العقل والعلم (المعرفة العلمية)؟

33 - في دردشة مع أستاذ جامعي ينتمي إلى مسلك علم النفس بالمحمدية. في إشارة إلى الدراسة التي قام بها الأستاذ الشرقاوي محمد الخبير في علم الاجتماع. تمت الدردشة في رحاب كلية الآداب - المحمدية، يوم 2017/06/15 م.

34 - الغندور محمد، علم النفس والصوفية، بحوث المؤتمر الرابع لعلم النفس في مصر، والجمعية المصرية للدراسات النفسية، يناير 1988 م، ص 695.

لقد اتضح من خلال الحديث مع مجموعة الفقراء باختلاف درجاتهم، أن سلطة الشيخ ورمزيتها (امتلاكه المعرفة الدنية)، بما تمثله من قيم ومبادئ للطريقة، أقوى من سلطة العلم (المعرفة العقلية والنقلية)، أو سلطة العالم والباحث، فصمت الباحث وعدم خوضه في حوار يمس الشيخ وطريقته ومجتمع «الفُقَرَا»، وعدم استطاعته أن يتخذ فيها قراراً أو موقفاً، واعتباره ذلك من أسرار الطريق، وكل محاولة في معرفة ذلك، يعتبر نوعاً من "التجسس" على «الفُقَرَا»، وعلى الطريقة البودشيشية، مما يكسبه الصمود أمام تساؤلات وفضول الباحثين من خارج الزاوية، ورضوخه وامتثاله لسلطة الشيخ التي تفوق سلطة العلم، لكون الشيخ يملك علم الباطن والظاهر، ولا يأذن لأحد بالحديث والنقاش في أمور تخص الزاوية. فهذا النوع من الأسئلة والنقاش، يعتبره «الفُقَرَا» من المحرمات، كأن المسألة مقدسة لا يجب الخوض فيها؛ خصوصاً أن "البحث في المقدس يعتبر إبطالا لمفعول قدسيته، أو شكلاً من أشكال انتهاك المحرم"³⁵.

وحسب محمد بنيعيش، فإن موقف الشيخ بنهي «الفُقَرَا» عن الخوض في "الشطحات الصوفية"، سواء على مستوى الدروس التوجيهية والتكوينية، أو على مستوى التحاور الفردي والجماعي الخاص بين الفقراء، إنما جاء تفادياً للوقوع في التأويلات المثيرة للشبهات، التي يمكن أن يستغلها الأعداء لإثارة القلاقل ومعاداة الطريقة. وقد جاء على لسان شيخ الطريقة قوله: "بأننا في الطريقة لا نحبذ الخوض في مثل هذه الإشكالات والمغمضات من الفكر الصوفي، وإنما ينبغي أن نخاطب الناس بما يستسيغونه ويعرفونه عبارة ومعنى، ملتزمين في ذلك بقول الله تعالى: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"³⁶. وحتى إذا اقتضى الحال التعبير عن بعض المحصلات الذوقية في الطريقة، فلا ينبغي أن يكون الخطاب مسموحاً به، إلا بين من هم في مستوى ذلك الذوق والمعنى، حتى لا تكون فتنة، ولا يفهم الكلام على غير محمله الشرعي، إذ طريقتنا محمدية في أقواله وسلوكه"³⁷. ويؤكد هذا الموقف خالد ميارة بقوله: "إن الشيخ هو الذي أمر بعدم إخراج شؤون الزاوية وأسرارها للعموم، معتبراً أنه لم يحن الوقت لذلك"³⁸.

35 - الزاهي نور الدين، المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، ط1، 2005م، ص17.

36 - القرآن الكريم، سورة الحشر، الآية 7.

37 - بنيعيش محمد، الطريقة القادرية البودشيشية شيخ ومنهج تربية، مطبعة إباح، الدار البيضاء، الطبعة الأولى: 1999/1499م، ص78-142.

38 - كلام صدر عن خالد ميارة "أستاذ جامعي" مقدم زاوية مدينة سلا، أحد المقربين من الشيخ حمزة والمسؤول عن برنامج التكوين العلمي لشهر غشت، أثناء مداخلة في الدرس الافتتاحي للدورة التكوينية لشهر غشت 2016م. = =

هذا القرار يفسر موقف «الفُقَرَا» وسلوكهم اتجاه أي تساؤل حول الشيخ والزاوية كتنظيم، ويبرر احترامهم للعهد الذي أخذوه على أنفسهم، بعدم البوح بأسرارها والالتزام بقيم ومبادئ الزاوية. ويستشف مما ذكر أن الامتثال والانصياع إلى سلطة الشيخ المتمثلة في قيم ومبادئ الطريقة، تجعل بعض الآراء والمبادئ غير خاضعة للنقاش بمنطق العقل³⁹، لأن العلاقة التي تربط هذه الشريحة من «الفُقَرَا»، بالشيخ وبالطريقة، علاقة روحية أقوى من رباط العلم وتفسيراته العقلية.

مسألة عدم إفشاء السر، وعدم الإدلاء بمعلومات تخص الجماعة، والامتثال والخضوع ظاهرة غير مرتبطة بالزاوية وحدها، أي العلاقة بين الشيخ والمريد، حيث يمكن أن نلاحظها من حولنا في كافة مناحي حياتنا، سواء في منازلنا أو جامعاتنا أو إدارتنا وفي تنظيمات أخرى نقابية، حزبية... ذلك ما عبر عنه نور الدين الزاهي في كتابه "الزاوية والحزب"، إذ اعتبر أن الحزب في المغرب في علاقته بمنخرطيه يشكل امتداداً للزاوية، وعلاقة الشيخ بالمريد⁴⁰.

هذا يدفعنا لطرح سؤال حول مدى وجود "حس مشترك"⁴¹ للجماعة البودشيشية؟، أو ما يصطلح عليه "بالعقل الجمعي" للزاوية، رغم كونه يختلف في أبعاده عن مفهوم دوركايم⁴²؟. على اعتبار أن القيم والمبادئ داخل الزاوية تقوم بنفس الوظيفة التي تقوم بها القيم والمبادئ داخل المجتمع، بمعنى أنه يتم تنشئة الفرد على استبطان واحترام مجموعة من المعايير المختلفة، نظام

39 - في الامتثال والخضوع يؤكد ستانلي ميلغرام Stanly Miligram وهو عالم نفس اجتماعي أمريكي يعمل في جامعة ييل، بعد إجرائه لتجربة شهيرة أصبحت فيما بعد من أهم التجارب، وضحت حجم ومدى استعداد الإنسان إطاعة سلطة والامتثال بتنفيذ أوامر تتناقض مع ضميره ومعتقداته. للمزيد من المعلومات انظر: ستانلي ميلغرام، طاعة السلطة: وجهة نظر تجريبية، جامعة ميشيكان، هاربورد، 1974م.

*Milgram, Stinley. Obedience to authority: An experimental view. Harpercollins . (1974)

40 - ثقافة السر نجدها كثيراً في المجتمعات المغلقة والتنظيمات السرية حيث يكون الخضوع والطاعة لشخصية الأب الروحي أو الزعيم، واستحضار تعبير نور الدين الزاهي بكون "الحزب والنقابة امتداد للزاوية" جاء في سياق الكلام عن المجتمع المغربي بتنظيماته التي لا تزال مستغرقة في ارتباطها بفكر الشيخ والمريد مع تغييب التمثيل الحقيقي للنقابة والحزب، ونحن بذلك لا نعمم هناك دائماً أسرار المهنة في كل مجال...

41 - اقتباس مفهوم "الحس المشترك" للدلالة على وجود تمثيلات جاهزة يتقاسمها مجتمع الزاوية (بمعنى: وعي جمعي سابق).

42 - حسب ما جاء في كتابه "قواعد المنهج في علم الاجتماع"؛ أن العقل الجمعي يقوم بإشعاع قهره وتأثيره على عقول الأفراد، عن طريق التربية والتلقين والتقليد. حيث يتشكل لديهم فكر ووعي يساهم في تشكيل آرائهم واهتماماتهم وسلوكهم الاجتماعي، جمعي ينبع من قوة أنه يفرض هيمنته العقائدية. في، إميل دوركايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمود قاسم ومحمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، 1988م. ص 48-54.

"مساطر وقوانين" ليتمكن من التأقلم مع المجتمع الذي يعيش فيه، وبالمقابل تضع الزاوية معايير يلتزم الفقير بالخضوع لها، حتى يتم دمجها مع أتباعها.

والزاوية القادرية البودشيشية باعتبارها تنظيمًا اجتماعيًا دينيًا، هي تعبير عن نسيج من الدلالات (أفكار وممارسات)، يربط فقرا الزاوية بشيخهم، وبطريقتهم التي يمكن تسميتها بالحس المشترك للجماعة البودشيشية، أو العقل الجمعي البودشيشي. يتقاسمونه مهما اختلفت مكوناتهم الاجتماعية: اللغوية أو العمرية أو المهنية داخل الزاوية، التي توحد نظرتهم إلى الكون، وتتم تنشئتهم عليها بشكل ضمني أو مباشر، وذلك في اعتقادنا ما يعزز البناء الاجتماعي للزاوية وطريقتها، ويضمن استمراريتها عبر الزمن، ويجعلها تحتفظ لعدة أجيال بكيانها وهيكليتها العام، وتقسيماها الداخلية، ونمط علاقاتها ببعضها البعض.

ديوان العدد

يَا عَاهِلًا تَزْهُو الْبِلَادُ بِعَرْشِهِ !

الشاعر محمد البلغمي

- فاس -

وَاصْدَحْ بِهِ كَالْعَنْدَلِيبِ مُعَرِّدًا
حَسَنَاءَ تَعْبَقُ بِالْأَرِيحِ .. وَبِالنَّدَى
تُهْدِي لَهُ صِدْقَ الْوَلَاءِ مُؤَكَّدًا
وَهَوَاكَ فِي دِمْنَا سَرَى وَتَوَقَّدَا
بِالشَّعْرِ يَصْدَحُ شَادِيًا وَمُرَدَّدَا
وَسَمَوْتَ فِي أَفْقِ الْمَكَارِمِ فَرَقَّدَا
قَدْ بَادَلْتِكَ مَحَبَّةً وَتَوَدَّدَا
بِكِفَاحِ هَذَا الْعَرْشِ عَاشَ مُوَحَّدَا
شَرَفٌ يَزِيدُ مَعَ الزَّمَانِ تَوَطَّدَا
أَفَاقُهَا حُسْنًا، وَرَاقَتْ مَشْهَدَا
شَوْقٌ لِيَتَحَضَّنَ الْمَلِكُ مُحَمَّدَا
وَبِعَرْشِكَ الْمُنْصُورِ يَهْتَفُ مُنْشِدَا
وَهَبِ الْيَادِي لِلْبِلَادِ وَأَنْجِدَا
عِيدَ الْجُلُوسِ، وَلِلْوَلَاءِ مُجَدَّدَا
وَلَأَنْتَ قَائِدُهُ الْعَظِيمُ الْمُفْتَدَى
وَتَشِيدُ بِأَسْمِهِ رَاغِبًا وَمُشِيدَا
بِرُبُوعِ مَغْرِبِنَا عَطَاءً جَيِّدَا
لِيَعِيشَ شَعْبُكَ فِي الرِّخَاءِ وَيَسْعَدَا
وَأَقْمَتَهَا لِلدِّينِ أَعْظَمَ مُتَدَى

رَتَّلْ قَصِيدَكَ رَائِعًا وَمُجَوِّدَا
وَأَقْطِفْ مِنَ الْأَزْهَارِ أَجْمَلْ بَاقِيَةً
وَارْفَعْ إِلَى الْمَلِكِ الْهُمَامَ تَحِيَّةً
مَوْلَايَ عِيدُكَ فَرَحَةً نَشْدُو بِهَا
وَجَرَى مِنَ الْأَغْصَانِ صَوْتُ وَجِيهٍ
يَأْمَنُ عَلَوْتَ عَلَى السَّمَاءِ مَكَانَةً
وَبِعَرْشِكَ الْمَيْمُونِ تَفَخَّرْ أُمَّةً
مِنْ عَهْدِ "مَوْلَايَ الشَّرِيفِ" وَقُطِرْنَا
مِنْ عَاهِلٍ شَهْمٍ لَأَكْرَمِ عَاهِلٍ
هَذِي الْمَوَاطِنُ يَوْمَ عِيدِكَ أَشْرَقَتْ
وَتَزَيَّنَتْ مِثْلَ الْعُرُوسِ .. يَحْتَنُّهَا
وَالشَّعْبُ فِي طَرَبٍ يُرَنِّحُهُ الْهُوَى
وَيُبَارِكُ الْخَطَوَاتِ لِلْمَلِكِ الَّذِي
وَسَعَى إِلَيْكَ مُهْتَنًّا وَمُبَارِكَا
فَلَأَنْتَ مَنْ نَوَّلْتَهُ أَغْلَى الْمُنَى
يَا عَاهِلًا تَزْهُو الْبِلَادُ بِعَرْشِهِ
عِشْرُونَ عَامًا، كَالْعُقُودِ تَأَلَّقَتْ
أَنْفَقَتْ فِي الْعَمَلِ الدَّوُوبِ سِنِينَهَا
هَذِي الْمَسَاجِدُ قَدْ رَفَعَتْ بَنَاءَهَا

يَرْتَادُهَا شَعْبٌ يُقَدِّسُ رَبَّهُ
وَبَنَيْتَ لِلْعِلْمِ الرَّفِيعِ مَعَاهِدًا
وَأَقَمْتَ دُورَ الْخَيْرِ فِي أَوْطَانِنَا
وَلِحِضْنِ "إِفْرِيقِيَا" أَعَدْتَ بِلَادَنَا
وَأَعَدْتَ لِلْمُذْنِ الْعَتِيقَةِ مَجْدَهَا
فَعَدَا السُّرَاتُ بِهَا يُشْعُّ نَضَارَةً
وَالْقُدْسُ تَفَخَّرَ بِالَّذِي أَوْلَيْتَهَا
وَلَسَوْفَ تَعْمَلُ جَاهِدًا لِحَلَاصِهَا
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي بِضُمُودِهِ
لَسْنَا نَهَابُ تَطَاوُلًا مِنْ حَاقِدِ
الْحَرْبِ نَحْنُ كُفَّائِهَا وَأُسُودُهَا
وَالسَّلَامُ نَحْنُ بِنَائِهِ وَرِعَائِهِ
مَهْمَا أَغَارَ عَلَى الْحِمَى مُتَطَاوِلُ
فَالْعَرْشُ وَحَدَّ بِالنَّضَالِ صُفُوفَنَا
إِنَّا نُوَيِّدُ مَا تُحْطِطُهُ لَنَا
وَالشَّعْبُ شَعْبُكَ إِنْ تُرِدْهُ لِيَاغِيَةً
يَمْضِي وَرَاءَكَ لِلْعُلَى مُتَسَلِّحًا
يَا نَاصِرَ الْإِسْلَامِ.. هَذَا عَهْدُنَا
فَاهْنَأْ بِعَيْدِكَ يَا إِمَامَ، وَدُمُ لَنَا
وَأَسْلَمَ بِعَافِيَةٍ تَدُومُ، وَرَبَّنَا
وَلْيَحْفَظِ الْحَسَنَ الْحَبِيبَ إِلَّا هُنَا
وَلْيَمُضْ فِي ظِلِّ لِعَرْشِكَ سَالِكًا
وَأَقْبَلْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَهَانِيًا

وَيَسِيرُ مُقْتَدِيًا بِجَدِّكَ "أَحْمَدًا"
رَاقَتْ مَعَارِفُهَا لِشَعْبِكَ مَوْرِدًا
كَيْ تَعْتَنِي بِالْمُعَوِّزِينَ.. وَتُنْجِدَا
وَأَنْتَهُمَا بَيْنَ الْمُحَافِلِ مَقْعَدَا
مِنْ بَعْدِمَا.. بِالْهُدْمِ كَانَ مُهْدَدَا
وَجَمَالَ مَا ضِيَّهَا الْأَصِيلِ تَجَدَّدَا
وَمَنَارُهَا بِكَ لَمْ يَزَلْ مُسْتَنجِدَا
وَتَفُكُ مِنْ أَيْدِي الطُّغَاةِ "الْمُسْجِدَا"
ضَرَبَ الْمِثَالَ، وَكَانَ فِيهِ الْمُفْرَدَا
كَلًّا وَلَا نَخْشَى الْعِدَا وَالْحُسَدَا
وَلَمَنْ يُعَادِينَا.. نُجَرِّعُهُ الرَّدَى
وَنُمَدُّ لِلْإِخْوَانِ - إِنْ صَدَّقُوا - الْيَدَا
سَيُرْدُ مَدْحُورَ الرَّجَاءِ مُشَرَّدَا
وَبِقَضَائِهِ أَمْنُ الْبِلَادِ تَوَطَّدَا
وَنَرَى السَّعَادَةَ وَالْأَمَانَ بِهِ غَدَا
سَتَجِدُهُ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ مُجَنَّدَا
بِعَزِيمَةٍ كُبْرَى.. تَفُتُّ الْجَلْمَدَا
لَكَ أَنْ نَدُومَ عَلَى الْوَفَاءِ وَنَضُمْدَا
تَبْنِي الْمَفَاخِرَ لِلْحِمَى.. وَالسُّودَدَا
يُعْطِيكَ نَصْرًا دَائِمًا وَمُحَلَّلَدَا
وَلِيَا لِعَهْدِكَ، وَالرَّشِيدَ الْأَمْجَدَا
سُبُلَ الْمَعَارِفِ وَالْمَعَالِي وَالْهُدَى
كَالْمِسْكِ مَا صَدَحَ الْهَزَارُ وَغَرَّدَا

فهرس العدد:

افتتاحية 7

ملف العدد

- الذكرى العشرينية تجديد للتلاحم بين الراعي والرعية
د. إبراهيم الوافي 11
- المرأة المغربية في عهد محمد السادس نصره الله: عشرينية تنمية وعطاء متجدد
د. ناجية أقجوج 19
- إمارة المؤمنين: ضمانات للانتقال الديمقراطي والتوافق الاجتماعي وتدبير التعددية وتمنيع الوحدة الوطنية
د. رجاء ناجي مكاوي 35
- إسهام صاحب الجلالة الملك محمد السادس في بناء المشروع الحضائي الإفريقي
د. سمير بوزويطة 69
- البيعة ودلالاتها ومسؤولية الراعي والرعية في الالتزام بمضامين عقدها
د. أحمد الأزمي 79
- الدوحة العلوية الشريفة، شجرة مباركة من أرض طيبة
د. لحسن تاوشيخت 89
- وحدة الأمة ووسطيتها في ظل إمارة المؤمنين
ذ. عبد الحي عمور 115

- قراءة في مفهوم "التعارف المتبادل" في الخطاب الملكي أثناء الزيارة البابوية

د. حسن عزوزي 121

- عيد العرش المجيد تاج أعياد المغاربة بيعة شرعية وعهود مرعية

د. محمد مشان 131

- إمارة المؤمنين ورعاية الوحدة الوطنية في ظل حماية الدين

د. سعاد رحائم 137

مقالات داعمة

- الدلالة الرمزية لمبدأي الإذن والعهد في علاقة الشيخ بالمريد الزاوية القادرية البودشيشية
نموذجاً

ذ. نور الدين بلغازي 153

ديوان العدد

- يَا عَاهِلًا تَزْهُو بِالْبِلَادِ بِعَرْشِهِ !

الشاعر محمد البلغمي 169

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

■ أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.

■ أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.

■ ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.

■ في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.

■ في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.

■ تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.

■ ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.

■ البريد الإلكتروني هو : alamihamid49@gmail.com

■ ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

■ الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.

■ ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

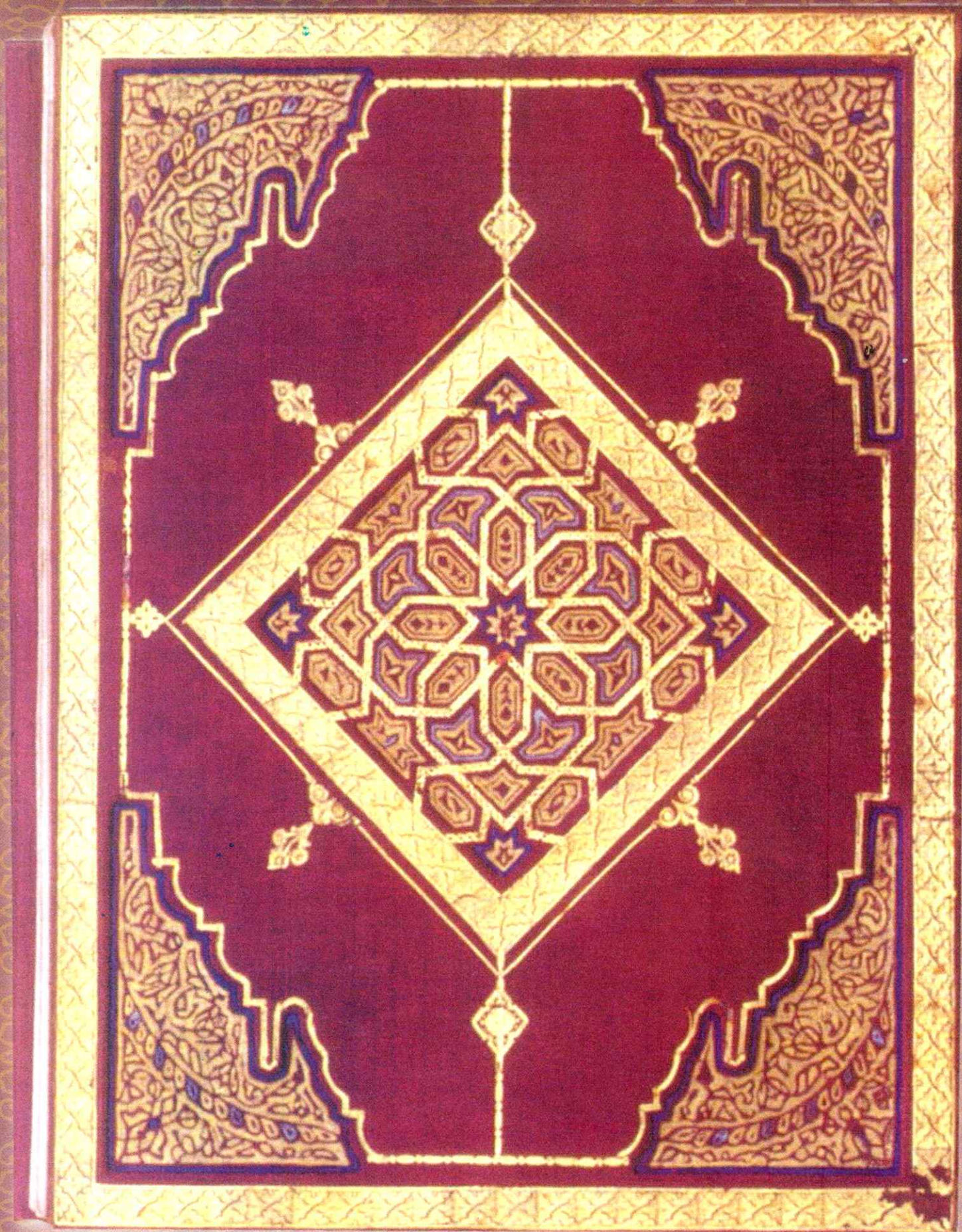
محاور الأعداد المقبلة:

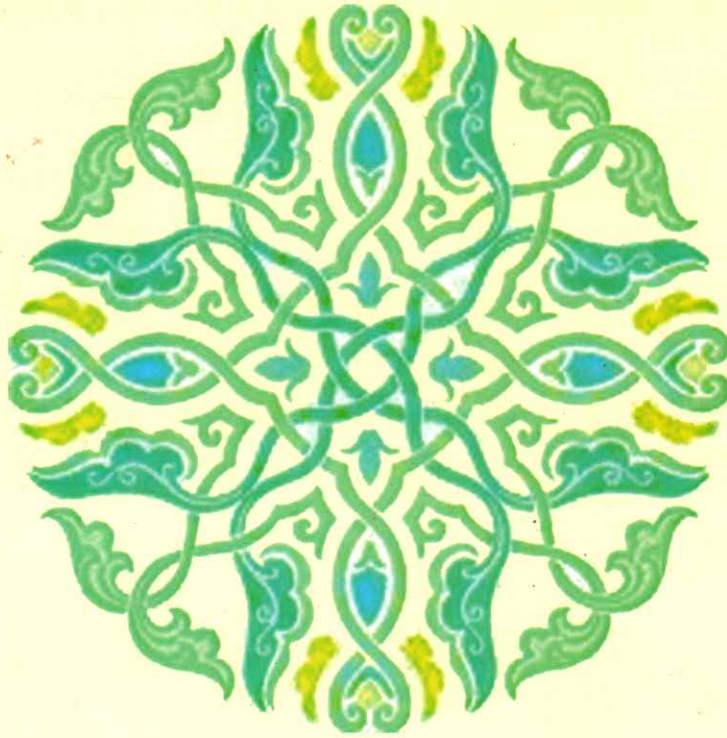
تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاور الآتية:

1- مقاصد الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف.

2- المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي.

3- فقه العمران في المذهب المالكي.





دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعكر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية